أمواج الفتن
و
سفينة النجاة

آية الله محمد تقي مصباح اليزدي





سرشناسه	مصباح، محمدتقی،
عنوان قراردادی	طوفان فتنه و کشتی بصیرت. عربی.
عنوان و نام پدیدآور	امواج‌الفتن و سفینةالنجاة / محمدتقی مصباح‌یزدی؛ ترجمهٔ حیدر حیدری؛ مصحح محمد عبدالمنعم خاقانی.
مشخصات نشر	قم: مؤسسهٔ آموزشی و پژوهشی امام خمینی ﷺ، ۱۳۹٤.
مشخصات ظاهری	۳۲۰ص.
فروست	انتشارات مؤسسهٔ آموزشی و پژوهشی امام‌خمینی ﷺ؛ ۱۱٦۹. جامعه‌شناسی؛ ۳۵.
شابک	۹۷۸-۹٦٤-٤۱۱-۹٤۲-۲
وضعیت فهرست‌نویسی	فیپا.
یادداشت	عربی.
یادداشت	کتابنامه.
موضوع	فتنه و فتنه‌انگیزی -- جنبه‌های مذهبی — اسلام.
موضوع	بصیرت.
شناسهٔ افزوده	حیدری، حیدر، مترجم.
شناسهٔ افزوده	خاقانی، محمد عبدالمنعم، مصحح.
رده‌بندی کنگره	BP۲۲۵/٤/م٦ط۹۰٤۳
رده‌بندی دیویی	٤٦٤/۲۹۷
شمارهٔ کتاب‌شناسی ملی	۳۹۱۹٦۲۷

أمواج الفتن وسفينة النجاة

الهاشمي

تأليف

آية الله محمد تقي مصباح اليزدي

ترجمه إلى اللغة العربية
الدكتور حيدر الحيدري

حقّق الترجمة وصحّحها
الشيخ محمّد عبد المنعم الخاقاني

انتشارات مؤسسه آموزشی و پژوهشی امام خمینی

١٣٩٤

رقم التسلسل ١١٦٩

الرقم الموضوعي علم الاجتماع-٣٥

١٤-١٣٩٤

■ امواج الفتن و سفينة النجاة

● المؤلف: الاستاذ العلّامة محمدتقي مصباح اليزدي

● ترجمة: الدكتور السيد حيدر الحيدري

● حقّق الترجمه و صحّحها: الشيخ محمد عبدالمنعم الخاقاني

● الناشر: دارالنشر مؤسّسة الامام الخميني ﵀ للتعليم و البحث

● الطبعة: الاولى، ١٤٣٧هـ. — ٢٠١٥ م.

● الثمن: ١٥٠٠٠ تومان

○ دفتر مرکزی: قم، خیابان شهداء، کوی ممتاز، پلاک ۳۸
تلفن و نمابر: ۳۷۷۴۲۳۲۶ ۰۲۵

○ شعبه موسسه امام خمینی (ره): قم، بلوار امین، بلوار جمهوری اسلامی، مؤسسه آموزشی و پژوهشی امام خمینی (ره)
تلفن: ۳۲۱۱۳۶۲۹ ۰۲۵

○ آفتاب پنهان ۰۳۶۰۰۱۱۵۲۹۱۱۰

شابك: ٢-٩٤٢-٤١١-٩٦٤-٩٧٨

مقدّمة معاونيّة الأبحاث

الحقّ هو أكثر أسرار الوجود وأشدّ حاجات الإنسان أصالة وخلوداً وجمالاً. فهو الذي بذل المؤمنون والعلماء الصادقون على مرّ التاريخ مهَجَهم وأرواحهم رخيصة في سبيله، وتكالبت قوى الباطل والجهل بأصناف الحيل وألوان المكائد من أجل محوه ومسخه. فكم هي مُرّة مظلوميّة الحقّ، وكم هي عذبة تلك الحقيقة الماثلة وهي أنّ الحق في صراعه المستمرّ مع الباطل هو دائماً إلى ظفر وسموّ أمّا الباطل فهو إلى انكسار وزوال. ولعمري فإنّ ما أصاب الحقّ من مقام رفيع ومنزلة سامية هو ـ ناهيك عن الطبيعة التي أُودعت فيه ـ رهن بتلك الجهود الخالصة والمضنية لطلّاب الحقّ والحقيقة الذين عافوا رخيص حطام الدنيا وزهدوا في فاني متاعها وشمّروا عن السواعد وأعلوا الهمم في مضمارَي التنظير والعمل، وإنّ الأكثر تألّقاً والأشدّ نصوعاً في هذا الميدان هو الدور الذي نهضت به الأديان السماويّة والأنبياء والرسل، لاسيّما الدين الإسلاميّ الحنيف والنبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله والخلفاء بالحقّ من بعده أئمّة الهدى ومصابيح الدجى عليهم السلام.

ولقد حمل علماء الشيعة الأعلام هذا اللواء مدركين أنّ الرسالة الخطيرة والفريدة التي يتعيّن عليهم أداؤها هي الاستمداد من العقل والنقل، والغوص في أعماق بحر المعارف القرآنيّة اللجّي، واستخراج جواهر الحقّ النفيسة من سِيَر هؤلاء الأطهار عليهم السلام لتقديمها إلى البشريّة، والاستماتة في صدّ هجمات قراصنة الظلام الفارّين من نور الحقّ، حتّى استُهلكت في هذا الطريق أنوار أعينهم، وفنِيَت على هذا الدرب أعمارهم المباركة. أمّا في عصرنا الراهن، عصر أزمة المعنويّات، حيث لم يألُ أعداء الحقّ والإنسانيّة في محاولة السيطرة على العالم جهداً ولم يفرّطوا في هذا السبيل بأيّ لحظة من خلال إنتاج ونشر ما لا يحصى ولا يُعدّ من الآثار المكتوبة والمرئيّة وتوظيف كلّ ما توفّر في أيديهم من وسائل التقنية الحديثة والإمكانيّات المتطوّرة في المجالات المختلفة، فإنّ رسالة طلّاب الحقّ والمفكّرين في الحقلين الحوزويّ والجامعيّ، نخصّ منهم بالذكر علماء الدين، هي على جانب عظيم من الخطورة والصعوبة.

لقد سطّر طلّاب العلوم الدينيّة الشيعة ومحقّقو هذا المذهب في علوم الفلسفة والكلام والتفسير والحديث والفقه والأُصول وأمثالها صفحات وضّاءة، وتركت بحوثهم وتأمّلاتهم بصمات نفيسة على الأبحاث الإسلاميّة. وكذا في حقل العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة والتقنيات الحديثة فقد بذل باحثونا جهوداً ملفتة للنظر وتقدّموا بخطوات واعدة كي يقتربوا بنشاطاتهم المتواصلة ومساعيهم المتنامية من المكانة العلميّة التي تليق بهم على مستوى العالم سعياً إلى نيلها. أمّا على صعيد الأبحاث والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة فلم تبلغ جهود علماء هذه الديار إلى الحدّ الذي يليق بمكانة النظام الإسلاميّ، بل إنّهم قد اكتفوا أحياناً بترجمة بعض آثار الآخرين واقتباس نظريّاتهم. ففي هذا المجال قلّما

نلاحظ بصمات الابتكار وآثار التجديد المبنيّ على الأُسس الإسلاميّة، الأمر الذي يوحي بأنّ أمامنا طريقاً طويلاً وتحدّيات صعبة للوصول إلى ما نصبو إليه. ومن هذا المنطلق فإنّه علاوة على استنباط التعاليم الدينيّة واستخراجها وتفسيرها وتبيينها وتنظيم المعارف الإسلاميّة فإنّ من الأولويّات التي تضعها المؤسّسات العلميّة على وجه العموم ومراكز الأبحاث التابعة للحوزات العلميّة على وجه الخصوص ـ تضعها نُصب أعينها هي الخوض في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة وسبر أغوارها بما ينسجم مع الرؤية الإسلاميّة.

وفي هذا السياق فقد أولت مؤسّسة الإمام الخمينيّ للتعليم والأبحاث مستنيرة بتوجيهات قائد الثورة الكبير الإمام الخمينيّ الراحل ومستمدّة العزم من الدعم المتواصل والمستمرّ لخلفه الصالح سماحة آية الله العظمى الإمام الخامنئيّ (مدّ ظلّه العالي) ومستهدية بالسياسات التي رسمها لها سماحة آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزديّ (دامت بركاته) ـ أولت منذ مطلع تأسيسها اهتماماً بالغاً بمسألة البحث العلميّ والتحقيق الدينيّ وتبنّت أبحاثاً تأسيسيّة واستراتيجيّة وتطبيقيّة غايتها تلبية حاجات المجتمع الفكريّة والدينيّة. وبغية تحقّق هذا الهدف الخطير فقد عمدت معاونيّة الأبحاث في المؤسّسة ـ مضافاً إلى التخطيط الممنهج وتوجيه الطلّاب والباحثين الوجهة المطلوبة ـ إلى نشر آثار الباحثين والمحقّقين، وقد نجحت لحدّ الآن ـ ولله الحمد ـ بما أُوتيت من الطاقات والإمكانيّات في تقديم آثار نفيسة إلى المجتمع الإسلاميّ.

وهذا الكتاب الذي بين يدي القارئ يشتمل على قسم من محاضرات الاستاذ الحكيم سماحة آية الله محمّد تقي مصباح اليزديّ (دامت بركاته) حول موضوع «معرفة الفتنة» كان سماحته قد ألقاها على جمع من نخب طلّاب الحوزة العلميّة

بقمّ المقدّسة. وقد قام بتصنيفه وتدوينه الباحث المحترم حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ غلام علي عزيزي كيا. هذا وقد طلبت المؤسّسة من الأخ حيدر الحيدري أن ينهض بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، فقام بالمهمة ـ مشكوراً ـ ثمّ تمّ عرض الترجمة العربية على المحقّق حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ محمّد عبد المنعم الخاقانيّ فقام بتحقيقها وتصحيحها. والهدف الأساسيّ من الكتاب هو توضيح مفهوم الفتنة في الثقافة الإسلاميّة بشكل دقيق وتقديم عرض تحليليّ لبعض الفتن الاجتماعيّة.

وإذ تضع معاونيّة الأبحاث في المؤسّسة هذا الكتاب بين يدَي القرّاء الأعزّاء فإنّها تتضرّع إلى المولى العليّ القدير بأن يطيل عمر سماحة آية الله اليزديّ ويمنّ على الباحث المحترم الذي تولّى مسؤوليّة تدوين الكتاب وعلى المترجم الكريم والمحقّق الفاضل بمزيد من الموفّقيّة والنجاح.

معاونيّة الأبحاث

مؤسّسة الإمام الخمينيّ رحمه الله

للتعليم والأبحاث

الفصل الأول

الفتنة والامتحان الإلهي في القرآن والسنة

مدخل

من الكلمات المفتاحيّة المستعملة في القرآن الكريم و**نهج البلاغة** وجوامع الحديث الأُخرى هي كلمة: «الفتنة» ومشتقّاتها[1]. لكنّ القرآن الكريم يستعمل هذه المفردة بمعانٍ مختلفة، وكذا هو الحال في الروايات وكلمات العلماء فإنّ معانيها تختلف بحسب الموارد أيضاً.

والترتيب المنطقيّ لهذا البحث يقتضي التحدّث ـ بادئ ذي بدء ـ عن مفهوم الفتنة وماهيّتها، والإجابة عن أسئلة من قبيل: ما هي «الفتنة»؟ وما هي موارد استخدام هذا اللفظ؟ ولماذا استُعملت هذه الكلمة أساساً؟ إذن فالمحور الأوّل الذي لابدّ من تناوله في هذا البحث هو تقديم توضيح لمفهوم الفتنة كي يتكوّن في أذهاننا تصوّر صحيح عنها.

مفهوم الفتنة

تختلف استعمالات القرآن الكريم لمفردة «الفتنة» ـ كما ذكرنا ـ اختلافاً كبيراً وتتّخذ حكم المشتركات اللفظيّة؛ هذا وإن سعى بعض اللغويّين إلى إرجاع المشتركات اللفظيّة إلى أصل أو أصلين مدّعين بأنّ الأصل في هذا المعنى هو

---

(١) وردت مشتقّات مادّة: «فَتَنَ» في القرآن الكريم حوالي ستّين مرّة، وفي **نهج البلاغة** حوالي ثمانين مرّة.

واحد وأنّ المعنى الثاني والثالث إنّما ينشأ من إضافة بعض الخصوصيّات إلى المعنى الأوّل. بل وإنّ الإفراط والتفريط قد وجد سبيله إلى هذا الوادي أحياناً إلى درجة إرجاع بعضهم لمفاهيم ليس بينها أيّ وجه للاشتراك، بل وقد تكون متضادّة أيضاً، إلى أصل واحد. وهذا بحث فنّي ولا يؤدّي في أكثر المواطن إلّا إلى نتائج ظنّية وضعيفة؛ ففي معظم الموارد لم يقدّم لغويّون من أمثال صاحب «مقاييس اللغة»، ممّن حاولوا إرجاع المفردات إلى أصل واحد، دليلاً شافياً وبرهاناً مقنعاً على مدّعاهم.

اشتراك لفظيّ أم معنويّ؟

هل يمكن يا ترى العثور على وجه تشترك فيه ألفاظ تحمل معاني مختلفة بحيث يُنسب هذا الوجه إلى جميع تلك الألفاظ؟ فإن كان المراد من هذا الكلام هو إرجاع هذه المعاني إلى مشترك معنويّ واحد والقول: إنّ الأصل فيها هو معنى واحد وهذا التعدّد في المعاني هو من خصوصيّات المورد، فالحقّ والإنصاف انّه ينطوي على تكلّف؛ ذلك أنّ الاختلاف بين المعاني يكون أحياناً من الشدّة بحيث يصعب معه القول: إنّ المفردة الفلانيّة تمثّل مشتركاً معنويّاً؛ كما في كلمة «الإنسان» التي يشترك فيها كلّ أفراد البشر لكنّ خصوصيّات من قبيل العِرْق، واللغة، واللون، والجنس، وما إلى ذلك تجعل من الإنسان ذكراً تارةً وأُنثىً تارةً أُخرى، عربيّاً طوراً وأعجميّاً طوراً آخر، وأنّه أسود حيناً وأبيض حيناً آخر، لكن يبقى معنى «الإنسان» مشتركاً بين الجميع. أمّا إذا كان الغرض منه هو البحوث المعمول بها في علم اللغة والتي تناقش مفردة كان لها ـ أصلاً ـ معنى معيّن فتعرّضت تدريجيّاً وبمرور الزمن إلى تحوّلات فأصبح لها معنى آخر،

ممّا يصطلَح عليه بـ«المنقول»، وتبحث في أسباب نقل المعنى لكشف الارتباط الموجود بين المعاني المختلفة، بحيث يكون هذا البحث معقولاً ومّما يقرّه العُرف وخالياً من التكلّف، فلا ضير فيه لأنّه من فروع علم اللغة.

ونقول هنا إجمالاً: إنّ الاستعمالات المتعدّدة لكلمة: «الفتنة» في القرآن الكريم هي بحيث لا يمكن اعتبارها من قبيل المشترك المعنويّ. فالقرآن الكريم على سبيل المثال يقول في الأولاد والأموال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾(١). فلو قارنّا هذا الاستعمال لكلمة الفتنة ـ مهما كان معناها ـ مع استعمالها في آية أُخرى تقول: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾(٢) فأيّ تناسب بين المعنيين يا ترى؟ أي: إذا كان معنى «الفتنة» في جملة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ يماثل معناها في عبارة: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ فما هو معنى الأُولى إذن؟ هل إنّها تعني: أنّ أولادكم أشدّ وأسوأ من القتل؟! فهذا معنى غامض. والأمر ذاته ينطبق على مشتقّات هذه الكلمة الواردة في الآيات القرآنيّة؛ نحو: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾(٣)؛ فقد ذهب المفسّرون إلى كون «مفتون» هنا مصدراً، فيكون الخطاب موجّهاً لأُولئك الذين رموا النبيّ ﷺ بالجنون ـ والعياذ بالله ـ إذ يقول لهم عزّ من قائل: تمعّنوا في الأمر جيّداً وانظروا ما إذا كنتم أنتم أولى بالجنون أم هو؟ إذن فالـ«مفتون» هنا يعطي معنى الجنون والمجنون. فأيّ علاقة لهذا المعنى مع الأموال والأولاد؟ بل أيّ ارتباط له بالفتنة التي هي أشدّ من القتل؟ وكذا الحال مع قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي

---

(١) **سورة التغابن**، الآية ١٥.

(٢) **سورة البقرة**، الآية ١٩١.

(٣) **سورة القلم**، الآية ٦.

ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾[1] وأمثال ذلك كثيرة. إذن فليس هناك وجه مشترك مقنع بين هذه الاستعمالات. وحتّى في كتب اللغة فقد ذكروا لكلمة: «الفتنة» معاني شتّى يصعب جدّاً العثور على وجه مشترك بينها. ولهذا لا يمكن عدّ مفردة: «الفتنة» مشتركاً معنويّاً بحيث يُعزى الاختلاف الموجود إلى خصوصيّات المصداق. لكن على أيّة حال فقد تجشّم بعض أصحاب الرأي في هذا المجال مشقّة إرجاع معاني الاستعمالات المختلفة إلى أصل واحد.

المصاديق الثلاثة للألفاظ

هناك قاعدة في علم اللغة تتمتّع بقدر لا بأس به من المقبوليّة مفادها أنّ الألفاظ الموضوعة في أيّ لغة توضع في البدء لاستعمالها في المصاديق المادّية. فأوّل ما بدأ الإنسان بالنطق لم يكن يدرك المسائل المعنويّة والانتزاعيّة جيّداً، فكانت كلّ حوائجه تؤَمَّن من خلال الأُمور المادّية التي يحتكّ بها في حياته اليوميّة. ففي باب الكِبَر والصِّغَر والعلوّ والانخفاض وأمثالها فإنّ مفهوم العلوّ ـ مثلاً ـ قد وُضع أوّلاً للتعبير عن ارتفاع السقف بالنسبة إلى سطح الأرض، ثمّ اكتشفوا أنّ ثمّة معاني أُخرى لا يناسبها أيّ تعبير آخر سوى العلوّ؛ كأن نقول: إنّ مقام الله عزّ وجلّ عالٍ، أو: إنّ له علوّاً. وهذا المعنى هو ما يتصوّره الناس للعلوّ المعنويّ بعد تصوّرهم للعلوّ المادّي. فعندما لاحظوا أنّهم يريدون هذا المعنى راحوا يستعملون له نفس اللفظ الذي وضعوه للعلوّ المادّي، بعد أن جرّدوه فقالوا: العلوّ على نوعين: علوّ حسّي، وعلوّ معنويّ. فالله جلّ ذكره له علوّ معنويّ. كما ويقال: إنّ الله كبير، أو أكبر، أو عظيم، أو أجلّ، أو أعظم،

---

(١) سورة التوبة، الآية ٤٩.

فنحن نستعمل كلّ هذه التعابير لله عزّ وجلّ. فالكِبَر كان قد وُضع بادئ الأمر للتعبير عن أنماط الكِبَر الحسّية؛ لكنّنا إذا أحببنا أن نتحدّث عن الله جلّ شأنه فإنّنا لا نجد ما هو أنسب من مفهوم الكِبَر للتعبير عنه؛ فنقوم بتوسيع معناه وفقاً لذلك. بمعنى: أنّ لفظة «الكِبَر» أوّل ما وُضعت قد كانت لبيان كِبر الأجسام بالنسبة إلى بعضها البعض. فإنْ قمنا بتوسيع معناها فسنقول: ليس الكِبر جسمانيّاً فحسب، بل هناك كِبر معنويّ أيضاً.

إذن تأسيساً على هذه القاعدة فإنّ الألفاظ قد وُضعت ابتداءً للتعبير عن المصاديق المادّية، ثمّ أصبحت تُستعمل ـ شيئاً فشيئاً، وعبر بعض التصرّفات، وفي مناسبات معيّنة ـ في معانٍ انتزاعيّة واعتباريّة ومن ثمّ في معانٍ معنويّة ومعانٍ ترتبط بما وراء الطبيعة؛ أي إنّ الألفاظ ـ في الغالب ـ تُستخدم في بدايتها بصورة المجاز مصحوبة بالقرينة، ثمّ تتحوّل بالتدريج إلى ألفاظ منقولة لها معانٍ حقيقيّة جديدة.

العلاقة بين المعاني الجديدة والأصيلة

إنّ من غير الممكن وضع صيغة خاصّة لمعرفة الصلة بين المفهوم الابتدائيّ والموسَّع. فقد تكون المسافة بين الاثنين في بعض الأمثلة من الكبر بحيث يصعب إيجاد وجه مشترك بينهما. فلربما استطعنا القول فيما يتعلّق بالكِبَر: إنّ الكِبر على صنفين: كِبر حسّي وكِبر غير حسّي، أمّا بالنسبة لبعض المصاديق المعنويّة الأُخرى فلا يسعنا القول: إنّ لها مصداقاً مادّياً ومصداقاً معنويّاً؛ إذ أنّ شدّة تنزّه الثاني عن الخصوصيّات المادّية والنقائص هي إلى درجة تجعل منه ـ بحقّ ـ معنى آخر.

فإنْ أخذنا بالقاعدة المذكورة واستعرضنا موارد استعمال «الفتنة» في القرآن

الكريم فسنجد أنّ المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[(١)]؛ أي: يصهرون، لربما يكون أشدّها حسّيةً. فكلمة: «فتن» هنا تعني الإحماء والحرق وهو مصداق حسّي وليس ثمّة ما هو أشدّ إمعاناً في الحسّية منه. فحتّى معنى الجنون في الآية: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾[(٢)] فهو ليس محسوساً بشكل مباشر بل إنّه يُكتشَف من علاماته؛ ذلك أنّ حقيقته هي حالة روحيّة واختلال يصيب روح الإنسان أو دماغه فتنعكس آثارها على سلوكه وتصرّفاته. فإنّ ما يشاهَد مباشرةً على الإنسان هو سلوكٌ ينمّ عن جنون، أو على الأقلّ فهو لا يحتوي على ما يحتويه الإحماء في النار من بُعد حسّي؛ لأنّ المرء في الحالة الأخيرة يشاهد بأُمّ عينيه أنّ شيئاً يُسخّن أو ينصهر في النار. فالذهب ـ على سبيل المثال ـ عندما يُصهر في النار يقال: «فُتِن الذهب». ومن هذا المنطلق يمكننا القول: أوّل ما وُضعت لفظة: «فتن» كانت للتعبير عن الإحماء والتسخين. لكن لّما كانت للإحماء والتسخين لوازم وآثار خاصّة فقد صاروا يستعملون هذه الكلمة في موارد معيّنة للدلالة على معانٍ أُخرى، ابتداءً بصورة المجاز ثمّ بصورة المنقول بما يتناسب مع تلك اللوازم والآثار المترتّبة على المعنى الأصليّ. وبناءً عليه فقد باتت لفظة: «فتن» تُستعمل بمعنى آخر يشبه الإحماء أو يماثل بعض آثاره.

فبشكل طبيعيّ عندما يُحمى شيء على النار تحدث فيه حركة ويحصل فيه تغيير. ولهذا فقد صار الناس فيما بعد يستخدمون مادّة: «فتن» للتعبير عن الاضطرابات. كما أنّ الاضطراب يكون تارة شخصيّاً؛ أي إنّ حالة نفسيّة تصيب المرء تسمّى

---

(١) سورة الذاريات، الآية ١٣.

(٢) سورة القلم، الآية ٦.

الاضطراب والقلق النفسيّ، ويتّخذ تارة أُخرى بُعداً اجتماعيّاً؛ بمعنى أنّ المجتمع يصاب بحالة من الاضطراب وعدم الاستقرار. وعلى هذا المنوال فإنّ مصطلح: «الفتنة» بات يأخذ بالتدريج معاني جديدة ويُستعمل في موارد أُخرى من جملتها ما يحلّ بابن آدم من البلايا التي تغيّر حاله وتجعله مضطرباً. وإنّ استخدام لفظة: «الفتنة» للدلالة على الامتحان هو من باب أنّ الشخص عندما يُمتحن تنتابه حالة من الاضطراب والقلق من أنّه سيجتاز هذا الامتحان بنجاح أم سيفشل فيه؟ إذن فحالة الاضطراب هي من لوازم الامتحان. وبناء عليه فقد عُبّر عن الامتحان بـ «الفتنة». فعندما يقول الباري عزّ وجلّ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(١) يقول بعدها مباشرة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾(٢). إذن فـ«الفتنة» هنا تعطي معنى الامتحان. أمّا في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(٣) فقد استُعمل لفظا: «البلاء» و«الفتنة» سويّة(٤) والمراد منه هو: أنّنا نبلوكم

---

(١) **سورة العنكبوت**، الآية ٢.

(٢) **سورة العنكبوت**، الآية ٣.

(٣) **سورة الأنبياء**، الآية ٣٥.

(٤) ما نستشفّه من البحوث اللغويّة أنّ معاني من قبيل الشدّة، والاضطراب، والمصيبة، والبلاء هي مُستودعة في مادّة: «الفتنة»، أمّا فيما يخصّ استعمالها في باب الامتحان ولاسيّما الاختبار والابتلاء فإنّ الخصوصيّات والمعاني الملحوظة في لفظة: «الفتنة»، والتي تتبادر عادة إلى الذهن، لا تكون ملحوظة تماماً في هذا الباب. فما المصطلح الذي يمكن إطلاقه على ألفاظ من هذا القبيل، أي التي يكون بينها بعض الشبه (قلّ أو كثُر) والتي يكون لبعضها امتيازات معيّنة في مقام الاستعمال؟ يُطلق على مجموع هذه الألفاظ مسامحةً «المترادفات»، غير أنّ لبعضها في لسان العرب خصوصيّات تصدق في بعض المواطن ولا تصدق على بعض المفاهيم الأُخرى. فالأُمور التي يُحدثها الله سبحانه وتعالى للإنسان ليجعله أمام مفترق طريقين ولابدّ له من اختيار أحدهما يُطلق عليها عنوان: «الفتنة» أو «الفتون» من باب أنّها من فعل الله ومنسوبة إليه جلّ شأنه.

بالنعم والشدائد من باب الامتحان والاختبار.

إذن يمكننا أن نتبنّى هذا التصوّر وهو أنّ كلمة: «الفتنة» أساساً كانت بمعنى الإحماء والصهر، ثمّ نُقلت إلى هذا المعنى نظراً لما يترتّب على عمليّة الإحماء من حالة الاضطراب، ثمّ صارت بالتدريج تُستعمل للدلالة على الاضطراب الروحيّ والاضطرابات والغليانات الاجتماعيّة وأمثال ذلك. وكذا فقد استُعملت لفظة: «الفتنة» في الأجواء المضطربة المشوَّشة التي تثير حالة الشكّ والريب في المعتقدات الدينيّة؛ ذلك أنّ بلبلة كهذه تبعث هي الأُخرى على الاضطراب. فأجواء الاضطراب والهرج والمرج تؤدّي إلى حالة من الضبابيّة والإبهام ممّا يجرّ البعضَ إلى الشكّ في دينهم. وهذا المعنى هو ذاته المراد في الآية الشريفة: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[1]. ف «الفتنة» هنا هي كلّ ما يحرّض الناس على الشكّ في دينهم ويؤدّي إلى الاضطراب في العقيدة وعدم القدرة على تشخيص الدين الحقّ والمعتقدات الصائبة. فهذا العمل هو أسوأ من قتل البشر؛ ذلك أنّ قتل المؤمن سوف يذهب به إلى الجنّة ولن يخسر بسببه غير حياته المادّية، أمّا عندما يصبح دين المؤمن تحت رحمة الفتنة وتُهيّأ له كلّ أسباب الشكّ والريب في الدين فسوف تتزعزع دعائم دينه ويتساءل متردّداً عن مدى صحّته فيفقد بذلك إيمانه، فإن أصبح المرء عديم الإيمان لم يعد من أهل النجاة. ولا ريب أنّ الخسارة التي يتكبّدها نتيجة لذلك هي أفدح من ضرر القتل؛ فهو إذا لم يخسر بالقتل إلّا الحياةَ الدنيا فإنّه سيُسلَب في خضمّ الفتنة دينه وإنّ هذا لخسران أبديّ وهو أشدّ من القتل حتماً.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩١.

نستخلص من ذلك أنّ لـ «الفتنة» مصاديقَ متعدّدة تبعاً لما يلاحَظ في كلّ منها من ملاحظات، لكنّه لا يمكننا القول: إنّها مشترك معنويّ وإنّ جميع تلك المعاني هي مصاديق لمفهوم واحد.

واستناداً إلى الأساس الموضّح آنفاً نستطيع الادّعاء بأنّ مصطلح «الفتنة» قد أخذ المنحى التالي: إنّه قد أعطى في بداية وضعِه معنى الصَّهْر والحرق وأمثالها، ثمّ اتّخذ فيها بعد معنى آخر هو الاضطراب والهيجان والثوران. وبملاحظة اللوازم التي يتركها هذا الاضطراب على صعيد المجتمع فقد أُطلق هذا المصطلح أيضاً على الفتنة الاجتماعيّة. ومن هنا فإنّ الفتنة تُستعمل حيناً ضمن نطاق الفرد، وحيناً آخر في إطار المجتمع. وإنّ للفتن الاجتماعيّة أيضاً أنواعاً وأقساماً شتّى نترك الخوض فيها لمحلّها الخاصّ.

ضرورة تفسير اللفظ بالالتفات إلى سياق الكلام

بناء على ما تقدّم لابدّ لنا إذا أردنا تفسير الفتنة أن ننظر في السياق الذي وردت فيه كي نسوق لها ـ من باب التعريف ـ معنى متناسباً مع سياقها. فلقد جاءت الفتنة في القرآن الكريم للدلالة على مطلق الامتحان وسُمّي كلّ ما يُعدّ من وسائل هذا الامتحان بالفتنة. أمّا ما يشيع اليوم في البحوث والنصوص الاجتماعيّة في باب الفتنة فهو يشير إلى الفتن الاجتماعيّة. فقد جاء في كتاب الله المجيد ما نصّه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[1]. إذن فالولد يكون سبباً لامتحان ابن آدم. فعندما يدور الأمر بين تلبية رغبات الولد والزوج والصديق وبين تنفيذ ما يريده الله تعالى فإنّه ينشأ التزاحم. إذن فكلّ هذه الأُمور هي من وسائل

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢٨.

الامتحان والاختبار؛ حيث: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[١]؛ فليس بالضرورة أن تكون الشرور والشدائد هي محلّ الامتحان دائماً، فقد تكون الخيرات والنعم من وسائل الامتحان أيضاً؛ فالله يمتحن شخصاً بالثروة ويمتحن آخر بالفقر. فكلّ حوادث العالم التي ترتبط ـ بشكل أو بآخر ـ بأفعالنا الاختياريّة وتهيّئ لنا أسباب الاختيار هي ضرب من ضروب الامتحان والفتنة.

هذا وقد استعمل القرآن الكريم ألفاظاً أُخرى تدلّ على معنى الامتحان والاختبار نذكر منها «البلاء» و«الابتلاء» و«الامتحان» و«الاختبار» و«التمحيص» وحتّى «الميز» في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[٢]. لكنّ أكثر تلك الألفاظ شيوعاً في هذا الوادي هما لفظان: الأوّل هو مادّة «البلاء» و«الابتلاء» وهما من مادّة واحدة؛ أوّلهما ثلاثيّ مجرّد وثانيهما ثلاثيّ مزيد من باب الافتعال، والثاني هو مادّة «الفتنة».

نطاق الفتنة في حياة الإنسان

هناك سؤال آخر يُطرح في هذا البحث وهو أنّه: هل يستطيع الإنسان أن يعيش في هذه الدنيا من دون فتنة؟ والمقصود هنا هو الفتنة بمعناها العامّ الذي يشمل كلّ موارد الامتحان، سواء الفرديّ منه أو الجماعيّ والاجتماعيّ، أي عين معناها اللغويّ المساوي تقريباً للامتحان. فهل من المتيسّر أن يُمضي الإنسان حياته في هذا العالم بلا فتنة، أي من دون امتحان؟

نقول هنا إنّ عدم التعرّض للامتحان ليس هو بالمحال عقلاً، لكنّ مقتضى ـ

---

(١) **سورة الأنبياء**، الآية ٣٥.

(٢) **سورة الأنفال**، الآية ٣٧.

الحكمة الإلهيّة هو خلاف ذلك. فلقد خلق الله عزّ وجلّ هذا العالم بما يتمتّع به من وضع خاصّ؛ فحياتنا في هذا العالم تمتاز ببروز بعض الحاجات والطلبات المتضادّة بين الفينة والأُخرى ممّا يجعلنا أمام مفترق طريقين أو عدّة طرق فنتردّد في اختيار الطريق الذي ينبغي سلوكه. إذن من غير الممكن، مع هذا الوضع، أن نجتاز هذه الحياة الدنيا من دون امتحان. فالله جلّ شأنه يقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[١]، وهو امتحان للتمييز بين الحسَن والقبيح من الأعمال؛ أي إنّ الله قد مهّد أرضيّة لتقييم العمل اسمها «الامتحان». واستناداً إلى هذه الآية الشريفة والعشرات غيرها فإنّ لـ «البلاء» و«الابتلاء» مواردَ جمّةً؛ منها قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢]؛ فإنّ أحد مواطن الامتحان والابتلاء هو أن نوفّر بيئة معيّنة لنعلم من خلالها مَن مِن الناس هو أهل الجهاد والصبر. وقوله عزّ من قائل في موطن آخر: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾[٣]؛ فالله يهيّئ لكم جوّاً معيّناً من أجل أن يمتحنكم من خلاله كي يبرز إلى العيان ما تضمرون في قلوبكم ويظهر ما يخفَى من جوهر وجودكم. فمن أجل ذلك خلق الله العالم؛ وإلّا لكان قد أوجدني من أوّل خلقي في جهنّم ـ والعياذ بالله ـ لعلمه بمقدار ما سأقترفه من الذنوب، ولم تكن ثمّة حاجة لخلق هذا العالم، وما كان أحد قادراً على الاعتراض عليه. إذن فسرّ إيجاد هذا العالم هو أن يطوي الإنسان مسير حياته باختياره. وهذه الخصوصيّة تحديداً هي التي أهّلت الإنسان لنيل مقام خلافة الله عزّ وجلّ؛ وإلّا فإنّ ملائكة الله المقرّبين كانوا

(١) **سورة الملك**، الآية ٢.

(٢) **سورة محمّد** صلى الله عليه وآله، الآية ٣١.

(٣) **سورة آل عمران**، الآية ١٥٤.

مشغولين بتسبيح الله وتقديسه: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1] لكنّ الله لم ير من الصلاح جعلهم خلفاءه، بل قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقال له الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]؛ فالموجود الذي تريد أن تجعله خليفة لك في الأرض سيفسد فيها ويسفك الدماء. فأجابهم الله عز وجل: إنّكم لا تفهمون السرّ من وراء هذا الأمر. بل لم يكن باستطاعتهم فهمه؛ ذلك أنّ سرّ خلقة الإنسان هو كونه موجوداً يستطيع باختياره أن يبلغ مقام القرب من الله تعالى ويسمو حتّى على الملائكة. لكنّه من لوازم هذا الاختيار هو أن يتمتّع الإنسان بقوّتي جذب؛ قوّة تحرّضه على ارتكاب المعاصي والذنوب، وقوّة تجذبه نحو الطاعة والعبادة فيختار وجهة العبادة ويُثبِت سموّه وتفوّقه ويبيّن للجميع أنّ جوهر وجوده هو أن يطأ بقدمه على رغباته النفسانيّة في سبيل إرضاء ربّه. فهذه الخصلة لم تكن في الملائكة؛ لأنّهم يفتقدون الميل إلى المعصية أساساً؛ بمعنى أنّهم لا يدركون ماهيّة الميل إلى المعصية، وكيف يتسنّى لمخلوق أن يحتوي في داخله على ميل إلى الخير وآخر إلى الشرّ في آن واحد. فالملائكة لا يرون في باطنهم ما يشبه ذلك كي يتسنّى لهم فهم حقيقته. فقد ظنّوا أنّ الله إذا خلق مخلوقاً فإنّه تعالى سيعطيه العقل فيفهم من خلاله كم هي عبادة الله حسنة وبأيّ منزلة سيظفر إن هو عبده وعندئذ سيختار هذا الطريق لا محالة، كما فعلوا هم؛ حيث إنّهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[3]؛ أي: لا يكلّون، بل يلتذّون

(١) **سورة البقرة**، الآية ٣٠.

(٢) **سورة البقرة**، الآية ٣٠.

(٣) **سورة الأنبياء**، الآية ٢٠.

بذلك. فلم يكن بمقدور الملائكة أن يتصوّروا أنّه من الممكن أن يوجد مخلوق يشعر في داخله بالنزوع إلى ترك العبادة، بل وإلى فعل ما هو ضدّ لها ثمّ يستطيع باختياره أن يطأ هذا الميل بقدمه ويصل إلى مكانة أرفع من تلك التي للملائكة أنفسهم ويعبد الله بأفضل من عبادتهم. ولهذا فقد قال لهم العزيز المتعال: ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فالله من جانبه لم يبخل عليهم بإفهامهم هذا الأمر لكنّهم هم الذين لم يستطيعوا إدراكه. فإن كنّا نحن نفهم معنى الاختيار بين الخير والشرّ، وبين الثواب والعقاب فلأنّنا نمارس ذلك في حياتنا باستمرار، أمّا إذا لم يكن لدينا أيّ ميل إلى المعصية أساساً فإنّنا لن نفهم المراد من الرغبة إلى المعصية على الإطلاق. وخلاصة الأمر فإنّ ما أهّل الإنسان للظفر بمقام خلافة الله عزّ وجلّ هو هذه الصفة، وهي أنّ هناك قوّتي جذب في وجوده وأنّه معرّض للامتحان باستمرار؛ أي معرّض دائماً للاختيار بين ما تميل إليه نفسه ويرغب فيه الناس، وبين ما يريده الله منه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

وبناءً على ما مرّ فمن المستحيل أن تخلو حياة الإنسان من الفتنة والامتحان؛ هذا على الرغم من أنّ مفهوم الفتنة يختلف اختلافاً طفيفاً عن الامتحان. فأمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا تسألوا الله أن يجنّبكم الفتن بل سلوه أن يوفّقكم إلى الخروج من الفتن والامتحانات مرفوعي الرأس غير مرفوضين: «**لا يقولنّ أحدكم: اللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة، لأنّه ليس أحد إلاّ وهو مشتمِل على فتنة، ولكن مَن استعاذ فليستعذ من مُضِلاّت الفتن**»[2]؛ ادعوا الله عزّ وجلّ أن لا

---

(١) **سورة الملك**، الآية ٢.

(٢) **نهج البلاغة**، الحكمة ٩٣.

يبتليكم باختبارات صعبة بحيث لا تطيقونها وتكون سبباً لفشلكم وسقوطكم. أمّا أن تدعوا الله وتقولوا: إلهي لا تبتلنا بالفتن، فهذا أمر محال. فلماذا خلقكم الله إذن؟ لأنّ الغرض من خلق الإنسان في هذا العالم أساساً هو أن يُبتلى ويُمتحَن.

المراد من الامتحان الإلهيّ

قلنا إنّ طبيعة الحياة في هذا العالم تقتضي أن تحدث باستمرار أُمور تضع المرء أمام مفترق طريقين أو عدّة طرق ممّا يحتّم عليه اختيار طريق معيّن. ويطلق القرآن الكريم على هذه الحالة لفظ «الامتحان»[1].

نحن عندما نستعمل بعض المفاهيم والألفاظ أحياناً فإنّنا نستعين بمعانيها الحسّية لكونها أقرب إلى الفهم. فصحيح أنّنا بني البشر إذا امتحنّا فلأنّنا لا نحيط بشيء علماً ونريد الاطّلاع عليه عن طريق الامتحان، لكنّ الله عزّ وجلّ يستخدم نفس هذه التعبيرات في حين أنّنا نعلم أنّه ما من شيء يُعدّ مجهولاً بالنسبة له سبحانه؛ فهو مطّلع على كلّ خفيّة ويعلم بعواقب الأمور، فليس للجهل سبيل إليه على الإطلاق. لكنّه عندما يروم التحدّث بلساننا ويقول لنا: إنّني أضعكم أمام مفترق طرق من أجل أن تختاروا أحدها وتلتفتوا إلى مدى حسّاسية الموقف الذي أنتم فيه

(١) يستعمل القرآن الكريم لفظة «الامتحان» لغير الله أيضاً فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ (**سورة الممتحنة**، الآية ١٠) وهي الآية التي تتحدّث عن صدور الأمر بامتحان النساء اللواتي كنّ يأتين المدينة من مكّة مهاجرات ويدّعين الإيمان. أو في مسألة الفتى اليتيم الذي بلغ سنّ الحلم وله أموال في حوزة القيّم عليه، فقد أمر القرآن الكريم بامتحان أمثال هؤلاء قبل تسليمهم أموالهم للتأكّد إن كانوا قد بلغوا سنّ الرشد بحيث يصبحون قادرين على التصرّف في أموالهم أم لا: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ (**سورة النساء**، الآية ٦).

فإنّه تعالى يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١). وهناك مفاهيم أُخرى يستعملها القرآن الكريم مثل «الغضب» و«الانتقام» أو «يد الله» و«جنب الله»، والحال أنّنا نعلم أنّه ليس لله يد بالمعنى الذي نفهمه نحن، فهو موجود بسيط ليس له أجزاء أصلاً، فضلاً عن الأجزاء المحسوسة. لكنّه عزّ وجلّ عندما يريد التحدّث إلينا فإنّه يتكلّم بلساننا؛ لأنّنا لا نستطيع إدراك الحقيقة التي يريد بيانها لنا إلّا من خلال تلك الألفاظ. أمّا تسمية هذه الاستعمالات فهي تتعلّق بالمصطلحات الموضوعة في علم المعاني والبيان. وقد يُختلَف في هل إنّ هذه التعبيرات هي من باب الاستعارة أم التشبيه أم المجاز المنقول أم المجاز المرسل؟ وهذه أُمور فنّية نترك البحث فيها إلى الدرس والمدرسة. فما نفهمه نحن هو عندما يصبح المرء أمام مفترق طرق فإنّه يتعيّن عليه أن يُثبت وجوده ويبدي تصرّفاً ويختار طريقاً معيّناً حتّى وإن لم يكن يعلم آخره، وهذا هو الامتحان؛ بالضبط كالممتحَن الذي يُعطى ورقة الامتحان وهو لا يعلم إن كان سيجتاز هذا الامتحان بنجاح أم سيخفق فيه. فورقة الامتحان هي دائماً في أيدينا وعلينا ملؤها بتصرّفاتنا وسلوكنا؛ نملؤها بما نشاهده بأعيننا، وما نصغي إليه بآذاننا، وما نسلكه من طريق بأرجلنا وغير ذلك. فإن أردنا أن نبيّن هذه الحقيقة ذات الأثر في مصيرنا بالألفاظ فلن نجد أفضل من لفظ: «الامتحان». ومن حيث إنّ الامتحان يسبّب لنا القلق والاضطراب فمن الممكن أن نطلق عليه اسم: «البلاء» أو «الفتنة»؛ ألم نقل إنّ الفتنة تعني تسخين الشيء في النار إلى درجة الاضطراب؟ فكأنّنا في حالة الفتنة نكون في وضع

(١) سورة محمّد صلى الله عليه وآله، الآية ٣١.

مضطرب لا ندري ماذا نصنع، خصوصاً إذا كان الموضوع على درجة من الإبهام والخفاء بحيث يصعب على المرء تحديد واجبه وتكليفه. فوضع من هذا القبيل هو الفتنة بعينها؛ وهو أن يحار الإنسان في أمره إلى أبعد حدّ فلا يدري ما الذي عليه فعله، ويملأ الضباب والغبار الأجواء فلا يقدر على تبيُّن سبيله. لكن كلّما اشتدّت صعوبة الامتحان كانت النتيجة أفضل؛ فقد يجتاز البعض الاختبارات السهلة، لكنّه لا يحصل على درجة جيّدة في امتحان المرحلة الثانية أو الثالثة فيخفق. فمجموع المراحل الدراسيّة بما فيها التكميليّة قد يصل إلى العشرين سنة. فلو أنّنا خضعنا في كلّ عام لامتحانين اثنين فسيكون مجموع ما يتعيّن علينا خوضه أربعين امتحاناً، أمّا في الامتحانات الإلهيّة فنحن معرّضون في كلّ يوم لأكثر من أربعين امتحاناً بحيث لا تمرّ لحظة واحدة إلّا ونحن نخوض معمعة امتحانٍ مّا. فإذا وقف المرء على مدى تأثير سلوكيّاته في عاقبة أمره وأنّها إمّا أن تجعله من أصحاب الجنّة أو تلقي به في نار جهنّم وهو لا يعلم ما الذي ستكون عليه نتيجة هذا الامتحان، فالأمر يستحقّ منه أن يضطرب أشدّ الاضطراب. أمّا إذا أعرضنا بأنفسنا عن الفهم ولم نكترث لمجريات الأُمور فهذا بحث آخر. إذن يتعيّن على الإنسان العاقل أن يكون في اضطراب دائم. وليس المراد من خوف الله وتقواه إلّا هذا المعنى؛ لأنّ المرء لا يعلم ما الذي سيؤول إليه أمره، وهل سيكون النجاح حليفه ويحصل على درجة جيّدة في الامتحان، أم سيخفق فيه ويُرفَض؟ وكلّما قوي إيمان المرء في هذا الطريق اشتدّ خوفه؛ لأنّه سيكون أشدّ حرصاً على نيل درجة القبول. وإذا اشتدّت صعوبة الامتحان تعاظم شكّ الإنسان وازداد قلقه من أنّه هل سيجتاز هذا الامتحان الشاقّ بنجاح أم لا؟ ومن الطبيعيّ أن يختلف الاختبار باختلاف الناس؛ فتلميذ المرحلة الأُولى

الابتدائيّة يخضع لامتحان بسيط، أمّا امتحان المرحلة الثانية فيكون أشدّ صعوبة وهكذا حتّى يصل الطالب إلى امتحان القبول في الجامعة. وإن رغب الطالب في الحصول على درجة جيّدة في رسالته للدكتوراه فلابدّ أن يبذل جهوداً مضنية، وقد يعكف سنوات على كتابة رسالته بغية الحصول على درجة مُرضية.

أهداف الامتحان الإلهيّ

الامتحان ليس بالمسألة البسيطة، فهو رمز الحياة، أو ـ بتعبير آخر ـ هو الهدف القريب من وراء خلق الإنسان؛ فالله عزّ وجلّ لم يخلق ابن آدم إلّا ليمتحنه. لكنّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا المجال هو: لأيّ شيء يكون هذا الامتحان؟ ونستطيع القول جواباً على هذا السؤال: من أجل كسب المزيد من الأهليّة. وهنا ينشأ السؤال التالي: المزيد من الأهليّة لأيّ شيء؟ والجواب: من أجل أن يظفر بثواب أكبر وأجر أسمى بحيث يصعب على عقولنا إدراك نهايته، وكلّ ما يسعنا قوله على نحو الإجمال هو: أن يقترب من الله جلّ وعلا. بمعنى: أنّ القرب من الله هو الهدف النهائيّ من الخلقة. إذن فالهدف القريب من الخلقة هو الامتحان، والهدف الثاني منها هو نيل الثواب والجنّة، أمّا الهدف البعيد والنهائيّ فهو الوصول إلى القرب الإلهيّ. وهذه الأهداف يترتّب أحدها على الآخر وتُعدّ جميعها من أهداف الخلقة. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾[1]. لقد خلق الله الإنسان للرحمة، وهي رحمة لا يملك حتّى الملائكة ظرفيّة نيلها. فنحن لا نعرف الملائكة حقّ المعرفة، لكنّنا نعلم على أيّة حال أنّهم

(١) **سورة هود**، الآيتان ١١٨ و ١١٩.

كائنات لا يملكون أيّ دافع إلى المعصية أو الشهوة أو الغضب، ولهذا فإنّهم غير معرّضين لأمثال هذه الابتلاءات، وإنّ النتائج المترتّبة على هذه الامتحانات لا تشملهم أيضاً. فلا يستوي الذي اجتاز الامتحان بنجاح مع الذي لم يخض الامتحان أصلاً. فيتعيّن على الأخير خوض الامتحان ليعلم هو ويعلم الآخرون نتيجة امتحانه. كما وينبغي أن نعلم أنّ الله عالم بكلّ شيء بلا امتحان وهو غنيّ عن امتحان الآخرين؛ لكنّه جلّ شأنه يختبر المرء من أجل أن تتفجّر طاقاته وتظهر قابليّاته في واحد من الاتّجاهين؛ إمّا الصعود والرقيّ، وإمّا النزول والهبوط فتصل إلى مستوى الفعليّة.

الامتحان الإلهيّ وعلاقته بعلم الله

يعمد الناس عادة إلى اختبار الشيء أو الشخص الذي لا يملكون عنه معلومات وافية. فهم ـ على سبيل المثال ـ يمتحنون الطالب كي يعلموا ما إذا كان قد استوعب الدرس أم لم يفهم بعض مباحثه. بالطبع هناك أهداف أُخرى تترتّب على الامتحان؛ فالطالب الذي طالع درسه جيّداً وأحاط به إحاطة كاملة سوف ينجح في الامتحان ويتمكّن من العبور إلى المرحلة التالية، بل وقد يحصل على جائزة أيضاً.

إذن فنحن ـ أساساً ـ نلجأ إلى الامتحان عندما نكون غير مطّلعين على أمر ونريد أن نعلمه. لكنّنا جميعاً نعتقد بأنّ الله جلّ وعلا هو عالم بكلّ شيء، بل حتّى فيما يتعلّق بالموجودات التي لم توجد لحدّ الآن فهو يعلم متى ستُخلق وما الذي سيكون مصيرها؛ فهو يعلم خواطر أذهاننا، وما ستؤول إليه عواقبنا، وهو يعلم إلى متى ستدوم أعمارنا ومتى وكيف وأين سنموت. وهي أُمور ليس لأيّ امرئ أن

يعلمها من نفسه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾(١). فلماذا يمتحن الله الآخرين إذن وهو عليم بكلّ ذلك ولا يخفى عليه شيء؟ والسؤال نفسه قابل للطرح بالنسبة لمعظم المفاهيم المذكورة في القرآن بخصوص الله عزّ وجلّ، لاسيّما تلك المتعلّقة بصفات الله وأفعاله. وعلى سبيل المثال فـالقرآن الكريم يقول: إنّ الله يغضب على بعض الناس: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾(٢)، أو إنّه قد انتقم من آخرين: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾(٣)، أو يقول: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾(٤). فهنا أيضاً يُطرح هذا السؤال؛ لأنّ مفهوم الانتقام يصدق إذا ألحق شخص ضرراً بمال الإنسان أو بنفسه أو بعرضه فيهبّ الأخير لتدارك ما لحق به من ضرر ويشفي ـ عادةً ـ بذلك غليله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ...﴾(٥). فحتّى المؤمنون فإنّ أحد وجوه تنفيذهم لحكم القصاص والمعاقبة بالمثل يتمثّل في شفاء الصدور وإذهاب غيظ القلوب. فالانتقام بالنسبة للبشر، سواء منهم المؤمن أو الكافر، إنّما يكون في مثل هذه المواطن؛ وهو أنّ ضرراً أُلحق بشخص فغضب وعزم على الانتقام من الفاعل لجبران الضرر الواقع عليه وشفاء غليله. لكنّ هذا الوجه لا يصدق على الله عزّ وجلّ؛ ذلك أنّه جلّ شأنه لا يتغيّر من حال إلى حال، ولا ينزعج، ولا يُلحَق به ضرر. فلو اجتمع الناس أجمع على أن يضرّوا الله بمقدار جناح بعوضة فلن يقدروا على ذلك. فما معنى الانتقام يا ترى لمن لا يناله أيّ ضرر على

(١) **سورة لقمان**، الآية ٣٤.

(٢) **سورة الفتح**، الآية ٦.

(٣) **سورة الأعراف**، الآية ١٣٦.

(٤) **سورة آل عمران**، الآية ٤.

(٥) **سورة التوبة**، الآيتان ١٤ و ١٥.

الإطلاق؟ وما المقصود من قوله تعالى: إنّنا انتقمنا من الكفّار أو من آل فرعون؟

النموذج الآخر في هذا السياق هو غضب الله تعالى. والغضب إنّما يحصل عندما يصاب شخص بضرر أو يتعرّض لإهانة فينزعج ويحمرّ لونه وتنتفخ أوداجه فيقال: غضب فلان. لكنّ الله سبحانه وتعالى منزّه عن طروء أيّ حالة عليه وهو لا يتأثّر بأيّ شيء أبداً. وإذا وسّعنا دائرة الإشكال فإنّ رضا الله وسروره أيضاً سيكون محطّ استفهام. فما هو المقصود من فرح الله وسروره أساساً؟ فالمرء إذا أُعطي شيئاً لم يكن يملكه أو أُسديت له خدمة تنفعه فإنّه سيُسَرّ وتنتابه حالة لم يكن مسبوقاً بها. أمّا الله جلّ شأنه فلا يتغيّر حاله على الإطلاق: «**لم تسبق له حالٌ حالاً**»[1]. فلا معنى لـ «الحال» بالنسبة للباري المتعال؛ ذلك أنّ أمثال هذه الأُمور هي من الأعراض والكيفيّات النفسانيّة التي تطرأ على الموجودات الماديّة. لكن من المشهور جدّاً في ثقافتنا أن نقول: إنّنا نسُرّ الله بعملنا. فما هو المراد من سرور الله تعالى هنا؟

لقد جاء في دعاء عرفة[2] ما نصّه: «**إلهي تقدَّسَ رضاك أن تكون له علّة منك فكيف يكون له علّة منّي**»[3]؛ بمعنى أنّ الله إذا رضي فلا يعني ذلك أنّه قد فعل شيئاً ليرضى. إذن فلا يمكن أن يكون الله هو العلّة في رضاه، فما بالك بأن يكون غيره علّة ذلك! فأنّى لموجود أن يكون له أثر في الله عزّ وجلّ.

فالتمعّن في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله يلاحظ أمامه تساؤلات لا

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٦٥؛ **وبحار الأنوار**، ج٤، ص٣٠٨.

(٢) هو دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة على صعيد عرفات.

(٣) **بحار الأنوار**، ج٩٥، ص٢٢٦؛ **وإقبال الأعمال**، ص٣٤٩.

تكون الإجابة عليها سهلة في العادة. بطبيعة الحال إنّ البحث في أوصاف الله وسرّ إطلاقها عليه هو بحث واسع ومتشعّب يضيق به مجال بحثنا هذا، لكن لعلّ طرح مبحث مفتاحيّ في هذا الباب من شأنه أن يرفع هذا الإشكال إلى حدّ ما. فنحن غير مدركين لذات الله جيّداً، بل ولا نستطيع إدراكها، وليس لأيّ شخص أو موجود آخر أن يدرك حقيقة صفات الله وأفعاله. فما جاء في القرآن الكريم في بيان أوصاف الله عزّ وجلّ (صفاته وأفعاله) إنّما هو بيان بلساننا. فإذا أردنا توخّي الدقّة فيها فلابدّ أن نزيح عنها كلّ اللوازم اللاحقة من جرّاء نطقنا والمقرونة بالنقائص والحيثيّات الإمكانيّة. فغضب الإنسان ـ مثلاً ـ يتحقّق إذا خرج عن حالته العاديّة، وتغيّر لون وجهه، واغتاظ، وبدأ بالصراخ، وإذا استند غضبه على قواعد سليمة وكان مسيطراً عليه وعقلائيّاً فإنّ صاحبه سيُلحِق بمن غضب عليه ما يستحقّه. ولا يتحقّق المراد من قولنا: «غضب الله» إلّا إذا حذفنا كلّ وجوه النقص تلك؛ فليس لله دم يغلي، أو بشرة تحمرّ، لكنّ حقيقة فعل الله تكمن في نتيجة هذا الغضب المتمثّلة في تعذيب المغضوب عليه وطرده. فالسرّ في استعمال القرآن لهذه العبارات هو التحدّث بلساننا؛ بمعنى: إذا كان من المقرّر أن تنتابنا مثل هذه الحالة فنقوم في إثرها بفعل مّا، فسيُطلق على فعلنا اسم الغضب، لكنّ حقيقة الغضب بالمعنى الذي نمارسه نحن محال على الله تعالى. بل حتّى رضا الله فإنّه محال إذا كان بهذا المعنى. فجملة: «**إلهي تقدَّسَ رضاك أن تكون له علّة منك**» منسوبة للإمام الحسين عليه السلام، وليست هي من كلام الحكماء والعرفاء. وبناءً على ذلك فلو لم يتحدّث الله عن هذه الأُمور بلساننا ما كنّا لندرك أيّ واحدة من أوصافه تعالى. فما السبيل في مثل هذه الحالات لفهم أوصاف الله؟ إنّها ذات السبيل التي تعوّدنا نحن اتّباعها في حياتنا اليوميّة؛ فعندما نضطرّ للتعامل مع طفل فإنّه يتعيّن علينا أن

نتكلّم بلسانه ونتحدّث بما يفهمه لاسيّما إذا كان المطروح هو مسألة علميّة عميقة. فإذا سألَنا طفل عن الخسوف أو الكسوف مثلاً فإنّه لا يفقه ما نقول إذا شرحنا له القضيّة عبر تبيين المسائل الفلكيّة، بل يتحتّم التحدّث معه بلغة يدركها، وهي لغة قد يُستعمل فيها المجاز أو يُلجأ فيها إلى بعض المسامحة في التعبير أو التشبيه لأنّه لن يفهم أصل القضيّة إذا طُرحت له مفصّلة كما هي، وإلّا فالسكوت أولى. وهذا هو ذات الأساس الذي يعتمده القرآن الكريم فهو يعمد أيضاً إلى التشبيه لإفهامنا الكثير من الأُمور؛ لأنّه إذا طرح لنا الحقيقة كما هي فإنّنا لا نفهمها جيّداً. وهذا يبرّر لنا سبب ضرب القرآن للأمثال الكثيرة فيما يتعلّق بأُمور الدنيا والآخرة؛ فيقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. فالوجه في ضرب الله تعالى لهذا المثل وسوقه لهذا التشبيه للحياة الدنيا هو أنّه أفضل سبيل يمكننا من خلاله إدراك حقيقة الدنيا، وليس ثمّة تعبير يمكن سوقه لفهم حقيقة الدنيا هو أفضل وأكثر قابليّة للإدراك منه.

ومن هنا لابدّ أن نعلم أنّ صفات الله وأفعاله قد طُرحت جميعها بلغة نفهمها. ولولا استخدام هذه اللغة لما كان من سبيل لبيان أوصافه عزّ وجلّ، ولما كان ثمّة حلّ أنجع من السكوت المحض. فعندما نقول: «الله موجود» فإنّ ما يتبادر إلى أذهاننا للوهلة الأُولى عند سماع كلمة: «موجود» هو وجود الأشياء الماديّة. بل حتّى بالنسبة للمفاهيم الأُخرى، مثل: «الخالق» التي مضافاً إلى استخدام القرآن لها فيما يتعلّق بالله سبحانه وتعالى؛ كما في قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2] فقد أطلقها على غير الله أيضاً،

---

(١) **سورة يونس**، الآية ٢٤.

(٢) **سورة (المؤمنون)**، الآية ١٤.

حيث قال في عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[1]. فعندما نستعمل كلمة: «الخلق» بالنسبة لله فهل سيتبادر إلى أذهاننا نفس المعنى المتبادر إلى الذهن في استعمالها بخصوص عيسى عليه السلام يا ترى؟ أي إذا صنع الناس شيئاً من طين وصيّروه بصورة طير فهل يكون ذلك خلقاً؟ وهل نتصوّر أنّ الله قد أخذ طينة أو أمر جبرئيل عليه السلام بأخذها ثمّ أجرى عليها بعض العمليّات فمنحها شكلاً معيّناً؟ كلّا، فخالقيّة الله تختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً؛ فجلّ ما يفعله الله عزّ وجلّ هو إصداره للأمر: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[2] ذلك الشيء. ناهيك عن أنّ تعبير: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ نفسه هو أيضاً محاكاة للساننا؛ وإلّا فإنّ الله ليس بحاجة إلى القول أساساً. فهل من الممكن توجيه الخطاب إلى شيء لم يوجَد لحدّ الآن وأن يجيب هو أيضاً بالقول: أنا موجود؟! ولهذا فقد ذهب كبار المفسّرين وأهل الدقّة والتمعّن في هذه الأُمور إلى الاعتقاد بأنّه لابدّ في باب الألفاظ والمفاهيم التي تُطلق في مجال صفات الله وأفعاله وفي الموارد التي تدعو إلى توهّم معنى النقص ـ لابدّ من تجريدها من حيثيّة النقص وتنزيه الباري تعالى، وهو أن نقول: هو يخلق لكن ليس كخلقنا؛ أي بين التشبيه والتنزيه. وقد ورد عن أئمّتنا الأطهار عليهم السلام الأمر بأنّنا إذا أردنا أن ننسب صفة أو فعلاً إلى الله تعالى، سواء على مستوى الذهن أو في مقام الوصف، فإنّه يتعيّن أن نقول: هذه الصفة ثابتة لله ولكن ليس كما للمخلوقات[3]. أي إنّنا لا ندرك حقيقة هذا الوصف. لكنّ الله تعالى

---

(١) **سورة المائدة**، الآية ١١٠.

(٢) **سورة البقرة**، الآية ١١٧.

(٣) عن هشام بن الحكَم عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال للزنديق حين سأله: ما هو [الله]. قال: «**هو شيءٌ بخلاف الأشياء. ارجعْ بقولي إلى إثبات معنىً وأنّه شيء بحقيقة الشّيئيّة غير أنّه لا جسمٌ ولا صورةٌ ولا يُحسّ ولا يُجسّ ولا يُدرَك بالحواسّ الخمس، لا تدركه الأوهامُ ولا تَنقصُه الدهور ولا تغيّره الأزمان ...**» الخبر (**الكافي**، ج١، ص٨٣ ـ ٨٥).

قد منّ على بعض عباده بعلم ومعرفة لا سبيل لنا للظفر بهما، ولذا فقد استثناهم تعالى بقوله: الوصف الذي يسوقه أمثال هؤلاء صحيح: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(١). والسؤال هنا هو: مَن هم عباد الله المخلَصون هؤلاء؟ فكما أنّنا لا نعرف الله حقّ معرفته فنحن أيضاً لا نعرف جيّداً مَن هم عباده هؤلاء وفي أيّ مقامات هم. لكنّنا نعلم إجمالاً أنّ القرآن الكريم قد جعل الأنبياء عليهم السلام في زمرة هؤلاء كما ونعتقد أيضاً أنّ المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام هم من عباد الله الممتازين والمخلَصين أيضاً. والعزيز المتعال يقول: إنّ الأوصاف التي يقولها هؤلاء صحيحة. لكنّنا عاجزون عن إدراك كيفيّة فهم هؤلاء وما الذي يفهمونه وإلى أيّ منزلة وصلوا، وهيهات أن نصل إلى أدنى مقاماتهم حتّى وإن استخدمنا عقولنا لمئات من السنين.

إذن يتعيّن حذف اللوازم المادّية ولوازم النقص من هذه المفاهيم. فالله موجود في كلّ مكان، لكنّه ليس كالموجود الجسمانيّ الذي يستقرّ في مكان معيّن: «**داخلٌ في الأشياء لا كَشيء داخل في شيء، وخارج من الأشياء لا كشيء خارج من شيء**»(٢)؛ فالله في كلّ مكان وفي كلّ شيء ولكنّه ليس كالماء الذي في الكوز، ولا حتّى كالروح التي في البدن. فليس وجود الله من هذا القبيل، ونحن لا نستوعب أكثر من ذلك. فعندما يقال: كلّ شيء يكون بإرادته، وما من مكان يخلو منه، وليس ثمّة مكان لا يوجد فيه الله، فإنّنا لا نفهم حقيقة ذلك، بل ولا ينبغي أن نتوقّع إمكانيّة نيلنا لهذه الحقيقة من خلال الدقّة الفلسفيّة أو الرياضات العرفانيّة أو ما إلى ذلك. نعم، قد يظفر المرء عبر البحوث العقلانيّة التي طرحها

---

(١) **سورة الصافّات**، الآيتان ١٥٩ و ١٦٠.

(٢) **الكافي**، ج١، ص٨٦.

كبار علمائنا في هذا المضمار بفهم مقدار أرقّ وأدقّ من هذه الحقائق بأقلّ قدر من الإشكالات؛ أمّا كُنْه هذه الأوصاف وحقائقها فهي بعيدة المنال وعصيّة على الفهم بالنسبة لنا. فالإمام الباقر عليه السلام يقول في هذا الصدد: «**كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوقٌ مصنوع مثلكم مردودٌ إليكم**»[1]. فليس هذا هو الله، بل هو مفهوم من صنيعة أذهانكم، ومن المستحيل أن يُعرف الله بذلك. نعم قد يسبغ الله تعالى بالمقدار الممكن من هذه المعرفة على بعض من يشاء من عباده: «**العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء**»[2]. فقد يصل بعضهم إلى مقامات المخلَصين وحينئذ ستزاح عنهم السُّتُر وترفع من أمامهم الحجُب فيشاهدون بعض الأُمور. فهنيئاً لهم ما يشاهدون، فنحن في غيب تامّ عن ذلك.

وتأسيساً على ما تقدّم فمن المتيقّن أنّ المقصود من غضب الله وانتقامه ليس هو المصداق البشريّ الذي نعرفه؛ إذ ليس من سبيل للوازم الماديّة والمخلوقيّة ـ كتغيير الحال والتأثّر ـ إلى ذاته. فلو كان بإمكاننا التأثير في الله وإيجاد الرضا فيه، فسيكون هذا الرضا مخلوقنا ونحن علّته، في حين أنّه جلّ شأنه علّة العلل ولا يكون معلولاً لشيء على الإطلاق. فما من شيء يؤثّر فيه، بل هو المؤثّر في كلّ شيء.

الفرق بين امتحان الله وامتحان البشر

بالالتفات إلى ما سبق ذكره فليس المراد من «الامتحان» المنسوب إلى الله تعالى هو عين الامتحان المنسوب إلينا؛ ذلك أنّ غايتنا من امتحان الأشياء أو الأشخاص هي الاطّلاع على ما نجهل، في حين أنّ الله مطّلع على كلّ شيء. لكنّ

---

(١) **بحار الأنوار**، ج٦٦، ص٢٩٣.

(٢) **مصباح الشريعة**، ص١٦.

الملفت للنظر في الامتحان الإلهيّ هو ما يقوله جلّ وعلا في بعض آيات الذكر الحكيم من أنّ الله يمتحِن ليعلم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[1]؛ أي: لنعلم المجاهدين الذين يَثبتون ويَصبرون عند أداء التكليف. فكما هو في سائر الصفات يتعيّن هنا أيضاً تجريد صفة «العلم» ممّا يعتريها من وجوه النقص. إذن فليس المقصود من هذا الامتحان هو: أنّ الله لم يكن يعلم، بل وفقاً لما يَصطلح عليه أهلُ المعقول: فانّ هذا العلم هو من الصفات الفعليّة وهو عبارة عن مفهوم إضافيّ بين العالِم والمعلوم. وهذا المفهوم الإضافيّ هو معنى حادث لا يوجد إلّا عندما يوجد الطرف الآخر. فإن لم يوجد الأخير فإنّه لا تتحقّق الإضافة، وما لم يوجد الطرف الآخر فإنّه لا يتحقّق هذا العلم بمعنى الإضافة. فالعلم الذاتيّ لله هو عين ذاته عزّ وجلّ، وهو لا يتغيّر إطلاقاً وليس هو بمعلول لأيّ شيء. لكنّ المقصود من قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ ليس هو ذلك العلم الذاتيّ؛ بل هو علم من شكل آخر. فلقد أثبت الله سبحانه لنفسه في محكم كتابه علوماً نذكر من جملتها العلم الذي هو في كتاب مبين وفي اللوح المحفوظ: ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2]. ولابدّ من التفتيش عن تفاصيل هذه المسائل في التفاسير والبحوث الكلاميّة والعقائديّة، فالملاحظة المهمّة التي أحببنا الإشارة إليها هنا هي ضرورة تجريد الأفعال والصفات الإلهيّة في جميع تلك الموارد حيثما توهّمنا النقص؛ أي إنّنا نستخدم هذا الوصف لله بعد أن نزيل عنه ما يعتريه من وجوه النقص.

---

(١) سورة محمّد ﷺ، الآية ٣١.

(٢) سورة طه، الآية ٥٢.

حقيقة الامتحان الإلهيّ

السؤال المطروح هنا هو: ما هي حقيقة الامتحان الإلهيّ؟

لقد ذكرنا أنّ غرض الله عزّ وجلّ من خلقة الإنسان هو أن يطوي الأخير مسير سعادته باختياره. ومع أنّ لـ «الاختيار» معانيَ متعدّدةً، غير أنّ المعنى المراد منه هنا هو «الانتقاء والاصطفاء» وهو ما لا يتحقّق إلّا إذا وُجد ـ على الأقلّ ـ طريقان ولابدّ من انتقاء أحدهما؛ إذ لا يكون للاختيار معنى في حالة وجود الطريق المنفرد ذي الاتّجاه الواحد. فمسير الموجودات الأُخرى بما فيها الملائكة هو ذو اتّجاه واحد؛ فهم أساساً لا يحبّون غير عبادة ربّهم ولا يميلون إلى شيء آخر، ولهذا فإنّ حياتهم ذات وجهة واحدة. ففي **نهج البلاغة** عندما يريد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بيان سمات الملائكة فهو يشير في البداية إلى عظمة السماوات ثمّ يقول: «**وليس في أطباق السماء موضعُ إهابٍ إلاّ وعليه ملَكٌ ساجدٌ أو ساعٍ حافِدٌ**»[1]. فالكون مليء بالمخلوقات وإنّ الله قد جعل في كلّ موضع منه ـ حتّى في الأرض ـ ما يلزم من المخلوقات ولم يُبق غير موضع واحد خصّصه للمخلوق المختار، وهذا الأمر يُظهِر غاية قدرة الله تعالى وإرادته، لا أنّ في قدرته نقصاً والعياذ بالله. بمعنى: أنّ الله يخلق شيئاً، ومع أنّ كلّ وجوده منه تعالى فهو غير مُجبَر بل له الاختيار التامّ في اصطفاء سبيله وانتقاء وجهة مسيره. ولعلّ هناك موجودات أُخرى من هذا القبيل لا نعلمها نحن، بيد أنّ القرآن الكريم لم يخبرنا عن شيء منها إلّا بالإنس والجنّ. فالجنّ ـ بدليل قوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[2] ـ يشتركون مع الإنس في مسألة التكليف. لكنّنا لا نعلم ما إذا كان في الكواكب والعوالم الأُخرى أمثال هذه المخلوقات أو لا، وجُلّ ما

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٩١.

(٢) **سورة الأنعام**، الآية ١٣٠.

نعلمه هو أنّ الجنّ والإنس من بين جميع المخلوقات الأُخرى مكلّفون وهم يختارون طريقهم بأنفسهم، لكنّ الإنسان ـ بالأخذ ببعض القرائن ـ هو أشرف من الجنّ؛ لأنّه خليفة الله وما من أحد من الجنّ قد اكتسب هذا المنصب. إذن لابدّ لموجود كهذا أن يواجه ـ بين الفينة والأُخرى ـ مفترق طرق كي يختار أحدها. وكلّما تعدّدت أسباب الاختيار أمامه تمهّدت له أرضيّة أوسع لتكامله؛ لأنّه لن يظفر بالكمال ما لم يختر بنفسه. فكماله هو فيما يختاره بشرط أن يحسن الاختيار. أمّا ما يكسبه بالجبر أو بالصدفة فلا يجلب له كمالاً. وبناءً عليه فلابدّ من توفّر أرضيّات مختلفة ليكون للاختيار معناه الحقيقيّ، وإنّ كلّ تدبيرات هذا العالم تصبّ في هذا الوادي. فقصّة الخلقة هي من الغرابة والعَجَب بحيث يدهش المتمعّن فيها من شدّة الحيرة والذهول! فكم من أسباب الامتحان يهيّئها الله في كلّ لحظة لعدد هائل من البشر حتّى أنّ جميعهم يُمتحَنون بالجميع. فلو أطال المرء التفكير بهذا الأمر وتأمّل فيه مليّاً لطار لبّه. فأيّ لوحة عجيبة قد رسمها ويرسمها الباري المتعال منذ بدء الخليقة حتّى آخرها بحيث لابدّ لجميع المخلوقات أن تُمتحَن بواسطة بعضها البعض، وهو ما لم يُشر القرآن الكريم إلّا إلى مجمله وكلّياته.

كيفيّة الامتحان الإلهيّ

يعبّر القرآن الكريم في بعض آياته عن كيفيّة الامتحان الإلهيّ بقوله: لقد جعلنا لكلّ ما على الأرض من النبات والحيوان والحشرات والحيتان وسائر الموجودات جاذبيّة خاصّة لنختبركم بها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١). وبناءً على هذا فإنّ كلّ ما يجذب الإنسان ويجلب

(١) **سورة الكهف**، الآية ٧.

انتباهه من المأكولات والمشروبات والملبوسات، وكلّ ما يستمتع المرء بالتفرّج عليه، حتّى وإن لم يكن له من الجاذبيّة إلّا القليل، يصنَّف ضمن وسائل الاختبار. والأغرب من ذلك أنّ الناس أنفسهم قد جُعلوا أسباب امتحان لبعضهم البعض؛ وذلك في قوله: ﴿لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[1]، و﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2]. وأمثال هذه التعبيرات عديدة في القرآن وقد ورد هذا المضمون: «إنّنا جعلناكم سبباً لامتحان بعضكم البعض» في بضع آيات. فبعض الناس يمتازون بنوع من الجاذبيّة لغيرهم من البشر فيشكّلون وسيلة لامتحانهم. بل حتّى أنّ كونهم سبباً لنفور الآخرين هو شكل آخر من أشكال الامتحان؛ ليُرى ردّ فعل المرء تجاه من يشعر بالنفور منه. فقد هيّأ الله عزّ وجلّ لذلك أسباباً وأرضيّات مختلفة منها الطبيعيّة ومنها الجغرافيّة ومنها غير ذلك، ولعلّ العوامل الوراثيّة ذات أثر في هذا المضمار أيضاً. فهو جلّ وعلا يعلم ما هو العامل اللازم لوقوع الحادثة الفلانيّة في الكون.

يقول القرآن الكريم وفقاً للآية الآنفة الذكر: الأشخاص المرفّهون الذين يتنعّمون بحياة أفضل يكونون سبباً لابتلاء غيرهم. والفقراء أيضاً هم وسيلة لامتحان الأغنياء ليُرى هل سيؤدّي المتمكّنون ماليّاً ما عليهم من واجبات تجاه الفقراء؟ أم سيتفاخرون ويتكبّرون عليهم؟ أمّا كون الأغنياء سبباً لامتحان الفقراء فبعض الفقراء يركعون أمام الأغنياء طمعاً في مالهم، وبعضهم الآخر يحسدونهم، وآخرون يسعون إلى الاستحواذ على أموالهم بطرق مشروعة أو غير مشروعة، إذن فهم وسائل للاختبار والامتحان. ليس هذا فحسب فقد يكون

---

(١) **سورة محمّد**ﷺ، الآية ٤.

(٢) **سورة الأنعام**، الآية ١٦٥.

جمال المرء مدعاةً لامتحانه وامتحان الآخرين أيضاً. كما قد يكون قبحُ إنسان آخر وسيلةً لاختباره واختبار الآخرين. فحُسن يوسفعليه السلام كان اختباراً ليوسف نفسه. فلولا هذا الحسن لما ابتلي بحادثة زليخا لينكشف ما إذا كان سيصون نفسه في تلك الحالة أم لا. إذن فالوسيلة لامتحانه هوعليه السلام كانت عين جماله الذي كان ـ في ذات الوقت ـ سبباً لاختبار زليخا ونساء مصر واخوته أيضاً؛ فالله يصيب مئات الأهداف بسهم واحد، وليس هذا السهم إلّا الجمال في هذه الحياة الدنيا. فكم هو جهاز عجيب هذا العالم! وكم من الحكمة ينطوي عليها كلّ جزء من أجزاء هذا الكون!

إذن ليس السبب في الامتحان الإلهيّ هو عدم علم الله تعالى، بل هو يعود إلى كون الإنسان بما أنّه موجود يتعيّن عليه أن يختار طريقه ولابدّ لتحقّق هذا الاختيار من توفّر أرضيّات معيّنة؛ أي أن يصل المرء دائماً إلى مفترق طرق ليختار أحدها. فالإنسان يُمتحن باستمرار بكلّ ما يرى وما يسمع وما يقول وبسائر شؤونه الأُخرى التي لا تمضي لحظة إلّا وهو يواجهها. ولهذا فإنّ كلّ ما على الأرض يُعدّ وسيلة من وسائل الاختبار والابتلاء؛ فأسباب الامتحان لا تقتصر على الشرور والبلايا والأمراض، بل حتّى النعم هي من وسائل الامتحان أيضاً؛ حيث: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾[1]، ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[2]. فعندما أسبغ الله تعالى على سليمانعليه السلام بذلك الملك العظيم وأتى له بعرش بلقيس بلمح البصر من اليمن إلى مركز حكومته في الشامات، كيف

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ٣٥.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٦٨.

تصرّف عليه السلام في مقابل ما حصل له من أمر عظيم لا مثيل له، أو فلنقل: يندر نظيره في العالم: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[1].

إذن فكلّ النعم والنقم في هذا العالم هي وسائل للامتحان، وبعبارة أُخرى: إنّ الكون بأسره هو مختبَر للإنسان، ونحن بدخولنا إلى هذا العالم إنّما نلج مختبَراً عظيماً، حتّى وإن كنّا في بداية الأمر عاجزين عن خوض الامتحان وغير مكلّفين ولابدّ أن نمضي عدداً من السنين لبلوغ سنّ التكليف وتهيّؤ الأرضيّات اللازمة لنصبح قادرين على المشاركة في هذا الاختبار. فالامتحانات تبدأ منذ ذلك الحين وتستمرّ حتّى النزول إلى القبر وخروج آخر نَفَس، وذلك لتمهّد لنا البيئات المختلفة للاختيار والاصطفاء. فالنطق والسمع والبصر والتفكير وحتّى التصوّر الذهنيّ كلّها أرضيّات للاختبار. فالعليّ القدير يقول: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[2]؛ فقد يتبادر إلى ذهن المرء ما يُعدّ إثماً. فليس من حقّ الإنسان أن يفكّر بكلّ ما يحبّ، ولا يجوز له أن يسيء الظنّ بمؤمن بلا مبرّر. إذن حتّى باطن الإنسان وذهنه هما أيضاً مجال لامتحانه واختباره. فذوو البصائر ملتفتون إلى حقيقة أنّ الإنسان معرَّض لعشرات بل ولمئات الابتلاءات في كلّ حال، وهي جميعاً تُعدّ من أنعم الله ولولاها لما حصل أيّ نضج أو تكامل. فالإنسان لا يرتقي مرتبة من دون أن يأتي بعمل صالح، وإلّا فسيبقى يراوح في مكانه. كما أنّه إذا رُفض فسيرجع إلى الوراء خطوة. فنفس تهيئة الله عزّ وجلّ لنا بيئة للنضج والتكامل يُعَدّ بحدّ ذاته نعمة عظيمة! فلولا هذه الاختبارات لبقينا نُطَفاً كما كنّا في البداية:

---

(١) **سورة النمل**، الآية ٤٠.

(٢) **سورة الحجرات**، الآية ١٢.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1]. يقول عزّ من قائل: لقد خلقنا الإنسان بخصائص معيّنة، وهي تلك المجموعة من العوامل والميول وقوى الاستقطاب المختلفة وذلك بغية امتحانه. إذن فالغاية من خلق البشر في هذا العالم هي اختبارهم. لكنّ ما يُستشفّ من القرآن الكريم هو أنّ الامتحان لا يمثّل الهدف النهائيّ من الخلقة؛ فالإنسان يُمتحن ليبلغ بنفسه إلى حيث الكمال، فيتحقّق نتيجة لذلك ما كان مقرّراً للإنسان أن يكون وما هو قادر عليه، أو ـ كما يعبّر الفلاسفة ـ من أجل أن يوصل طاقاته الكامنة إلى حيّز الفعليّة، ويصبح ما كان ممكناً بالقوّة ممكناً له بالفعل. وقد أطلق القرآن الكريم على ذلك اسم «الامتحان».

أمّا ما يتمتّع ـ من بين هذه الامتحانات ـ بأهمّية أكبر فسيكتنفه ـ بالطبع ـ المزيد من الصعوبات والصراعات والإبهامات؛ ويُطلق على أمثال هذه الموارد ـ مضافاً إلى اصطلاح «الابتلاء» وأمثاله ـ لفظة: «الفتنة». فالفتنة هي امتحان حسّاس ومصيريّ ومفصليّ وينطوي ـ عموماً ـ على أهمّية أكبر. إذن فالفتنة والامتحان من حيث المصداق هما من قبيل العامّ والخاصّ؛ فكلّ فتنة هي امتحان، لكن قد لا نستطيع إطلاق مصطلح الفتنة على كلّ امتحان. هذا وفقاً لما يُستظهَر من الأمر.

مجالات الاختبار في القرآن

انطلاقاً من التوضيح الآنف الذكر نقول: من الممكن أن يشكّل كلّ شيء أو

(١) **سورة الإنسان**، الآيتان ١ و ٢.

شخص وسيلة من وسائل الامتحان؛ بمعنى أنّ كلّ مَن تربطنا به علاقة قريبة أو بعيدة ـ بشكل من الأشكال ـ فسيكون سبباً لامتحاننا. غير أنّ القرآن الكريم قد أكّد على بعض الامتحانات تأكيداً أكبر لنكون نحن أكثر حذراً بشأنها. وهو يعبّر عن هذا التأكيد أحياناً باللجوء إلى استخدام نون التأكيد الثقيلة مقرونة بالقسَم. فمثلاً التعبير عن الامتحان بعبارة: «ولَنبلوَنّكم» هو غير التعبير بكلمة: «نبتليكم»؛ فمجيء لام القسم ونون التأكيد الثقيلة في قوله: «ولنبلونّكم» يوحي بحتميّة الابتلاء. ونستطيع ـ بالنظر إلى الموضوع من زاوية معيّنة ـ أن نقسّم مجالات الاختبار بهذه الكيفيّة:

الأوّل: الأُمور المادّية؛ فبعض الأمثلة التي يبيّنها القرآن الكريم للامتحان ترتبط بالأُمور المادّية؛ نحو قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[1]. فالخوف، وانعدام الأمن، والجوع (وفي بعض الموارد العطش)، وفقدان الزوج والولد هي من هذا القبيل. فإنّ المقصود من «الثمرات» كما جاء في بعض الأخبار هو الولد[2]. وكذا الحال بالنسبة لفقدان

---

(١) **سورة البقرة، الآية ١٥٥.**

(٢) عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على خديجة حين مات القاسم ابنها وهي تبكي فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: دَرَّت دُرَيرَة فبكيت. فقال: يا خديجة! أما ترضين إذا كان يوم القيامة أن تجيئي إلى باب الجنّة وهو قائم فيأخذ بيدك فيُدخِلك الجنّة ويُنزلك أفضلها وذلك لكلّ مؤمن. إنّ الله عزّ وجلّ أحكَم وأكرم أن يسلب المؤمن ثمرةَ فؤاده ثمّ يعذّبه بعدها أبداً**» (**الكافي**، ج٣، ص٢١٨). وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إذا مات ولَد العبد قال الله تعالى لملائكته: أقبضتم ولَد عبدي؟ فيقولون: بحمدك نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنّة وسمّوه بيت الحمد**» (**بحار الأنوار**، ج٧٩، ص١١٩).

الأموال والممتلكات بالحريق أو الغرق في البحر أو الجفاف فكلّها وسائل للامتحان والاختبار. إذن فإنّ جانباً من هذه الامتحانات ـ وهي كثيرة وقد بُيّنت في القرآن الكريم بشكل متكرّر ـ يتّصل بالأُمور المادّية.

الثاني: الشؤون الفكريّة والعقائديّة؛ فإنّ بعض الابتلاءات ترتبط بهذا الجانب؛ مثل وساوس الشيطان وإلقاءاته التي يعتبرها القرآن هي الأُخرى وسائل للاختبار والفتنة: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾(١). وقد اهتمّ القرآن الكريم بهذا البُعد اهتماماً بالغاً. وبناءً على ذلك فإنّ كلّ ما يُلقَى من شبهات ويُطرح من تشكيكات لزعزة عقائد الناس الدينيّة وما يُنشر باستمرار من مواضيع عبر وسائل الإعلام الأجنبيّة ومواقع الشبكة العنكبوتيّة يندرج ضمن هذا السياق. فهذه الأُمور تُصنّف بها أنّها فِتَن دينيّة وفكريّة وعقائديّة. ويظهر أنّ هذا هو المراد من «الفتنة» في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(٢). كما وأنّ المقصود منها في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾(٣) هو هذا المعنى أيضاً.

الثالث: الفتن الاجتماعيّة؛ فإنّ جانباً من الفتن يتعلّق بالأُمور الاجتماعيّة. فحتّى وجود الأنبياء أنفسهم فهو يُعدّ فتنة وامتحاناً للناس؛ كما في قوله عزّ من قائل: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾(٤). فالله سبحانه وتعالى قد بعث لفرعون راعي أغنام فقال الأخير لفرعون: أنا نبيّ وعليك أن تطيعني! فتبسّم فرعون متهكّماً وقال له: لماذا أرسلك أنت ولستَ إلّا راعياً فقيراً

---

(١) **سورة الحجّ**، الآية ٥٣.

(٢) **سورة البقرة**، الآية ١٩١.

(٣) **سورة البقرة**، الآية ١٩٣.

(٤) **سورة الأنعام**، الآية ٥٣.

معوزاً ولم يبعث شخصاً آخر؟! وحتّى في زمان النبيّ ﷺ فقد كانوا يقولـون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]؛ فلو أراد الله إرسـال رسـول فلـماذا لم يرسل شخصاً عظيماً؟ وقد كان مرادهم من «العظمة» هو الثراء والمكانة الاجتماعيّة المرموقة. قالوا: لماذا أرسل لدعوتنا شابّاً عاش معاناة اليتم منذ نعومة أظفاره؟ فـالله قد منّ عليهم إذ اصطفاه ﷺ من بين الجميع لهذه المهمّة، لكنّهم في المقابـل سـخروا منه. فهذا المورد وأمثاله هي من الامتحانات الإلهيّة. فالفتن الاجتماعيّة التي تـؤدّي إلى إضلال عدد ضخم من الناس وقد تستهدف أجيالاً متعـدّدة، بـل وقـد تسـتمرّ آثارها إلى يوم القيامة هي من مصاديق الامتحانات والفتن العظيمة التي لها مراتـب مختلفة من الضعف والشدّة والعظمة بحيث يتعيّن علينا أن نعيرها اهتماماً خاصّاً كي نفلح فيها. فما يهمّ الطالب هو أن يجيب على أسئلة الدرس بشكل جيّد، لكـنّ هـذا الأمر قد يشغل باله إلى درجة نسيان حتّى الجـوع والعطـش. فعنـدما يكـون العـالَم بأسره ساحةً للامتحان وتكون ظواهر الحياة كافّة أدوات لهذا الامتحان فبأيّ رؤيـة يتحتّم علينا النظر إلى هذه الأُمور وإلى أيّ مدىً يجب أن يكون اهتمامنا بها؟! فلابـدّ ـ على الأقلّ ـ أن نعرفها بالمقدار الذي يكون ضروريّاً لاجتياز الامتحان، وأن نفكّر في كلّ شيء من منطلق كونه متعلّقاً بتكليفنا، مع أنّ الله سبحانه وتعالى قد أودع فيها بلطفه نوعاً من اللذّة كي تكون جذّابة لنا؛ لأنّ العقل لـيس هـو المعيـار باسـتمرار. فلولا الجوع لما فكّر أحد بتناول الطعام ولتقاعس في تناوله وأصابه المرض، بل وقد تتعرّض حياته للخطر بسبب ذلك. ولهذا فإنّ من لطف الله عزّ وجلّ أن خلق لابن آدم لذّة في تناول الطعام وغيرها من اللذّات كي ينجذب نحو هذه الأُمور. بيـد أنّ

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٣١.

هذا الانجذاب ليس هو الهدف بل هو مقدّمة من أجل أن نخوض الامتحان ونظفر في العالم الأبديّ برحمة ليس لأيّ موجود أهليّة الظفر بها، وهي رحمة تكون من نصيب أُولئك الذين خرجوا من اختبار الدنيا مفلحين. إذن فالهدف النهائيّ هو في ذلك العالم، وليس الامتحان إلّا هدفاً متوسّطاً. فالمقصود الأساسيّ هو نيل الثواب الإلهيّ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]. ولكن هل هناك ـ يا ترى ـ شيء أسمى من ذلك أم لا؟ إنّ عقولنا قاصرة عن إدراك ذلك. لكنّنا نعلم أنّه أمر لا تستحقّ حتّى الملائكة نيله وقد قدّره الله تعالى للإنسان بشرط أن يجتاز الامتحان الإلهيّ في هذه الدنيا بنجاح وموفقيّة.

انتساب جميع الامتحانات إلى الله

إنّ روح جميع أشكال الفتنة والابتلاء التي يتحدّث القرآن الكريم عنها هي أنّ الله تعالى يهيّئ أرضيّة يواجه المرء فيها مفترق طريقين أو عدّة طرق ولابدّ له من أن يختار واحداً منها. فهذه هي ـ تحديداً ـ حقيقة الامتحان والفتنة والابتلاء والهدف من خلقة الإنسان في هذا العالم. وبناءً على هذا فإنّ الممتَحِن الحقيقيّ هو الله عزّ وجلّ وإنّ الممتَحَن هو الإنسان. أمّا موارد الامتحان فهي ـ طبقاً لتعابير القرآن الكريم ـ متفاوتة؛ فقد نسب الله جلّ وعلا الامتحان في قسم من الآيات لنفسه، في حين أنّه نسبه في قسم آخر منها إلى الناس (بمعنى أنّ الناس يكونون سبباً في إيجاد الفتنة). أمّا الهدف العامّ من كلّ ذلك فهو أن تُهيّأ للناس أرضيّات للاختيار كي يكون اختيارهم هو السبب في تفجّر طاقاتهم وعندئذ يختارون سبيلهم النهائيّ تبعاً لذلك.

---

(١) **سورة التوبة**، الآية ٧٢.

اختبار الناس بالأُمور التكوينيّة والتشريعيّة

كما قد قسّمنا آيات الفتنة والابتلاء والامتحان تقسيماً ابتدائيّاً وعامّاً إلى قسمين، فإنّ آيات القسم الأوّل؛ أي الابتلاءات التي ينسبها الله جلّ شأنه إلى نفسه هي الأُخرى تنقسم إلى قسمين: القسم الأوّل يختصّ بالأُمورا لتكوينيّة؛ أي إنّ الله قد خلق بعض الأشياء أو جعل لها أوصافاً معيّنة لتغدو سبباً لامتحان الناس. والقسم الثاني هي الآيات التي أنزل الله تعالى فيها أوامر جعلها وسائل للامتحان. وبعبارة أُخرى فإنّ الغاية من تشريع الأحكام هي اختبار الناس فيما إذا كانوا سيمتثلون للأوامر الإلهيّة أم لا. وكذا الآيات الدالّة على الاختبار بالأُمور التكوينيّة فإنّها تنقسم أيضاً إلى قسمين: الأوّل يشمل تلك التي تشير بشكل كلّي وعامّ إلى هذا المبدأ وهو أنّ جميع الأشياء تُعدّ وسائل للامتحان والاختبار. أمّا القسم الثاني فهو عبارة عن الآيات التي تبيّن أمثلة خاصّة لذلك. والقسمان الأخيران بالنسبة لبعضهما هما من قبيل العامّ والخاصّ، ولا ينطوي تصنيفهما الجزئيّ على نتيجة علميّة.

فمن جملة الآيات التي تشير إلى أنّ الله يمتحن الناس جميعاً هي قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ * وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ...﴾[1]؛ فكما امتحنّا الأوائل من قبلهم فإنّنا سنمتحنهم هم أيضاً، كما وأنّنا سنختبر كلّ من سيأتي من بعدهم. فهذه إذن هي قاعدة عامّة. فالآية لا تبحث في وسيلة الامتحان، بل تقول على نحو العموم: إنّ الجميع معرّضون للامتحان. فقد اعتبرت بعض الآيات أنّ كافّة ظواهر الأرض هي وسائل للامتحان؛ نحو: ﴿ إِنَّـا

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان ٢ و ٣.

جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١)؛ فإنّ كلّ ما ترونه على وجه الأرض من الأشياء التي تجتذبكم نحوها وكلّ زينة تسرّ الناس هي أداة من أدوات الامتحان والغاية منها هي اختبار كيفيّة تعاطيكم وأُسلوب تصرّفكم معها. فهل سيراعي المرء الحَسَن والقبيح والحلال والحرام أم إنّه سيعشق لذّات الدنيا وزينتها؟ وهل سيمتثل فيما يتّصل بتلك القضايا لأوامر الله تعالى أم لا؟ ومَن الذي سينفّذ التعاليم الإلهيّة على نحو أفضل من غيره؟ بمعنى أنّ للممتَحَنين مراتبَ مختلفة ليُعرف من خلالها أفضلهم وأحسنهم: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

المال والبنون هم أكثر وسائل الامتحان طبيعيّة

أمّا بعض الآيات القرآنيّة الأُخرى فهي تشير إلى نعم مختلفة معتبرة إيّاها من أسباب امتحان البشر؛ كنعمة الأموال والأولاد مثلاً، وهو ما ذكرته هاتان الآيتان: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٢)، ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٣). فأكثر الأُمور طبيعيّة من بين ما يتعلّق به الإنسان هي الأموال والأولاد. فقد لا يُعثر في هذا العالم على امرئ لا تتعلّق نفسه بأموال الدنيا ولا يرغب في المال والولد ولا يفتّش عن شريك حياة له بما أنّه من لوازم إنجاب الولد. إذن فهناك ـ بشكل عامّ ـ أمران يوجبان تعلّق أكثر البشر بالدنيا وحبّهم لها، وإنّ لهما دوراً مهمّاً وحيويّاً في سلوكيّاتهم، أحدهما الأموال والآخر الأولاد. فالذين ينعمون بنعمة الولد يعرفون جيّداً مدى العلاقة الحميمة التي أودعها الله بينهم وبين

---

(١) سورة الكهف، الآية ٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٨.

(٣) سورة التغابن، الآية ١٥.

أبنائهم، لاسيّما الأُمّهات فهنّ على استعداد لأن يفدين أولادهنّ بأرواحهنّ أيضاً. فلو سقط طفل في حوض سباحة أو أشرف على الغرق في البحر مثلاً فلن يتوانى أبواه عن إلقاء نفسيهما في الماء لإنقاذه حتّى وإن كلّفهما ذلك حياتهما. فتعلّق الإنسان بولده لا يمكن مقارنته بالتعلّق بأيّ شيء آخر. وكذا الحال بالنسبة للمال الذي يكسبه المرء خصوصاً إذا كان قد كدّ وتعب في سبيله. فالله سبحانه وتعالى يريد أن ينبّهنا إلى كون تلك الأُمور أسباباً للامتحان كي يبيّن لنا أنّها ليس لها بحدّ ذاتها أصالة. فإن جعل الله سبحانه وتعالى تلك الأُمور زينة للدنيا وأودع فيها جاذبيّة خاصّة فذلك لِعلل معيّنة قد يكون من أهمّها ابتلاؤكم بواسطتها.

ومع أنّ الآية المرقّمة ١٥٥ من سورة البقرة: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ـ والتي طالما نوّهنا بها ـ تشير إلى أُمور خاصّة لكنّها تشمل المال والولد أيضاً. فالآية تذكر الأنفس، والأموال، والثمرات وقد فُسّرت «الثمرات» في بعض التفاسير بالأبناء. فالفقر والغنى ـ بشكل عامّ ـ وسيلتان من وسائل الامتحان والله جلّت آلاؤه يقول في كلا الموردين: «نبلوكم» وهو بمعنى الامتحان. ففي اللغة الفارسيّة نستخدم مصطلح «الابتلاء» في الشدائد والمصائب فقط، أمّا وفقاً للمصطلح القرآنيّ فإنّ كلّ امتحان ـ سواء أكان في الشدّة أو في الرخاء ـ يدعى «ابتلاء»؛ إذ يقول عزّ من قائل في مقام الشكوى من الإنسان: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾[1]؛ فإذا امتحن الله الإنسان بأن جعله محترماً ومكرّماً بين الناس وأسبغ عليه النعم فتراه يقول: نعم، إنّ الله قد احترمني وأكرمني. لكنّه إذا اختبره بالفقر والفاقة

(١) سورة الفجر، الآيتان ١٥ و ١٦.

وقتّر عليه رزقه فيقول: إنّ الله قد أذلّني وأهانني، ناسياً أنّ كلا الموردين هما من وسائل الامتحان وليس أيّ منهما ملاكاً بالأصالة للإكرام أو الإهانة. ثمّ يعود القرآن الكريم بعد ذلك ليؤكّد على أنّ العلّة في ابتلائكم بالفقر والفاقة وشحّة الرزق هي من أنفسكم، فعندما لا تمدّون يد العون والمساعدة إلى اليتامى والمساكين فإنّكم ستُبتلون أيضاً بالفاقة والعوز وستتبدّل أدوات امتحانكم[1].

كما وردت في القرآن الكريم آيات تتحدّث عن الابتلاء بوفور النعمة، وإنّ أكثرها صراحة وبلاغة في هذا الجانب هي تلك التي توجّه الخطاب إلى نفس النبيّ الأكرم ﷺ قائلة: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[2]. فتعبير: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ فيه مغزىً عميق جدّاً. فعندما ينظر المرء إلى شيء بشكل طبيعي يقال: «نظر إليه»، لكنّه أحياناً يحدّق في الشيء وتشرَئبّ عنقه ليمعن النظر فيه ويشاهده بشكل جيّد، فيقال له: «سمّر عينيه على الشيء أو أطال النظر إليه بتأمّل». يقول العزيز الحكيم في هذه الآية: لا تطل النظر إلى ما متّعنا به غيرك من النعم والأمتعة، أي لا تعِرها أهمّية، فإنّ ذلك من متاع الحياة الدنيا وزخارفها وقد أعطينا هؤلاء إيّاها من باب الفتنة والاختبار. فلا ينبغي التحسّر على ما هو وسيلة لاختبار الناس. فإذا أُعطي الطالب في امتحان عدداً أكبر من الأوراق أو الأسئلة فهو من باب أنّه في صفّ أعلى وقد طالع دروساً أكثر؛ ومن هنا فمن الطبيعيّ أن يُعطى أسئلة أكثر أو ورقة امتحان أكبر. فلا تدعو حيازته على مثل ذلك إلى الحسرة. فالثروة هي نمط من أوراق الامتحان كما أنّ الفقر هو نمط آخر منها، ولابدّ أن يُنظر إلى كليهما نظرة الامتحان. فلا

---

(١) ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ وَ...﴾ (**سورة الفجر**، ١٧ و ١٨).

(٢) **سورة طه**، الآية ١٣١.

ينبغي أن يكون ما بحوزة أحدهم من اللذّات مدعاةً لحسرة الآخرين وقولهم: لماذا نفتقر نحن لمثل هذه النعمة؟ وكم يحبّ الله هؤلاء الناس! ذلك أنّ تنعّم هؤلاء بالنعم ليس هو دليلاً على محبّة الله لهم، بل قد يكون أحياناً أمارة على عدم حبّ الله لهم أيضاً. فقد جاء في آية أُخرى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا﴾(١)؛ أي ليكون ما أُعطوا من النعمة سبباً لعذابهم. لذا فلا ينبغي أن تشكّل النعم التي في حوزة الكفّار والفسقة من الناس مدعاةً لحسرتكم، ذلك أنّها أدوات امتحان. فطبيعة هذا العالم وكلّ ما فيه من المتاع هي أنّها جميعاً وسائل امتحان. فنحن نتصوّر خطأً أنّها حاجاتنا الأساسيّة وأنّه لابدّ من التعلّق بها، والحال أنّه لا أصالة لأمثال هذه الأُمور وأنّ اللذّة التي فيها هي وسيلة لاختبارنا وابتلائنا. وحتّى الاختلاف في المستوى المعيشيّ للأشخاص فهو الآخر يُعدّ من أسباب امتحانهم.

فئتا الأغنياء والفقراء

إنّ من سبل الامتحان الأُخرى هي أن تظهر في المجتمع بتقدير من الله تعالى فئتان إحداهما متنعّمة والأُخرى محرومة. فطائفة تمتلك الأموال الوافرة والقصور وما إلى ذلك وطائفة أُخرى لا تملك حتّى قوت يومها. فما سرّ هذا التنعّم وما حكمة هذا الحرمان؟ مع أنّ هذا لا يعني أنّه لا دور لأصحاب الفئتين فيما هم فيه، بل لقد توفّرت لأصحاب الفئة الأُولى فرصة فاغتنموها لكسب المال وجمع الثروة ولم تتوفّر مثلها لأصحاب الفئة الأُخرى فكانت النتيجة هذه، وهي حالة موجودة في كافّة المجتمعات البشريّة تقريباً.

لقد كان هدف الماركسيّين وطموحهم هو أن يصبح جميع البشر يوماً سواسية

---

(١) **سورة التوبة**، الآية ٨٥.

من الناحية الماليّة. وكانوا يزعمون أنّ تحقّق هذه الأُمنية ممكن، لكنّهم لم يستطيعوا بعد سبعين عاماً من الحكم أن يحقّقوا تقدّماً في هذا الطريق. فهذه الحالة، وهي أنّ جماعة من الناس يملكون ثروة أكثر من غيرهم، موجودة على مرّ التاريخ، وإن اختلف مقدار الثروة زيادةً ونقصاناً؛ فقد كان هناك من أمثال قارون الذي لم يكن ليقدر على حمل مفاتح خزائنه إلّا عصابة من الأبطال العظيمي البأس: ﴿...مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾(١). فمفاتيح خزانات كنوزه كانت على جانب من الثقل بحيث إنّ شخصاً واحداً لم يكن يستطيع حملها. أمّا نفس الأموال فلم يكن بالإمكان إحصاؤها. فهذه مرتبة من مراتب الثروة. وقد كان ولا يزال ـ في المقابل ـ أُناس لا يملكون حتّى قوت يومهم.

فما الحكمة من وراء هذا التفاوت الطبقيّ؟ ولماذا قدّر الله أن يختلف الناس في التمتّع بحظوظ الدنيا والتنعّم بنعمها إلى هذا الحدّ؟ وقد جاء الجواب على هذا السؤال في عدد من الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(٢). فلو شاء الله سبحانه لجعلكم جميعاً سواسية؛ تأكلون طعاماً واحداً، وترتدون ثياباً متماثلة، وتسكنون في بيوت متشابهة، ولَجعل كلّ الأشياء على وتيرة واحدة. لكنّ الباري تعالى لم يشأ ذلك بل وفّر أرضيّات لحصول اختلاف في الثروات، وهذا التفاوت في العطاء هو من باب امتحانكم، ليُعلم ما إذا كان أصحاب الثروة سيعطون حقوق الآخرين. وهل سيقنع الفقراء بفقرهم أو بحقوقهم أم سيمدّون أيديهم إلى أموال غيرهم؟ وهل سيرضون بتقدير الله عزّ وجلّ أم سيشتكون إليه عسرهم ويعاتبونه في أعماق قلوبهم بأنّه: لماذا يتعيّن علينا خوض مثل هذا الامتحان؟

(١) **سورة القصص**، الآية ٧٦.

(٢) **سورة المائدة**، الآية ٤٨.

لكنّه يوجد من بين عباد الله مَن إذا امتلك كلّ ثروات العالم أو حُرم حتّى من لقمة تسدّ رمقه فالأمر عنده سيّان. بالطبع من العسير علينا جدّاً تصوّر أحوال أمثال هؤلاء، لكنّ الباري عزّ وجلّ قد جعل أرضيّة سموّ الإنسان وتكامله على جانب من السعة والامتداد بحيث إنّ هذا الإنسان قد يصل أحياناً ـ بسبب التعلّق بالمادّيات ـ إلى درجة من الدناءة والخسّة بحيث يكون على استعداد، من أجل قليل المتاع وخسيس المال، للتملّق وإذلال نفسه ولوي رقبته عند هذا وذاك من الناس، وقد يبلغ أحياناً أُخرى من الشموخ والرفعة بحيث لو وضعوا كلّ أموال العالم في جانب ووضعوه أمامها خالي الوفاض تماماً منها فالأمر بالنسبة له لا يعني شيئاً؛ ذلك أنّه يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنّ كلّ هذه الأموال هي وسيلة للاختبار وأنّ فعل الله ينبع من الحكمة، فهو جلّ وعلا لا يفعل شيئاً إلّا بحكمة. فإن كنتُ غنيّاً أو فقيراً فإنّ باستطاعتي أن أُمارس العبوديّة لله في كلّ حال وأبلغ ذلك المقام الذي يكون فيه ملائكة الله المقرّبون من خدّامي. فمن أجل ذلك المقام خلق الله ابن آدم، لا من أجل الذهب والفضّة ولا لصفّ الحجارة والحديد فوق بعضها لتشييد المنازل. هذا الإنسان يؤمن بأنّ الله حكيم ولذا فهو يحبّ الحالتين. وهو يقول مع نفسه: الله أعلم منّي بما ينفعني. وهو يشكر الله في كلتا الحالتين. إذن بمقدور المرء أن يصل إلى هذه الدرجة من المعرفة.

الفصل بين اختبارين: تقدير الأرزاق وضرورة السعي لكسب المال الحلال

ما مرّ ذكره لا يتنافى مع تكليف الإنسان في السعي والعمل لكسب الرزق الحلال؛ لأنّ هذا أيضاً هو نمط آخر من أنماط امتحانه ليُرى هل كان سيعمل وفقاً للتعاليم الإلهيّة أم لا. ومن هنا فإنّه يتعيّن الفصل بين هذين الأمرين. فنحن مكلّفون بالسعي لكسب المال والثروة، والعمل والكدّ والتعب وصبّ عرق الجبين

في سبيل ذلك، لكنّنا إذا حُرمنا ـ لأيّ سبب من الأسباب ـ من نعمة وقاسينا الجوع أو أمضينا عمرنا في فقر مدقِع فإنّه ينبغي أن نرضى بتقدير الله تعالى؛ فهاتان القضيّتان مختلفتان. فكثيراً ما يخطئ الناس ويخلطون بين هذين الأمرين؛ كما يحدث الخلط في باب التوكّل بالاعتقاد بأنّ التوكّل يعني الجلوس في البيت وعدم السعي والتكسّب حتّى يُنزل الله علينا رزقنا! فالتوكّل هو حالة قلبيّة عند الإنسان أمّا العمل فهو تكليف شرعيّ له؛ فعلى الإنسان ـ كواجب شرعيّ ـ أن يعمل، لكنّه ينبغي أن يعتقد قلبيّاً بأنّ الله هو الذي يعطيه رزقه. ونفس القضيّة تنطبق على الخلط بين مراجعة الطبيب للتداوي والتوكّل على الله؛ فنحن نؤمن بأنّه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1]؛ فالله جلّ وعلا هو الذي يشفي كلّ مريض إذا كان الشفاء لصالحه. فالشفاء بيد الله، لكنّه على المريض واجب مراجعة الطبيب واستعمال الدواء الذي يصفه له. فقد يتعيّن على المرء أحياناً أن ينفق مالاً طائلاً في سبيل علاج مرضه، لكن لابدّ أن يكون لديه اعتقاد قلبيّ بأنّ الله عزّ وجلّ هو الشافي؛ فإن رأى سبحانه المصلحة في شفائه شفاه. إذن يتعيّن التوكّل على الله من جانب، والعمل بالواجب من جانب آخر. وكثيراً ما يحدث الخلط بين هاتين المسألتين.

إذن فعندما يجعل الله تعالى كلاًّ من الفقر وسعة الرزق وسيلة للامتحان فلا يعني ذلك أن يتقاعس الفقير ويقعد في بيته قائلاً: شاء الله أن أكون كذلك، وهذا هو من أسباب امتحاني. فصحيح أنّ الفقر امتحان، لكنّ السعي وراء كسب الرزق هو امتحان آخر؛ أي هو من قبيل الطائفة الثانية من الاختبارات التي تكون من خلال الأفعال التشريعيّة. فجميع التشريعات الإلهيّة هي وسائل امتحان ليُعلم من

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٨٠.

يحسن العمل بها؛ سواء على صعيد العبادة، أو على صعيد الأُمور الشخصيّة، أو في مجال الشؤون الأُسريّة والاجتماعيّة، فكلّها امتحانات. ومن الملفت للانتباه أنّ الله عزّ وجلّ قد طرح حرمة الصيد بالنسبة لمن هو في الحرم (المسجد الحرام وما يحيط به ضمن نطاق حدود الحرم) أو للمحرم بعنوان كونها ابتلاءً وامتحاناً بقوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾[1]؛ فقد نرسل أحياناً صيداً يكون في متناول أيديكم أو مدى رماحكم لنبلوكم ونرى ما إذا كنتم ستصطادونه أم لا. وعين هذا الموضوع ورد في أصحاب السبت عندما أمرهم الله تعالى بأن لا يصطادوا السمك في يوم السبت، فأصبح السمك يأتي إلى الساحل بكمّيات هائلة في ذلك اليوم حتّى ليسهل صيده جدّاً، أمّا في غيره من الأيّام فلم يكن الأمر كذلك؛ إذ كان يندر العثور على السمك ممّا يجعل الصيد صعباً للغاية: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[2]. ففي يوم وفرة السمك وهو يوم السبت جاءهم الأمر الإلهيّ بعدم الصيد. إذن كان هذا امتحاناً لهم ليُرى هل إنّهم سيمتثلون لأوامر ربّهم أم سيتذّرعون بأنّ الشأن الاقتصاديّ يُعدّ من المسائل الرئيسيّة وأنّنا إذا افتقرنا إلى المال فسيذهب كلّ شيء أدراج الرياح! فبادروا إلى حيلة وقالوا: لن نصطاد يوم السبت. لكنّهم عوضاً عن ذلك حفروا حويضات على ساحل البحر. فكانوا إذا امتلأت الحويضات بالسمك يوم السبت سدّوا منافذها على السمك وبادروا إلى صيدها يوم الأحد! وجرّاء هذا العمل فقد مسخهم الله تعالى قِرَدة. ولابدّ أن نلتفت هنا إلى أنّه حتّى نحن قد نقوم بأعمال أو حيل شرعيّة من هذا القبيل تكون سبباً فيما يصيبنا من محن وابتلاءات. فالغلاء،

(١) سورة المائدة، الآية ٩٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٦٣.

والجفاف، والزلازل، والسيول، وأمثالها إنّما منشأها خطايانا وأعمالنا القبيحة.

مصاديق خاصّة للامتحانات الإلهيّة[1]

يطلِق القرآن الكريم عنوان الفتنة على بعض الأُمور الجزئيّة ممّا يدعو إلى الدهشة حقّاً. فقد جاء في سورة «المدّثّر» أنّ الموكَّلين بجهنّم هم تسعة عشر: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[2]. ثمّ يُعقّب على ذلك بالقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾[3]؛ أي: إنّنا لم نجعل عدد الموكَّلين بجهنّم تسعة عشر إلّا لنمتحن الناس. فلأنّ هذا الأمر مذكور في كتب السلف أيضاً فقد بُيّن هنا ليتيقّن المؤمنون من أهل الكتاب أنّ هذا الأمر صحيح وعندئذ يؤمنون به. أمّا المغرضون والمعاندون فسيقولون: ما هي خصوصيّة العدد تسعة عشر؟ ولماذا لم يكونوا أكثر أو أقلّ من ذلك؟ إذن فمجرّد قولنا: إنّ الموكّلين بجهنّم هم تسعة عشر ينطوي على امتحان إلهيّ. وبناء عليه فلابدّ من اليقظة والالتفات إلى أنّ الغاية من كلّ ما في الكون من ظواهر هي امتحاننا، وأنّ علينا توخّي الحذر لئلّا نُرفَض في هذا الامتحان.

---

(١) كما قد أُشير سابقاً فقد بُيّنت في القرآن الكريم أمثلة قطعيّة وحتميّة الحدوث للفتنة والامتحان، بعضها عامّ يحصل لجميع البشر، كالابتلاء بالمال والولد؛ نحو: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (**سورة التغابن**، الآية ١٥)، وبعضها خاصّ بأشخاص معيّنين. والامتحان في هذا المورد هو أيضاً حتميّ وواقعٌ شاء الإنسان أم أبى؛ كما حصل لنبيّ الله إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (**سورة البقرة**، الآية ١٢٤). كما قد ذكرت بعضُ الآيات أنّ كيفيّة بعثة الأنبياء هي وسيلة من وسائل امتحان الناس. كما أنّ من المصاديق الأُخرى للامتحان هي كلّ ما نرى من حولنا في الأرض والعالم الذي نعيش فيه من أُمور تستقطبنا وتجذبنا نحوها. فكلّ هذه الأُمور هي امتحانات وابتلاءات أعدّها الله لنا وإنّ الممتَحِن والفاتِن هو الله عزّ وجلّ.

(٢) **سورة المدّثّر**، الآية ٣٠.

(٣) **سورة المدّثّر**، الآية ٣١.

امتحان أنبياء الله وأوليائه

لقد اختبر الله سبحانه وتعالى الأنبياء باختبارات خاصّة. فجميع البشر يُمتَحنون ولا يُستثنى من هذه القاعدة أحد، لكنّ الامتحانات الأهمّ التي يذكرها القرآن الكريم، والتي قد يندر نظيرها في التاريخ، هي تلك التي تعرّض لها إبراهيم الخليل عليه السلام والتي تتضمّن تفاصيل جمّة يطول الحديث فيها؛ كقذفه في النار، وذبح إسماعيل عليه السلام، وغيرها من الشدائد المنقطعة النظير. فقصّة القذف بالمنجنيق في النار هي من مختصّاته عليه السلام؛ إذ على الأقلّ لم يرد في القرآن الكريم ولم يحدّثنا التاريخ عن أنّ أُناساً أشعلوا ناراً عظيمة لا يستطيع الإنسان الاقتراب منها من شدّة حرارتها ومن ثمّ استُخدِم المنجنيق لرمي شخص في داخلها. فسقوط إبراهيم عليه السلام في النار وصبره على ذلك هي من القصص العجيبة للغاية. فقد جاءه جبرئيل عليه السلام أثناء تحليقه من المنجنيق إلى النار وقال له: «**هل لك من حاجة**»؟ فقال: «**أمّا إليكَ فلا**» فلا أحتاج شيئاً منك أنت. فقال جبرئيل: «**فاسأل اللهَ**» فقال: «**حسبي من سؤالي عِلمُه بحالي**» فهو يرى حالي ولا يحتاج إلى سؤالي[1]! لكنّ النطق بهذه الكلمات أسهل من تطبيقها؛ فالمرء قد لا يصبر على صداع بسيط، فما بالك بإبراهيم عليه السلام الذي كان على وشك أن يُلقى به في النار

---

(١) في بيان التنزيل لابن شهرآشوب، قال: أمر نُمرود بجمع الحطب في سواد الكوفة عند نهر كُوثَى من قرية قطنانا وأوقد النار فعجزوا عن رمي إبراهيم عليه السلام فعمل لهم إبليس المنجنيق فرُمي به فتلقّاه جبرئيل في الهواء فقال: «**هل لك من حاجة**»؟ فقال: «**أمّا إليك فلا، حسبي اللهُ ونعم الوكيل**» فاستقبله ميكائيل فقال: «**إن أردتَ أخمدتُ النار فإنّ خزائن الأمطار والمياه بيدي**». فقال: «**لا أريد**». وأتاه ملَك الريح فقال: «**لو شئتَ طيّرتُ النار**». قال: «**لا أريد**». فقال جبرئيل: «**فاسأل الله**». فقال: «**حسبي من سؤالي عِلمُه بحالي**».

لكنّه لم يطلب حاجة حتّى من جبرئيل! فحقّاً إنّه لو خُلق الكون برمّته من أجل إبراهيم الخليل عليه السلام فقط لم يكن خلقه عبثاً! فحينما بلغ إبراهيم سنّ الشيخوخة واقترب عمره من مائة عام وكانت امرأته عاقراً، منّ الله عليه بولد. وأيّ ولد؟ هو ولد قلّ نظيره في العالم. فلولا أنّنا على اطّلاع على أوصاف عليّ الأكبر عليه السلام فلعلّنا كنا سنعتقد أنّه ليس في العالم شابّ بجمال وكمال إسماعيل عليه السلام. فعندما بلغ إسماعيل ريعان الشباب جاء الأمر الإلهيّ إلى إبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام! فلم يتردّد إبراهيم في الامتثال لهذا الأمر لحظة واحدة؛ فبمجرّد أن علم بأنّه مكلّف بفعل ذلك استعدّ له على جناح السرعة. وكلّ هذه الامتحانات كانت مقدّمة لنيل نبيّ الله إبراهيم عليه السلام مقام الإمامة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1]. فلو عرفنا أنّ نبيّ الله إبراهيم عليه السلام بكلّ ما يتمتّع به من الكمالات لابدّ أن يقف موقف الخشوع أمام سيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام لأدركنا أنّه من المناسب جدّاً أن يُقدَّم العالم بأسره فداءً للحسين عليه السلام. فإذا تطاول أحد وتجاسر على شخصيّة سيّد الشهداء عليه السلام فسيمهّد ذلك لامتحان يشملنا نحن جميعاً لتتبيّن ماهيّة الموقف الذي سنتّخذه وأُسلوب ردّة الفعل التي سنبديها تجاه ذلك. فهل سنلتزم الصمت على خلفيّة بعض المآرب السياسيّة أو حبّ الرئاسة أو ما شابه ذلك ولا نجشّم أنفسنا حتّى عناء شجب هذا العمل وإدانته بالقول: لقد أساءوا التصرّف؟ ومن هنا نلاحظ إلى أيّ مدى يمكن أن يتسافل ابن آدم. فعندما نحلّل ما فعله إبراهيم الخليل وما قدّمه سيّد الشهداء عليه السلام، ونقارن ذلك بسلوكيّاتنا عندما لا نكون ـ وبسبب بعض الأغراض

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

الدنيويّة ـ على استعداد لأن ندين أُولئك الذين أهانوا سيّد الشهداء عليه السلام وتجرّأوا عليه(١)؛ فسنكتشف حينئذ مدى البون الشاسع بين الطريقين!

أمّا في مقابل تلك الامتحانات فقد أعطى الله لبعض أنبيائه من النعم ما لم يعطه لأحد قطّ. فاستناداً لظاهر الآية الشريفة: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾(٢) فإنّه لم يكن للسلطان الذي وهبه الله تعالى لسليمان عليه السلام في العالم نظير؛ فقد وضع الله سبحانه كلاً من الجنّ والإنس والوحش والطير وكلّ الأشياء تحت سلطته. وكمثال بسيط على إحدى موارد إظهار لوازم سلطانه هو جلب عرش بلقيس العظيم من اليمن إلى منطقة الشامات. فعندما قيل له: إنّه ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾(٣) قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾(٤). فأجابه أحد أصحابه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾(٥). فالقرآن لا يقول بعد أن عرض عليه هذا الرجل ذلك: ثمّ ذهب وأتى به، بل قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾. فبمجرّد أن أتمّ الرجل كلامه لاحظ سليمان عليه السلام

---

(١) في إشارة إلى ما جرى في طهران (بشكل رئيسيّ) في يوم عاشوراء من سنة ٢٠٠٩ حيث نزل إلى الشوارع حفنة من الأراذل والأوباش بذريعة الاعتراض على نتائج الانتخابات الرئاسيّة التي جرت في العام نفسه فقاموا بالاعتداء على المواكب الحسينيّة وضرب المعزّين، بل وقتل بعضهم، والتعرض للأموال العامّة، وحرق المساجد، ورفع شعارات مهينة بحقّ سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام والنظام الإسلاميّ وذلك في سياق الفتنة المعروفة التي حصلت إبّان الانتخابات المذكورة.

(٢) **سورة ص**، الآية ٣٥.

(٣) **سورة النمل**، الآية ٢٣.

(٤) **سورة النمل**، الآية ٣٨.

(٥) **سورة النمل**، الآية ٤٠.

أنّ عرش بلقيس أمامه. بمعنى أنّ عمل «آصف» لم يستغرق حتّى طرفة العين. فهل لإنسان أن يكون له مثل هذه القدرة؟ نعم، فالقرآن يقول: إنّ المرء ليستطيع بواسطة عبادة الله أن يصبح بهذه المنزلة. أمّا سليمان عليه السلام فإنّه عندما شاهد هذه النعمة من الله قال: إنّ هذه لنعمة وفضل مَنّ الله به عليّ ليختبرني إن كنت سأشكر النعمة أم أكفر بها. فنعمة كهذه ـ وهي أن يجعل الله تعالى تحت إمرتي من أمثال هؤلاء ـ هي سبب لامتحاني؛ فإذا كانت النار التي أوقدها نمرود هي وسيلة للامتحان، فإنّ إحضار عرش بلقيس بلمح البصر هو الآخر سبب للاختبار والابتلاء.

سردٌ لتاريخ الامتحانات الإلهيّة في نهج البلاغة

لقد ذُكرت في «الخطبة القاصعة» وهي أطول خطب نهج البلاغة التفاتات بالغة الجمال والتنظيم بخصوص الامتحانات الإلهيّة في عالم الخلقة ممّا يُعدّ سرداً تاريخيّاً للامتحانات الإلهيّة[1].

يبتدئ أمير المؤمنين عليه السلام الخطبة بالقول: إنّ الله تعالى قد ابتلى الملائكة وإبليس بآدم عليه السلام عندما خلقه. وكأنّ أوّل امتحان في عالم الخلقة كان امتحان الملائكة وإبليس بنبيّ الله آدم عليه السلام. فقد أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة وإبليس ـ الذي كان في مستوى الملائكة آنذاك ـ قائلاً: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[2]؛ أي: خرّوا له ساجدين جميعاً، ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾[3]. لكن هل كان هؤلاء جميع الملائكة، أم كانوا الملائكة الأرضيّين (أي الملائكة الموكّلة في الأرض) فقط؟ تخبرنا بعض الروايات بأنّ هناك

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢.

(٢) **سورة ص**، الآية ٧٢.

(٣) **سورة ص**، الآية ٧٣.

مجموعة من الملائكة كانت مستغرقة في جلال الله وجماله إلى درجة أنّها لم تعلم أساساً بأنّ الله قد خلق إنساناً. على أيّة حال فإنّ القدر المتيقَّن أنّ جميع الملائكة الأرضيّين الموكّلين بهذا العالم قد خرّوا ساجدين من دون نقاش. ولم يكن من بينهم إلاّ إبليس الذي لم يكن في الواقع من جنس الملائكة، بل أصبح ـ من كثرة عبادة الله ـ أشبه ما يكون بالملائكة. يقول أمير المؤمنينعليه السلام في نفس الخطبة: «**قد عبَد الله ستّة آلاف سنة لا يُدرَى أمِن سني الدنيا أم من سني الآخرة**»؛ أي لا يُدرى أهي من سني الدنيا التي تعرفونها والتي تمتدّ كلّ واحدة منها ٣٦٥ يوماً أم من سني الآخرة التي يساوي كلّ يوم فيها ألف سنة: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[١]؟ فإن كانت عين هذه السنة التي نعرفها (والمكوَّنة من ٣٦٥ يوماً طول كلّ يوم منها ٢٤ ساعة) فإنّ الشيطان كان يعبد الله عزّ وجلّ منذ ستّة آلاف عام قبل خلق آدمعليه السلام. وكأنّ الملائكة كانوا يعدّون الشيطان واحداً منهم. ولهذا فعندما أُمر الملائكة بالسجود كان إبليس مكلّفاً بالسجود أيضاً، وعلى الرغم من أنّه كان من الجنّ ولم يكن ملَكاً، لكنّه مشمول بهذا الخطاب الجماعيّ الموجّه من قبل الله تعالى.

تناسب الامتحان مع الممتحَن

في أوّل امتحان جرى في هذا العالم تمّ قبول الملائكة جميعاً إلّا إبليس فقد رُفض عندما قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٢]. لقد قال إبليس: إنّني أشرف من البشر وإنّ أصل خلقتي أشرف لكوني خُلقت من النار؛ ولهذا فإنّني أرفض الخضوع له. يقول أمير المؤمنينعليه السلام في سياق خطبته

---

(١) سورة الحجّ، الآية ٤٧.

(٢) سورة الحجر، الآية ٣٣.

بعد ذلك: «**ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطَف الأبصارَ ضياؤه ويبهر العقولَ رُواؤه وطِيب يأخذ الأنفاسَ عَرفُه لفعل**»(١). فلو خلق الله آدم بهذه الصورة لسجد له حتّى إبليس، ولكان من اليسير جدّاً على الملائكة أن يسجدوا لموجود بهذه العظمة وهذا الجلال والجمال والمحبوبيّة. فإنّ قيمة سجدة الملائكة تكمن في عدم قولهم: أين هذا المخلوق الترابيّ منّا؟ لأنّ سجودهم كان امتثالاً للأمر الإلهيّ. أمّا إبليس فقد تكبّر وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾(٢). لكن لو كان الله تعالى قد خلق آدم من مثل هذا النور لكان إبليس قد خضع له أيضاً؛ بيد أنّه ما كان ليتحقّق الامتحان في تلك الحالة.

إذن فكثير ممّا نجهله في هذا العالم ينطوي على حِكم، لكنّنا لا نعلم أسباب كونها بهذا الشكل، وقد نعترض عليها في قلوبنا أو حتّى بألسنتنا. فإنّ لله في خلق آدمعليه السلام حِكماً، فهو يعلم أنّ خلقه من التراب يكون بمثابة امتحان للملائكة ولإبليس ليرى ما إذا كانوا على استعداد لتعفير جباههم في التراب أمام موجود ترابيّ. «**ولو فعل لظلّتْ له الأعناق خاضعة ولخفَّت البلوى فيه على الملائكة**»(٣)؛ أي لو خلق الله آدمعليه السلام بهذه الصورة لخضعت له الأعناق كلّها ولسهل الامتحان على الملائكة كثيراً ولما استحقّوا عليه درجات عالية. فسؤال خرّيج المرحلة الثانويّة عن عمليّات الحساب الأربع الأساسيّة(٤) لا يُعدّ امتحاناً، فلا يكون الامتحان ذا معنىً إلّا إذا تناسبت صعوبته مع مستوى الممتحَن.

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢.

(٢) **سورة الأعراف**، الآية ١٢؛ **وسورة ص**، الآية ٧٦.

(٣) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢.

(٤) يقصد الجمع والطرح والضرب والقسمة.

الاختبار بالمجهولات

إنّ الله سبحانه وتعالى يختبر خلقه بأُمور لا يكونون مطّلعين على أصلها. فجواب الامتحان إذا كان معلوماً لم يُعدّ امتحاناً أساساً؛ كالامتحانات التي تكتب فيها الإجابات إلى جانب الأسئلة؛ «**ولكنّ الله سبحانه يبتلي خلقَه ببعض ما يجهلون أصلَه تمييزاً بالاختبار لهم ونفياً للاستكبار عنهم وإبعاداً للخُيَلاء منهم**»[1]. أمّا الحكمة من ابتلاء الممتحَنين بالمجهولات فهي أن يُختبروا فتُعلم درجة طاعتهم من جهة، وإذا امتثلوا فانّها تنكسر عندهم روح الاستكبار والتكبّر والعجرفة من جهة أُخرى؛ ذلك أنّ التكبّر منبوذ في كلّ حال. فمن أجل قتل روح الاستكبار في العباد فقد هيّأ الله وسائل تجعلهم يمرّغون أُنوفهم في التراب، فجعل من المستحبّ ـ على سبيل المثال ـ تعفير حتّى الأنف بالتراب حال السجدة في الصلاة.

ويتطرّق أمير المؤمنين عليه السلام في جانب آخر من الخطبة نفسها إلى امتحان الله عزّ وجلّ للفقراء والأغنياء. فقد وهب الله لبعض الناس حياة مرفّهة وثروة وأسباب راحة وابتلى بعضهم الآخر بالفقر والفاقة. فلا تمدّوا أعينكم لثروات المترفين أو لعوز المعوزين ولا تعيروا ذلك أهمّية؛ ذلك أنّها لا تشكّل معياراً لقيمة الناس عند الله، بل هي وسائل لاختبارهم وامتحانهم. ثمّ يستدلّ عليه السلام بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[2]؛ أي: أيظنّون أنّ الله عندما أعطاهم المال والثروة والكثير من الأبناء فهو دليل على حبّه

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢.

(٢) **سورة «المؤمنون»**، الآيتان ٥٥ و ٥٦.

لهم وأنّه خير لهم؟ فأمثال هذه الأُمور ليس لها أيّ أصالة وهي لا تعدو كونها وسائل اختبار وامتحان. فليست القضيّة أنّنا أسبغنا عليهم المال من باب حبّنا إيّاهم، بل قد تكون نفس هذه النعم أحياناً سبباً في اشتداد عذابهم. إذن فلا تفرحوا لكونكم تعيشون في نعمة ورفاهية وهم يعانون من الفقر والفاقة؛ بل فكّروا فقط بأداء ما كلّفكم الله به من واجبات: «**فإنّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعَفين في أعينهم**»(١). فأولياء الله في أعين هؤلاء هم أُناس ضعفاء، ولكن شاء الله عزّ وجلّ أن يمتحن هؤلاء بهذا الفقر. كما أنّه تعالى يمتحن الفقراء أيضاً عن طريق آخر وهو الأغنياء ليرى ما إذا كانوا سيراعون الأحكام الشرعيّة فيما يتعلّق بهم أم لا. فكثير من الناس لا يلتزمون بواجباتهم تجاه الأغنياء؛ فلا ينهونهم عن المنكر، ولا يذكّرونهم بعيوبهم، أو إنّهم يحترمونهم طمعاً في ثروتهم أو استغلالاً لمكانتهم. فامتحان هؤلاء في هذا المجال يتركّز في: هل إنّ احترامهم للناس هو بسبب أموالهم أم بسبب دينهم؟ وهل سيصبرون على فقرهم، أم سيمدّون أيديهم إلى ما ليس لهم حقّ التصرّف فيه من الأموال؟

القسم الآخر من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام يتناول اختبار الله جلّ شأنه للناس بواسطة الأنبياء. فقد كان معظم الأنبياء ينتمون إلى الطبقات المحرومة والفقيرة من المجتمع، ولم يكونوا يتمتّعون بمكانة اجتماعيّة مرموقة ولا بأسباب الجلال والعظمة الظاهريّة، وهو أمر كان بحدّ ذاته مدعاة لاختبار الناس. وقد جاء في الخطبة في هذا الباب بضع عبارات مفصّلة ورائعة نشير إلى إحداها من باب الاختصار: «**ولو**

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢.

كانت الأنبياء أهل قوّة لا تُرام وعزّة لا تُضام... لكان ذلك أهوَنَ على الخلق في الاعتبار وأبعدَ لهم في الاستكبار»؛ أي لو كان الأنبياء أهل قوّة وبأس بحيث لا يطمع أحد من الناس بالنيل منهم لَسَهُل على الناس جدّاً الاهتمام بهم، والاحترام والطاعة لهم، وعدم التكبّر عليهم أو التظاهر أمامهم بالعظمة. فالله عزّ وجلّ يخبرنا في كتابه العزيز عن المخالفين للنبيّ الأكرمﷺ أنّهم يقولون: إذا كان من المقرّر أن يرسل الله نبيّاً فلماذا لم يرسل شخصاً من عظماء هاتين المدينتين: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[1]، وقصدهم من «الرجل العظيم» هو صاحب المال والمَنَعَة. فلماذا وقع الاختيار لمنصب النبوّة على شابّ عاش يتيماً منذ نعومة أظفاره؟ يشير أمير المؤمنين عليه السلام هنا إلى أنّ معظم الأنبياء جُعلوا على هذه الصورة امتحاناً للناس. فلو كان الأنبياء من ذوي البأس والعظمة والسلطان لانقاد الناس إليهم بكلّ بساطة ولم يكن الاختبار ليتحقّق: «**ولكنّ الله سبحانه أراد أن يكون الاتّباع لرسله و... أُموراً له خاصّةً لا تشوبها من غيرها شائبة**»، وهذه العبارة هي غاية في الروعة لذوي التمعّن والمعرفة. يقول عليه السلام: لقد أراد الله أن يجعل اتّباع الناس للأنبياء خاصّاً به عزّ وجلّ؛ بمعنى أن تكون غاية الناس من اتّباع الأنبياء هو الله فحسب وأن لا تشوب نيّاتهم في الحياة أيّ شائبة من قبيل الطمع في ثروتهم وقوّتهم. وهذه الالتفاتة تحمل لنا درساً عظيماً يحثّنا على التأمّل في دوافعنا من الإيمان بالإسلام واتّباع أهل البيت عليهم السلام؛ فهل دافعنا من ذلك هو امتثال أمر الله فحسب، أم إنّ لنا منافعَ أُخرى من وراء ذلك؟ فبغية إزالة أيّ شائبة فقد شاء الباري المتعال أن يكون الإيمان بالأنبياء في سبيله ومن أجله هو فقط. «**وكلّما كانت البلوى والاختبار أعظم**

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٣١.

كانت المثوبة والجزاء أجزل»[1]، وهذه العبارة تبيّن قاعدة عامّة جليّة للغاية. بالطبع فإنّ بعض الامتحانات هي أسهل من غيرها؛ فالامتحانات اليسيرة تكون إجاباتها سهلة أيضاً ولا تستدعي مكافأة كبيرة، ولا قيمة لهذه الامتحانات إلّا لمن هو ضمن هذا المستوى من المعرفة؛ فامتحان الصفّ الأوّل له أهمّية بالنسبة لتلامذة الصفّ الأوّل فقط ولا قيمة له بالنسبة لتلامذة الصفوف الأعلى. فكلّما كان الامتحان أصعب حازت نتيجته والمثوبة المستحصلة بموجبه أهمّية أكبر. فالنبيّ الأكرمﷺ خاض امتحانات أيضاً لكنّ ما كان يحصل عليه على ضوء الامتحان هو أنفَس من كلّ ما نعرف في هذا العالم. فلا يسعنا أن ندرك بعقولنا ما أعطاه الله تعالى لنبيّه من ثواب في مقابل إنجاز واجباته. فاختبارات النبيّ الأعظمﷺ تفوق حتّى اختبارات إبراهيم الخليلعليه السلام. فمن الممكن ـ إلى حدّ مّا ـ التوصّل إلى فهم أهمّية امتحانات إبراهيمعليه السلام غير أنّ هناك بعض الامتحانات الدقيقة التي لا يتوصّل البعض حتّى إلى فهم أهميّتها! فإبراهيم ـ مثلاً ـ قد خضع لإلقائه في النار بكلّ رضاً ورغبة، لكنّ الامتحان الأصعب كان اقتراح جبرئيل عليه مساعدته: «**هل لك من حاجة**»؟ وقد كان إبراهيمعليه السلام في تلك اللحظة يطير في الهواء بين السماء والأرض بعد قذفه بالمنجنيق وعلى وشك السقوط في النار. فكان ردّه على جبرئيل: «**أمّا إليكَ فلا**». فهذا الامتحان يفوق في الأهمّية سقوطه في النار أو حتّى ذبح ولده؛ والأهمّية تكمن في أن لا يرجو الإنسان في مثل هذه اللحظات إلّا الله ولا يتّكل على أيّ أحد سواه. فأمثال هذه الاختبارات قد تعرّض لها نبيّنا الكريمﷺ بكثرة.

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢.

امتحان الناس بسفر الحجّ الشاقّ إلى أرض مجدبة

يسرد أمير المؤمنين عليه السلام في قسم آخر من الخطبة تاريخ الامتحانات الإلهيّة، فيختار من كلّ قسم نموذجاً، ومن جملة ما قاله: لقد امتحن الله البشر وسيمتحنهم من زمان آدم عليه السلام وحتّى آخر إنسان سيكون على وجه الأرض بشيء مشترك بينهم جميعاً وهو أنّه قد جعل بعض الأحجار في أرض صحراويّة لا ماء فيها ولا زرع وجعل من بينها حجراً أسودَ ثمّ أمر الناس جميعاً ـ النبيّ آدم عليه السلام وكلّ من يعيش على وجه الأرض ـ أن يطوفوا بها ويحترموا الحجر الأسود؛ ذلك الحجر الذي يقول عنه أمير المؤمنين عليه السلام: لا يرى ولا يسمع ولا ينفع ولا يضرّ. فإن كانت صورته المعنويّة أو البرزخيّة والملكوتيّة ذات تأثير وهي تسمع فهذا بحث آخر، لكنّ الذي يشاهده الناس هو أنّه حجر وعليهم الطواف حوله. فالعبادة الأهمّ التي يُختبر بها جميع الناس هي الحجّ وعمليّة تكريم الحجر الأسود؛ أي إنّ الله قد جعل حجراً أسودَ كوسيلة للامتحان! «**ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع**» فليس من غايةٍ من ذهاب الناس إلى ذلك المكان والطواف حول تلك الأحجار سوى طاعة ربّهم تبارك وتعالى. ثمّ يقول عليه السلام: «**ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنّات وأنهار وسهل وقرار، جمّ الأشجار داني الثمار مُلتفّ البُنَى متّصل القُرى، بين بُرَّة سمراء وروضة خضراء وأرياف مُحدِقة وعِراص مُغدِقة ورياض ناضرة وطرق عامرة، لكان قد صغُر قدْر الجزاء على حسب ضعف البلاء**»؛ فلو أراد الله تعالى جعل بيته في مكتنف بساتين نضرة وأشجار مثمرة وأنهار جارية ومناظر خلّابة على تلّ أو بقعة من الأرض خصبة خضراء فيها الأشجار والماء لسَهُل الامتحان وقلّ بموجبه الأجر، ولأصبح الثواب حينئذ قليل القيمة حقير المقدار؛ لأنّه عندئذ ينتفي

الامتحان أساساً ويصبح الحجّ مطلوباً ومنية للجميع. ألا ينفق أهل العالم الأموال الطائلة من أجل قضاء بضعة أيّام في مناجع العالم ومصايفه للترفيه عن أنفسهم؟ فلو كان بيت الله الحرام في مثل هذه البقعة لتوافد الناس إليه زرافات من كلّ حدب وصوب ولأنفقوا الأموال في سبيل قضاء بضعة أيّام من الرفاهية والتسلية. فالامتحان يكمن في المجيء إلى أرض مكّة الجدباء في ذلك الوضع الصعب الناشئ عن اكتظاظ المكان بالناس، وهو وضع لا يدركه إلّا الذين تشرّفوا بحجّ بيت الله الحرام وشاهدوا ما يعني ازدحام الناس لاسيّما يوم النفير من منى. ففي مثل هذه الحالة سيمتاز المستعدّ لتجشيم نفسه عناء السفر والذهاب إلى ذلك المكان بدافع الحبّ العميق(١). فالاختبار يكمن في أنّه هل سيجد الناس في أنفسهم الاستعداد لإنفاق أموال طائلة وتجشّم عناء المجيء إلى مكان خالٍ من المناظر الجميلة وليس فيه إلّا صخور وصحراء قاحلة، يفعل كلّ ذلك في سبيل الله وحده؟

امتحان المؤمنين الماضين بالحكّام الظلمة

يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في جانب آخر من خطبته القاصعة بخصوص امتحان الماضين من المؤمنين: «**تدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف**

---

(١) شاهدتُ في سفرة من سفرات الحجّ عائلة نمساويّة كانت تعود من منى مشياً على الأقدام، وقد كان الطريق مكتظّاً جدّاً بالمارّة ومليئاً بالأوحال، لكنّهم كانوا يمشون بقلوب طافحة بالمحبّة والصفاء على الرغم من أنّهم قد تربّوا في بلد أُوروبّي يمتاز بالنظافة والخضرة وجودة الطقس. كما أنّ أحد رفاقنا في السفر كان عجيب التعلّق بحرم الله إلى درجة أنّه أقسم عند عودتنا ونحن في المطار أنّه إذا سُمح له الآن بالذهاب ثانية فسيعزم على السفر ويشدّ الرحال في هذه اللحظة ويعود ثانية إلى مكّة. ولعمري فإنّ هذا عشق إلهيّ قد أودعه الله في قلوب المؤمنين من عباده: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (**سورة إبراهيم، الآية ٣٧**).

كانوا في حال التمحيص والبلاء؛ ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً»؛ فاستعرضوا تاريخ من سبقكم من المؤمنين وطالعوا أحوالهم. لقد كان أغلبهم في ضنك من العيش ولم تكن حياتهم مرفّهة ومريحة. ألم يكن حملهم أثقل من حمل الجميع، وعوزهم أشدّ من الباقين؟ ثمّ يضرب عليه السلام مثلاً من بني إسرائيل عندما كانوا تحت هيمنة آل فرعون الذين كانوا يسخرون منهم ويعاملونهم معاملة العبيد: «**اتّخذتهم الفراعنة عبيداً**». ثمّ يشير عليه السلام إلى أنّ الناس إذا اجتازوا هذه الامتحانات بنجاح فسيلقون الثواب في هذه الحياة الدنيا على الرغم من أنّ الآخرة هي محلّ الأجر والجزاء الحقيقيّ وأنّ ثواب بعض الامتحانات لا يُعطى إلّا في الآخرة: «**حتّى إذا رأى الله سبحانه جِدّ الصبر منهم على الأذى في محبّته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً فأبدلهم العزّ مكان الذلّ**»؛ فعندما شاهد الله عزّ وجلّ أنّ بني إسرائيل صابرون صبراً جادّاً على أذى آل فرعون؛ أي قد خرجوا من الاختبار بموفّقيّة ونجاح، فصبروا على بلاء الله، ولم يتنازلوا عن دينهم، ولم يصبحوا فرعونيّين ووثنيّين، بل صبروا صبراً حقيقيّاً وجدّياً على الفقر والبلاء والعبوديّة على خلفيّة حبّ الله (بالنسبة لمن كانت معرفته أعلى) أو خوفه (بالنسبة للآخرين) فقد كشف عنهم هذه المحن وأبدلهم عوضاً عن الذلّ عزّاً، إلى حدّ إغراق الفرعونيّين ونجاة بني إسرائيل.

حكمة إعلان الله عن الامتحان

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ما هو السرّ والحكمة من وراء إعلان الله عزّ وجلّ عن أنّ لديه أنواعاً وأصنافاً من الامتحانات للبشر؟ والجواب: إنّ

الحكمة العامّة لهذا الأمر هو الاستعداد والتأهّب. فعندما يعلن المعلّم عن امتحان في اليوم الفلانيّ فهو ـ في واقع الأمر ـ ينبّه الطلّاب إلى الاستعداد للإجابة كي لا يخفقوا فيه. فمن منطلق ما يتّصف به الله عزّ وجلّ من لطف لا نهاية له فقد جعل لنا ـ من ناحية ـ اختباراً ليكون سبباً لتكاملنا؛ فلولا الاختبار لاختلط الحَسَن بالقبيح والغثّ بالسمين، ولم يمتازوا عن بعضهم ولما استحقّ أحد ثواباً، ثمّ أعلن ـ من ناحية أُخرى ـ عن تنظيم الامتحان ممّا يُعدّ بحدّ ذاته لوناً آخر من ألوان اللطف. كما أنّ بيان مصاديق الامتحان وبماذا سيمتحننا الباري تبارك وتعالى هو الآخر لطف من نوع ثالث. وبناءً عليه فإنّ كلاًّ من أصل الامتحان، والإعلان عنه، وكذا الإشارة إلى ما سيطرح فيه من أسئلة هي رحمة. وبطبيعة الحال إذا تمّ الإفصاح عن عين السؤال والإشارة إلى أنّه سيتمّ غداً في الساعة الكذائيّة امتحانكم بالفعل الفلانيّ فلن يتّخذ الامتحان طابع الجدّية؛ إذ لابدّ أن يكون الاختبار مجهولاً ومبهماً إلى حدّ مّا. ولذا فقد بيّن إجمالاً بأنّكم ستُمتحَنون وأنّ الامتحان سيكون في مجال المال والمقام والولد والزوج وغير ذلك ممّا أشار إليه القرآن الكريم.

إذن ففائدة الإعلان عن تنظيم الامتحانات الإلهيّة هي سعينا للتأهّب لها كي تتكلّل محاولاتنا في الإجابة على الأسئلة بالنجاح. ففي الآية الشريفة: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾[1] ينسب القرآن الكريم الفتنة إلى الشيطان لأنّ الشيطان هنا كان وسيلة الامتحان، فيقول: لا يخدعنّكم الشيطان ولا يفتننّكم كما أخرج أبويكم من الجنّة بالوسوسة. فقد قال لآدم عليه السلام:

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[١]. ثمّ أقسم لأبوينا بأنّني لا أُريد لكما إلّا الخير: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٢] وبهذه الطريقة قام بخداع آدم وحواءعليهما السلام[٣]. فما ينبغي علينا فهمه من هذا الدرس هو أنّ الشيطان يخدع الإنسان وأنّ الله جلّ وعلا ينذرنا هنا بقوله: حذار من أن يخدعكم ذلك الشيطان الذي خدع أبويكم.

امتحان بني إسرائيل إنذار لسائر الأُمَم

بعد أن أنجى الله بني إسرائيل من قبضة آل فرعون قالوا لنبيّهم موسىعليه السلام: إذا أردت أن نؤمن بأنّك حقّاً رسول الله وأنّك تناجيه وتأتينا بتعاليمه وأوامره فلابدّ أن نراه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[٤]. ولم تُجدِ محاولات موسىعليه السلام في نصيحتهم بأن: لا تتفوّهوا بهذا الكلام، ولا تكفروا بالنعمة، فقد أنقذكم الله من قبضة آل فرعون، فاشكروا الله وأطيعوه ـ لم تُجدِ نفعاً وقد أصرّوا على رؤية الله. فاختار موسىعليه السلام بإلهام من الله سبعين شخصاً من بني إسرائيل للذهاب إلى جبل طور: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾[٥] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[٦]

---

(١) **سورة طه**، الآية ١٢٠.

(٢) **سورة الأعراف**، الآية ٢١.

(٣) أمّا في أيّ عالم من العوالم جرت هذه القصّة؟ وكيف خدعهما إبليس؟ وهل كان ذلك العالم عالم تكليف أم لم يكن؟ فهي بحوث قد تناولها علماء التفسير في تفاسيرهم ومصنّفاتهم ولسنا هنا بصدد الخوض فيها.

(٤) **سورة البقرة**، الآية ٥٥.

(٥) **سورة الأعراف**، الآية ١٥٥.

(٦) **سورة النساء**، الآية ١٥٣.

وهلكوا عن بكرة أبيهم[١]. فتحيّر موسى عليه السلام فيما سيجيب قومه إذا رجع إليهم؟ فهم سيتّهمونه بأنّك قد قتلتهم بدلاً من أن تريهم الله! ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىٰيَ﴾[٢]. فعبارته هذه تشير إلى شدّة ما وقع فيه من حرج وحيرة فيما سيردّ به على تساؤلات بني إسرائيل المفتّشين أساساً عن الذرائع. فمنّ الله تعالى عليهم بأن أحياهم مرّة أُخرى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣].

أمّا مرادنا من ذكر هذه القصّة هنا فهو تلك الجملة التي ذكرها موسى عليه السلام في مناجاته: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[٤]؛ فلم يكن ذلك إلّا امتحاناً من قِبلك، وأنّك ستُضِلّ بهذا الامتحان من تشاء وتهدي من تشاء. بمعنى: إذا اهتدى قوم أو ضلّ آخرون فهو بإذنك ومشيئتك.

إذن فنطاق الفتنة والامتحان هو بهذه السعة وهو يشمل أُموراً جمّة ومختلفة. فقد منّ الله علينا إذ أنذرنا وجعَلنا ندرك جيّداً بأنّ أعمارنا التي نمضيها في هذه الدنيا هي أقلّ من لمح البصر مقارنةً بعمر الآخرة. فعندما نقيس العمر الذي يمتدّ سبعين أو مائة سنة ـ والذي نراه طويلاً ـ باللانهاية فالنتيجة هي لا شيء، لأنّ عمر الآخرة لا نهاية له. إذن حتّى لو افترضنا أنّنا سنعمّر ألف سنة فإنّه عمر متناهٍ أيضاً وليس بينه وبين اللامتناهي أيّ نسبة؛ إذن فهو أقلّ من طرفة العين قياسًا بعمر الإنسان كلّه. وحتّى طرفة العين فهي تستغرق جزءاً من الثانية أيضاً، وإنّه يوجد تناسب بين زمن واحد بالألف من الثانية مع العمر الذي يمتدّ ألف

(١) هناك احتمالان في أنّه هل كانت هذه الحالة نتيجة لتجلّي الله تعالى، أم كانت بمثابة عقوبة لهم؟

(٢) **سورة الأعراف**، الآية ١٥٥.

(٣) **سورة البقرة**، الآية ٥٦.

(٤) **سورة الأعراف**، الآية ١٥٥.

عام مثلاً. فباستطاعتنا أن نتّخذ كسراً بسطه ١ ومقامه ١٠٠٠ ونضربه في ٣٦٥ يوماً، ثمّ في ٢٤ ساعة، ثمّ في ٦٠ دقيقة، ومن ثمّ في ٦٠ ثانية؛ إذن هناك نسبة بين العددين. لكنّ عمر الدنيا كلّه مقارنةً بعمر الآخرة هو كنسبة العدد ١ إلى اللانهاية؛ فلا تناسب بين الإثنين على الإطلاق.

فالله عزّ وجلّ يبيّن لنا الامتحان بصور شتّى؛ فالفقر والغنى امتحان، وبعثة الأنبياء عليهم السلام امتحان، ورحيل الأنبياء عليهم السلام عن الدنيا امتحان ليُرى ما إذا كان الناس سيحافظون على إيمانهم بعد رحيلهم أم سيعودون إلى الكفر والجاهليّة: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[1]. على أيّة حال فحقيقة هذا العالم هي مجموعة من امتحانات وإنّ المتصدّي لها هو الله تعالى، وليس ثمّة من سبيل للفرار منها، وما علينا سوى أن نعدّ أنفسنا للإجابة على الأسئلة المطروحة فيها.

الفتن التي هي من صنيعة البشر

القسم الآخر من الفتن هي تلك التي تكون من صنيعة البشر ولا يكون لله تعالى دور مباشر في تحقّقها وإيجادها، وهذا القسم يتشكّل ـ بصورة أساسيّة ـ من الفتن الاجتماعيّة.

ومضافاً إلى كون هذا النمط من الفتن يتضمّن امتحاناً وابتلاءً إلهيّاً أيضاً؛ لأنّنا سنكون مكلّفين تجاهها ولابدّ من التصرّف طبقاً لهذا التكليف، فإنّ علينا العمل على أن لا تشملنا هذه الفتن أو تجرّنا من حيث لا نعلم؛ ذلك أنّ عواقب هذا النمط من الفتن هي أشدّ صعوبة من غيرها بكثير. ففي النوع الأوّل من الفتن يكون المرء مكلّفاً بمجموعة واجبات ـ تجاه ماله أو ولده أو غير ذلك ـ وعليه العمل بموجبها؛ كأن

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

يكون من واجبه كسب المال الحلال وإنفاقه في المواطن المحلّلة، أو أن يكون مكلّفاً بتربية ولده تربية صالحة والتقيّد بإطعامه لقمة حلال، فكلّ ذلك واضح وبيّن، وحتّى إذا اكتنفه أيّ إبهام فقد وضّح لنا الأنبياء والأولياء عليهم السلام الأُمور وعرّفونا بمعالم الطريق القويم. أمّا الفتن التي تكون من صنع البشر فهي أشدّ تعقيداً وإنّ تمييز الحقّ من الباطل فيها يكون في غاية الصعوبة. وفي مثل هذه الامتحانات فإنّ على الإنسان بادئ ذي بدء أن يعمل ما بوسعه على أن لا يتورّط في الفتنة أو يغوص فيها. فإذا استجدّ ظرف معيّن وتحيّر المرء في أمره ولم يدر أيّ سبيل يسلك فعليه الحذر كلّ الحذر من أن يصبح أداة بيد الشيطان أو أصحاب الفتنة. فقد تكون الأُمور أحياناً من التعقيد وأشبه بالخيوط المتشابكة بحيث لا يمكن العثور على رأس خيوطها وحلّ عقدها. ولذا تطلَق التحذيرات منذ البداية بأنّ هناك مسائلَ من هذا القبيل ويتعيّن علينا اتّخاذ جانب الحيطة والحذر لئلّا نصبح من عوامل الفتنة من حيث لا ندري. فالشياطين قد تحثّ المرء على أُمور غير واضحة النتائج حتّى إذا أوغل فيها وبلغ فيها مبلغاً أُسقِط في يده وصار يلطم على رأسه ولا يدري ماذا يصنع.

وبالإضافة إلى أنّ تبيين مثل هذه المسائل يشكّل تحذيراً للإنسان وتحريضاً له على الاستعداد لخوض الامتحانات، فإنّه يتّخذ طابع الإنذار للوقاية من وقوع الفتن وحماية الإنسان من الضلال بسببها. وهذا الأمر قد أُشير إليه إشارات متعدّدة في القرآن الكريم من جانب وتناولته بالتفصيل الأحاديث الواردة عن أمير المؤمنين وسائر الأئمّة الأطهار عليهم السلام من جانب آخر. فقد بالغت النصوص الدينيّة في الإشارة إلى الفتن والابتلاءات والامتحانات وما سيحصل من فتن في آخر الزمان، لكنّها لم تبلغ من الروعة والسعة ما بلغته تلك المجموعة من النصوص التي جمعها الشريف الرضيّ رحمه الله في **نهج البلاغة**.

الفتن التي سبقت ظهور نبيّ الإسلامﷺ

لقد نوّه كتاب نهج البلاغة بالفتن التي سبقت ظهور النبيّ الأكرمﷺ. فقد قال أمير المؤمنين عليّعليه السلام في هذا الصدد: لقد كان الناس حينما بعث الله عزّ وجلّ نبيّه الكريمﷺ بالرسالة يصارعون فتناً مهولة «**انجَذَم فيها حبلُ الدين وتزعزعت سَواري اليقين**»[1] أي تقطّعت فيها حبال الدين وتزعزعت دعائم اليقين. فعندما تتقطّع حبال الدين يضِلّ الناس ويخرجون عن الدين إلى الشرك. إذ حينما لا تكون هناك أرضيّة لليقين فإنّه يساور الناس الشكّ ـ على أقلّ تقدير ـ وتحيط بهم الشبهات والشكوك من كلّ جانب ولا يقدرون على تشخيص السبيل للخروج من هذه المتاهة. فقد كان أهل العالم حينما بُعث النبيّﷺ في حالة من تقطّع وشائج الدين وتهدّم ركائز اليقين؛ بحيث لم يكن من السهل اكتشاف الصراط المستقيم أو التيقّن من الحقّ.

أدوات الشيطان المادّية وغير المادّية في الفتنة

ويشير أمير المؤمنينعليه السلام كذلك إلى ما وقع في زمانه من فتن جمّة معتبراً الشيطان عاملاً لها. فهو يقول: «**ألا وإنّ الشيطان قد جمع حزبه واستجلَب خيله ورَجِله**»[2]؛ أي لقد نادى الشيطان بمن تحت إمرته من سلاح الفرسان والمشاة ودعاهم إلى رصّ الصفوف والاصطفاف لمواجهتكم. وهذا تعبير أدبيّ، غير أنّ كلّ استعارة ومَجاز فهو يستند إلى حقيقة. فلابّد من حقيقة تدلّ عليها تلك التشبيهات

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٢؛ «... **وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور والعلَم المأثور و... والناس في فتن انجذَم فيها حبل الدين وتزعزعت سوَاري اليقين ...**».

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٠.

والاستعارات. وما نستشفّه من هذه العبارات هو أنّ الشيطان له جيش منتشر بين الناس يتكوّن من سلاح الفرسان أو الدروع وصنف المشاة. إنّه يمتلك أدوات مادّية وأُخرى غير مادّية؛ فهو يستخدم أُسلوب الحرب العسكريّة والحرب الناعمة أيضاً، أي يتبنّى الأُسلوبين في آن واحد؛ ففي الوقت الذي يُشعل فيه الفتن العسكريّة ويحرّض البشر على التناحر وشهر السلاح بوجه بعضهم البعض فهو يستخدم أيضاً أساليب غير مادّية ويثير الفتن الناعمة وغير المحسوسة.

ففي صدر الإسلام وبعد أقلّ من ثلاثين عاماً على رحيل النبيّ الأعظمﷺ استعرت تلك الفتن على يد الشيطان وبزعامته وقيادته. وقد أنذر أمير المؤمنين عليه السلام الناس بصور شتّى من تلك الفتن أثناء الإشارة إليها. فكان يشتكي من قومه من ناحية، ويتأوّه خوفاً وقلقاً من عواقب أُمورهم من ناحية أُخرى. يقول عليه السلام في هذا الصدد: «**ألا وإنّ الشيطان قد جمع حزبه واستجلب خيله ورَجِله**»؛ فكلمة: «الخيل» تعني صنف سلاح الفرسان من الجيش، و«الرَّجِل» صنف المشاة منه. أي: لقد جمع الشيطان جماعته ودعى كلّ من انضوى تحت لوائه وفي تنظيمه من سلاح الفرسان والمشاة؛ أي سواء مَن كان منهم عسكريّاً مسلّحاً أو مَن جُنّد لحرف الناس عن جادّة الصواب بالوساوس وبثّ الشبهات، فقد احتشد هؤلاء بقضّهم وقضيضهم في مقابلكم.

البصيرة العلويّة في درء فتنة أصحاب الجمل

فلنتصوّر الأجواء في تلك الأيّام فإنّ التأمّل فيها مفيد لما نمرّ به في أيّامنا هذه أيضاً. فبعد أن فارق نبيّنا الأكرمﷺ الدنيا خلَفه من بعده والد إحدى أزواجه وحكَم لبضع سنين حتّى مات. ثمّ تلاه أبو زوج أُخرى من أزواج الرسولﷺ

فأصبح الخليفة الثاني له. وقد بايع أكثر المسلمين ـ ممّن تربّوا لسنوات في كنف النبيّ الأعظمﷺ وقاتلوا بين يديه ـ هذين الرجلين ورضوا بهما خليفتين للنبيّﷺ. ثمّ جاء الدور للخليفة الثالث الذي كان زوجاً لبنتين للنبيّﷺ أو لبنتيه بالتبنّي، وقد جلس لأعوام على مسند الخلافة حتّى بلغ الأمر بالناس أن ثاروا عليه من مختلف البلاد الإسلاميّة وقتلوه. فاحتشد الناس على باب عليّعليه السلام وضغطوا عليه بشدّة لقبول الخلافة. وكان من شدّة ازدحام الناس ـ كما يعبّر هوعليه السلام ـ بحيث كاد الحسن والحسينعليهما السلام ـ اللذان كانا قد بلغا مبلغ الرجال في ذلك الحين ـ أن يوطَئا تحت الأرجل[١]، فكانت النتيجة أن قَبِلعليه السلام بتولّي الحكم. فلم يمض زمن طويل حتّى بدأ اثنان من أقرب المقرّبين إليه (وهما طلحة والزبير اللذان كانا أوّل من بايعه من الناس[٢]) بمعارضته بدعوى أنّه يتّبع أُسلوباً دكتاتوريّاً ولا يتشاور معهما في الأمر، قائلين: لم نبايعك إلّا لنكون شركاءك في الأمر، فنحن أصحاب وجاهة ومكانة في هذا البلد الإسلاميّ. فردّ عليهما الإمامعليه السلام قائلاً: إنّني أعمل بأمر الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّهﷺ، ولا حاجة لي بمشورتكما في طاعة الله ورسوله. فقد بايعني الناسُ على أساس كتاب الله وسنّة رسول اللهﷺ وقلتُ: أقبل بالخلافة بشرط أن أعمل بالقرآن وبسنّة النبيّ فلا تطالباني بشيء آخر. ولقد بايعتماني على هذا الأساس، وإنّني لم أتصرّف بما يخالف كتاب الله وسنّة رسولهﷺ كي تؤاخذاني عليه[٣]. ففي مثل هذه الأجواء يقول الإمام عليّعليه السلام: إنّ الفتنة التي كانت على عهد رسول

---

(١) **«فما راعني إلاّ والناس كعُرْف الضبُع إليّ ينثالون عليّ من كلّ جانب حتّى لقد وُطئ الحسنانعليهما السلام»** (**نهج البلاغة**، الخطبة ٣).

(٢) **«فكان أوّل مَن بايعَني طلحة والزبير»** (**بحار الأنوار**، ج٣٠، ص١٧).

(٣) راجع **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٠٥.

اللهﷺ، حيث كان الناس يعيشون في جاهليّة، قد عادت اليوم ثانية فنسيتم الإسلام. فقد كان هؤلاء يتوقّعون أن تتمّ مشاورتهم واستطلاع آراء الناس. لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام يقول: إنّني لم اخطئ في الأمر بل أنتم الذين أخطأتم، فقد التبس عليكم الحقّ والباطل ولم تعودوا قادرين على التمييز بينهما[1].

والآن وانطلاقاً من هذه الذهنيّة فلنتمعّن في قوله عليه السلام: «**إنّ معي لَبصيرتي ما لَبّستُ على نفسي ولا لُبِّس عَلَيّ**»[2]؛ فلم أتعمّد في جعل الأمر يشتبه عليّ حتّى تخدعني نفسي وما أعلم أنّه باطل تصوّره لي حقّاً، كما أنّه لم يستطع أحد أن يجعل الأمر ملتبساً عليّ أيضاً. فإنّني على بصيرة من أمري؛ أرى ماذا أصنع وأعلم ما الذي ينبغي عليّ فعله.

فأيّ تيّارات كانت قد نشأت على مدى ما يناهز خمسة أعوام من حكم عليّ عليه السلام وأيّ مشاكل واجهها؟ وقد كان من أهمّها واقعة الجمل وحربا صِفّين والنهروان. فقد قالوا لعليّ عليه السلام في واقعة الجمل: نعلم أنّك صهر النبيّﷺ وأنّه كان يحبّك، وندري أنّك رجل صالح وقد خدمت الإسلام، لكنّ الذين يقفون أمامك هم طلحة والزبير وزوج الرسولﷺ. فمن قال إنّك تقول الحقّ؟ فلعلّ الأمر ملتبس عليك! فقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ معي لَبصيرتي**» يحمل مغزىً عميقاً؛ فهو يقصد: أنّكم لستم من أهل البصيرة. وإنّني لا اخطئ، بل أعلم ما أصنع!

دور البصيرة العلويّة في فقء عين الفتنة في حرب النهروان

أمّا في حرب صفّين فقد حصلت فتنة من نوع آخر؛ حيث قد رفع مرتزقة معاوية المصاحف على رؤوس الأسنّة وانتهى الأمر إلى التحكيم. فانبرى نفس

(١) راجع **نهج البلاغة**، الخطبة ١٣٧.

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٠.

أُولئك الذين تتلمذوا على يده عليه السلام وكانت تربطهم معه علاقة لسنوات وشهروا سيوفهم بوجهه قائلين: إمّا أن تقبل بالتحكيم أو نقتلك! إذن فعندما يصرخ عليه السلام قائلاً: «**إنّ معي لَبصيرتي**» فعلينا أن ندرك مقدار ما يعتمل في صدره من الأسى والمرارة. فهو يعني: إنّني أدري ماذا أصنع، والأمر لم يلتبس إلّا عليكم أنتم. فما كان إلّا أن شهر نفس هؤلاء الذين قاتلوا بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام في حرب صفّين ـ شهروا سيوفهم بوجهه، ولم يدعهم عليه السلام حتّى سقى سيفه من دماء أربعة آلاف منهم؛ أي من أُولئك الذين سبق أن كانوا من أنصاره في يوم صفّين! حتّى لقد أُصيب معظم الناس بالدهشة والعجب؛ فهؤلاء كانوا مصلّين صائمين حافظين للقرآن وقد اسودّت جباههم من أثر السجود فكيف يجرؤ عليّ عليه السلام على قتلهم هكذا! فنفس هذا الشخص الذي كان يئنّ من بكاء طفل يتيم، ونفس هذ الرجل الذي قال إثر انتزاع حِجل من ساق امرأة ذمّية: «**فلو أنّ امرَأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به مَلُوماً بل كان به عندي جديراً**»[1]، نفس عليّ عليه السلام هذا يمرّر حدّ سيفه على رقاب أربعة آلاف من المسلمين المصلّين الذين كانوا إلى الأمس يضربون بالسيف نصرة له. فهذا العمل يتطلّب قدرة وبصيرة فائقة، وهذا ما دعى أمير المؤمنين عليه السلام إلى القول: «**فإنّي فقأتُ عين الفتنة ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري**»[2]. فعليّ عليه السلام ليس من أهل المزاح ولا يتحدّث جزافاً. فهو يعني ما يقول: «**لم يكن ليجترئ عليها أحد غيري**». هذه هي الفتنة؛ فقد آل الأمر بأقرب الناس إليه عليه السلام وأكثرهم فطنة إلى الإخفاق في هذا المضمار. إذ لابدّ

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٧.

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة ٩٣.

أن يكون هناك مثل عليّ عليه السلام وهو مؤيَّد من الله كي يعرف كيف يتعامل مع هذه المواقف وكيف يفقأ عين الفتنة؛ وإلّا فلو كان هذا التيّار الفكريّ قد استمرّ فمن غير المعلوم أن نكون اليوم نعرف شيئاً عن الإسلام. ولو حكم الخوارج لكانوا قد ضربوا عليّاً عليه السلام على هامته قبل التاسع عشر من رمضان من ذلك العام ولا ندري أيّ شيء كان سيبقى من الإسلام بعد ذلك؟! وما الذي كان سيترك هؤلاء من أثر للإسلام يا ترى وهم لم يكونوا ليحكموا الأُمّة إلّا بما يمليه عليهم فكرهم وذوقهم وذهنيّتهم؟! إذن لقد عمل أمير المؤمنين عليه السلام على قمع هؤلاء واجتثاث أُصولهم كي يستقرّ الإسلام في مسيره السليم. وبالطبع فإنّ هذا الامتحان مستمرّ وسيُخفق فيه أُناس آخرون أيضاً، أمّا هؤلاء فقد كانوا يشكّلون أكبر عقبة لتقدّم الإسلام وأيسر سبيل لإغواء الآخرين وخداعهم. إذ لو كان المخالف كافراً أو منافقاً لما كانت معارضته أمراً صعباً ولما انخدع به الجميع. أمّا هؤلاء فقد أغووا الناس بآثار السجود في جباههم، وحفظهم للقرآن، وتهجّدهم في جوف الليل، ومناجاتهم، وعباداتهم. بل إنّهم أنفسهم لم يكونوا يدركون ما يصنعون. ومع أنّ الحكم لله عزّ وجلّ وهو الذي سيتولّى حساب الجميع يوم القيامة، بيد أنّ ظواهر الأُمور توحي بأنّ أغلب هؤلاء كانوا قد انخدعوا بزعمائهم ـ ممّن لم يكونوا سوى حفنة من الشياطين ـ وانزلقوا في مهاوي الجهالة.

الفصل الثاني

عوامل الفتنة ودوافعها وأهدافها

العوامل الموجدة للفتنة

الأوّل: الله سبحانه وتعالى: تحدّثنا في الفصل السابق بالتفصيل عن الفتن والامتحانات الإلهيّة، وقد توضّح لدينا أنّ من العوامل الموجدة للفتن هو الله عزّ وجلّ. وسنستعرض هنا على عجالة نماذج أُخرى من الفتن الإلهيّة التي يذكرها القرآن الكريم.

يقول عزّ من قائل بخصوص ناقة ثمود: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً﴾[1]. فعندما طالب قوم ثمود نبيّهم صالحاً عليه السلام أن يُخرج لهم من جوف الجبل ناقة قال الله تعالى: لقد أنجزنا هذا العمل وأخرجنا الناقة؛ لكنّنا لم نفعل ذلك إلّا من باب الفتنة والاختبار لهم لنرى إن كانوا سيؤمنون حقّاً أم سيصرّون على لجاجتهم وعنادهم. وفي قصّة موسى عليه السلام عندما ذهب بصحبة سبعين رجلاً من قومه إلى جبل طور ثمّ هلكوا، قال عليه السلام مخاطباً ربّه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾[2]؛ فإنّ إهلاكك لهم هو امتحان منك. ففي موارد من هذا القبيل، وغيرها كثير، يقول الباري سبحانه: لقد جعلنا ذلك فتنة، أو: جعلنا الشيء الكذائيّ فتنة، سواء أكان لها طابع خاصّ أم كان لها صبغة الابتلاء العامّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا

---

(١) سورة القمر، الآية ٢٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾[1]. وقد استُعملت هنا كلمات من قبيل: «البلاء» و«الابتلاء» التي هي من مرادفات «الفتنة». فقد يجعل الله تعالى نعمة من النعم وسيلة للامتحان والفتنة؛ كما جاء في سورة «الجنّ»: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[2]؛ أي إنّنا سنمنّ على الذين يؤمنون ويستقيمون ويثبتون على سبيل الخير بماء سائغ زلال ليكون نفس هذا الماء سبباً لامتحانهم.

الثاني: الشيطان: تُنسب الفتنة في بعض الأحيان إلى الشيطان؛ نحو قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾[3]. إذن الفاتن هنا هو الشيطان.

الثالث: الإنسان: كما تُنسب الفتنة في موارد أُخرى إلى الإنسان. وقد وردت في هذا الباب آية في سورة «العنكبوت» وأُخرى في سورة «الحجّ». فقد جاء في سورة «الحجّ» قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾[4]. كما يقول تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[5]؛ أي إنّ من الناس من إذا أُوذي وواجه بعض الصعوبات أو قوبل بالعداوة من الآخرين فإنّه يحسب ذلك بمثابة العذاب الإلهيّ؛ أي يشقّ عليه كثيراً تحمّله ويستسلم له بالكامل. وهنا قد نُسبت الفتنة إلى الناس. وعلى الرغم من أنّ الفتنة في مواطن أُخرى

---

(١) سورة الكهف، الآية ٧.

(٢) سورة الجنّ، الآيتان ١٦ و ١٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

(٤) سورة الحجّ، الآية ١١.

(٥) سورة العنكبوت، الآية ١٠.

كثيرة لا تُسند إلى الناس بصراحة غير أنّ إسنادها إليهم يكون واضحاً فيها؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(١). فمن الواضح أنّ الفتنة التي تكون أسوأ من القتل وذنبها أكبر ومعصيتها أشدّ هي تلك التي مصدرها الناس وإنّ مثل هذه الفتن تكون أكبر وأشدّ من القتل الذي يمارسه الناس.

إسناد جميع الفتن في الرؤية التوحيديّة القرآنيّة إلى الله

لقد ذكرنا أنّ عوامل الفتنة ثلاثة: الله عزّ وجلّ، والشيطان، والناس. لكنّ السؤال هو: هل هناك اختلاف بين تلك الموارد؟ وبعبارة أُخرى: هل إنّ الفتنة في الحالات التي تُنسب فيها إلى الناس لا تُسنَد إلى الله أو إلى الشيطان، أم إنّ الأمر مختلف؟

ما نفهمه من تعاليم القرآن الكريم هو أنّ الله تعالى يسعى ـ من خلال أُسلوب تربويّ معيّن ـ لإسناد كلّ حوادث العالم وظواهره إلى نفسه. فهو ينسب لنفسه حتّى هبوب الرياح وهطول المطر ونموّ النباتات، فيقول على سبيل المثال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ﴾(٢)، ويقول في السحاب: ﴿فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾(٣) جافّ لا زرع فيه ولا ماء. والله جلّ وعلا يقول: «نحن ننزل الماء»(٤)، و«نحن ننبت الزرع»(٥)، و«نحن نرزقكم»(٦). ويُصطلَح على هذه الطريقة في التعليم باسم «التوحيد

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩١.

(٢) سورة الحجر، الآية ٢٢.

(٣) سورة فاطر، الآية ٩.

(٤) ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ (سورة الواقعة، الآية ٦٩).

(٥) ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ (سورة الواقعة، الآية ٦٤).

(٦) ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (سورة فاطر، الآية ٣).

الأفعاليّ». بمعنى أنّ الله عزّ وجلّ يريد أن يلفت انتباه عباده من خلال هذه التعليمات إلى أنّ رؤوس خيوط جميع الأُمور هي بيده سبحانه. فصحيح أنّ هناك آلاف الوسائط لكن لا ينبغي أن ننسى نسبة هذه الوسائط إلى الموجِد الأصليّ، بل إنّ أصل الفعل هو منه تعالى، أمّا الوسائل الأُخرى فهي تقوم بدور الوسائط والمجرَى لفعله. وحتّى عندما يسهم في الأمر فاعلون ذوو إرادة آخرون فإنّ الله ينسبه إلى نفسه في مرتبة أعلى. فهذا الأُسلوب يشاهَد في القرآن الكريم وقد كان من ثقافة مسلمي صدر الإسلام. وهو شائع اليوم أيضاً ـ إلى حدٍّ مّا ـ بين المتديّنين. فمثلاً عندما يتوجّه فريقان رياضيّان إلى ساحة التباري يقول اللاعبون: نحن فائزون بإذن الله، أو: نحن منتصرون بعون الله. وهذا شعاع من المعرفة التي يريد القرآن الكريم أن ينشرها بين المسلمين ليربّيهم على الالتفات إلى الله في جميع أُمورهم. وهذا الكلام بالطبع لا ينفي دور الوسائط ولا يلغيه تماماً؛ لكنّه يلفت انتباهنا أكثر إلى المسبّب الأصليّ. وقد قيل مراراً وذكرت التفاسير وكتب الكلام والعرفان وجاء في مواطن متعدّدة من القرآن الكريم أنّ الأمر أحياناً ينسب إلى عدّة فاعلين؛ فيسنَد إلى الله في مرحلة معيّنة، وإلى الملائكة في مرحلة أُخرى، وإلى أشخاص آخرين في مرحلة ثالثة. فثمّة آية تقول: إنّ الذي يقبض روح الإنسان عند الموت هو الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾(١). وهناك آية أُخرى تقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾(٢)؛ أي عزرائيل. لكنّ آية ثالثة تقول: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾(٣)، والمقصود بالرسل هنا هم الملائكة الذين يكونون تحت

(١) **سورة الزمر**، الآية ٤٢.

(٢) **سورة السجدة**، الآية ١١.

(٣) **سورة الأنعام**، الآية ٦١.

إمرة المَلَك عزرائيل. إذن ففي مرحلة من المراحل يُسند أمر الموت إلى الرسل والقائمين بشكل مباشر على عمليّة قبض الأرواح، وفي مرحلة أُخرى فإنّه يُسند إلى ملك الموت، وفي المرحلة النهائيّة فهو يُنسب إلى الله عزّ وجلّ. وكلّ هذه الإسنادات الثلاثة صحيحة؛ ذلك أنّ ملَك الموت إنّما يقوم بمهمّته بتفويض من الله تعالى، وأنّ الرسل لا يقومون بذلك إلّا بإذن ملَك الموت وأمره.

فاعل الشرور

يقوم النهج التربويّ الذي ينتهجه القرآن عادة بإسناد الشرور إلى نفس الإنسان أو إلى موجودات أُخرى أو إلى الشيطان؛ نحو قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[1]، أو قوله حكايةً عن قول أيّوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[2]؛ أي إنّ الشيطان هو الذي سبّب لي كلّ هذه البلايا. هذا على الرغم من أنّ للشرور حيثيّتين، وأنّ حيثيّة شرّيّتها تعود ـ وفقاً للتحليل الفلسفيّ ـ إلى العدميّات، لكنّ مصطلح الشرّ ـ على أيّة حال ـ يطلَق على نفس الحادثة الوجوديّة والقرآن الكريم لم ينف استناده إلى الله تعالى؛ كما في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[3]. لكنّ القرآن يؤدّب البشر بأن ينسبوا الشرور دائماً إلى أنفسهم. وقد صرّحت آية بهذا المعنى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[4].

---

(١) **سورة الأنفال**، الآية ٤٨.

(٢) **سورة ص**، الآية ٤١.

(٣) **سورة النساء**، الآية ٧٨.

(٤) **سورة النساء**، الآية ٧٩.

وهذا أُسلوب تربويّ يستخدمه القرآن من أجل أن يراعي العباد أدب العبوديّة فلا ينسبوا الشرور إلى الله تعالى. فإبراهيم الخليل عليه السلام عندما أراد أن يعرّف اللهَ جلّ وعلا للنمرود قال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(١). فهو لم ينسب المرض إلى الله بقوله: إنّه يبتليني بالمرض. وهذه التفاتة تربويّة تعلّم الإنسان ـ في مقام العبوديّة وفي مقابل ربّه ـ أن لا يرى الشرور إلّا من نفسه.

أمّا كلمة: «الفتنة» فعلى الرغم من أنّها تُستعمل في الخيرات أيضاً، لكنّ استخدامها يكون غالباً في الشرور والأُمور السيّئة. إذن فليس من العسير إسناد فتن الخير إلى الله، لكن بما أنّ أكثر موارد الفتنة تشتمل على وجوه من الإبهام والاضطراب والنزاع والابتلاء فإنّها تنسب إلى غير الله. لكنّه استناداً إلى الرؤية التوحيديّة فإنّ جميع تلك الموارد تُنسب إلى الله تعالى، أمّا إسناد الباري عزّ وجلّ الفتنة إلى الإنسان في بعض المواطن فهو للإلفات إلى دور الإنسان في خلق الفتنة ومسؤوليّته تجاهها. كما أنّ إسناد الفتنة إلى الشيطان في مثل هذه المواطن لا ينتفي أيضاً؛ كإسناد الخداع إلى الشيطان في الكثير من الذنوب التي يقترفها الإنسان؛ كما في الآية الشريفة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾(٢). ومن الملفت أنّ الآية تنسب إخراج آدم وحواء عليهما السلام من الجنّة إلى الشيطان؛ وهو ما يعني أنّ وساوسه كانت هي الباعث على خروجهما من الجنّة. إذن فبإمكاننا إسناد الفعل إلى أيّ عامل بمقدار ما للأخير من دخل وتأثير فيه، ولمّا كان الذنب يُرتكب ـ غالباً ـ نتيجة لوسواس الشيطان فإنّ من الممكن

---

(١) **سورة الشعراء**، الآيتان ٧٩ و ٨٠.

(٢) **سورة الأعراف**، الآية ٢٧.

إسناده إليه؛ لأنّ وسواسه كان له الأثر في صدور الفعل. لكنّ هذا لا يعني أنّنا غير مقصّرين في اقتراف المعصية، فمقدار ما لنا وما للشيطان من درو في المعصية هو مبحث تناولته نفس الآيات القرآنيّة. فالقرآن الكريم يقول: ليس للشيطان سلطة على أحد؛ فهو لا يستطيع إكراهه على المعصيّة، اللهمّ إلّا أن يجعل المرء نفسه تحت تصرّف الشيطان؛ أي أن يسلّم زمام أُموره بيده، وفي هذه الحالة سيمتطيه الشيطان ويوجّهه حيث يشاء: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[١]؛ بمعنى أنّ تسلّطه يكون على الذين قبلوا بولايته؛ وبتعبير أبسط: على الذين وضعوا نير العبوديّة له في أعناقهم وفوّضوا إليه كلّ أُمورهم؛ وبعبارة أكثر بساطة: الذين سلّموه عنانهم. فكما يمسك الراكب بعنان الدابّة، فإنّ الشيطان يركبهم ويمسك بعنانهم. ثمّ إنّ الشيطان لا يمتطيهم عنوة، بل إنّهم في بداية الأمر يستسلمون للشيطان وينقادون إليه طواعية. ومن هنا فإنّ جميع الفتن المؤدّية إلى ضلال الإنسان وفشله في الاختبار يمكن إسنادها إلى الشيطان أيضاً؛ من حيث إنّ الشيطان يساعد الإنسان على اختيار الطريق المعوجّة وتغليب أهوائه النفسانيّة وإرضاء غرائزه الحيوانيّة وتعطيل عقله وعدم التفكير بعاقبة ذنبه. إذن فمن حيث إنّ الشيطان يعين على اقتراف الخطيئة فإنّها تنسب إليه أيضاً.

انطلاقاً من الرؤية التوحيديّة فإنّ هذا العالم بأسره منسوب إلى الله عزّ وجلّ؛ هذا العالم الذي يشمل الإنسان؛ بغرائزه وفطرته الإلهيّة وما أُعطي من عقل، والعوامل التي تدعو الإنسان إلى الخير؛ كالأنبياء، وتلك التي تحرّضه على الشرّ؛

---

(١) **سورة النحل**، الآية ١٠٠.

كشياطين الإنس والجنّ. هذه المنظومة بأجمعها إنّما أُوجدت من قبل الله تعالى، ومن هذا المنطلق فإنّ من الممكن ـ في مرتبة أعلى وعبر الرؤية التوحيديّة ـ إسنادها إلى الله. فالله جلّ وعلا هو الذي يختبر الإنسان وهو الذي يوفّر له وسائل النجاح أو الفشل في هذا الاختبار: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[1]. بناءً على ذلك فحتّى الإضلال فإنّه يُنسَب إلى الله تعالى؛ لأنّ الشيطان هو وسيلة الإضلال، وأنّ الله سبحانه هو خالق الشيطان وهو الذي منحه القدرة على الإضلال. إذن فكلّ هذه الإسنادات صحيحة ولا ينفي أيٌّ منها الآخر[2].

المطروح في هذا الباب بالدرجة الأُولى هو الفتن الاجتماعيّة التي يمثّل البشر العامل المباشر لها. لكنّ ذلك لا يعفي الشيطان من الضلوع فيها؛ لأنّ للشيطان دوراً في كلّ ذنب وسلوك خاطئ، حتّى وإن كان دوره يقتصر على التقوية والتزيين. إذ بوسعنا الادّعاء بأنّ دور الشيطان الأساسيّ هو إظهار الذنب بمظهر حسن للإنسان فيتخيّل الأخير أنّ العمل الذي يُقدِم عليه هو أكثر لذّة ممّا هو عليه فعلاً: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[3]. وانطلاقاً من هذه الحقيقة فإنّ للشيطان أيضاً دوراً في المعصية لكنّ الدور الأساسيّ هو من نصيب الإنسان فهو الذي سيؤاخَذ عليه وهو من ينبغي أن يتحمّل المسؤوليّة تجاه ما اقترفه. فصحيح أنّ الشيطان ينهض بدور خداع المرء وإغوائه لكنّ دوره ليس ممّا يسلب الإنسانَ اختياره ويجرّده من المسؤوليّة. فالله جلّت آلاؤه يقول: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن

---

(١) **سورة الأعراف**، الآية ١٥٥.

(٢) في الموارد التي يكون فيها الفاعل الإنسانيّ ذا أثر في إيجاد الفتنة تُطرح بحوث تفسيريّة وأخلاقيّة من المناسب جدّاً أن نتطرّق إليها في محالّها.

(٣) **سورة الأنفال**، الآية ٤٨.

سُلۡطَٰنٍ﴾[1]. وهكذا يصوّر القرآن الكريم لنا قصّة نزاع أهل النار وجدالهم فيما بينهم عندما يستقرّون جميعاً فيها حيث يبدأون بتقاذف التهم وينبري كلّ واحد منهم بتحميل الآخر ما جناه من ذنب، حتّى يقول المستضعفون للمستكبرين: أنتم الذين دللتمونا على هذا: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾[2]. وبعد أن يبرّئ المستكبرون أنفسهم من هذه التهمة يلتفت الجميع إلى الشيطان قائلين: أنت الذي أضللتنا! فيجيبهم الشيطان: ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾[3]؛ أي: لم تكن لي سلطة عليكم، ولم أفعل شيئاً سوى أنّني كنت أعدكم ثمّ أخلفتكم الوعد. إذن فوساوس الشيطان وإغواءاته وتزييناته لن تكون أبداً سبباً في إعفائنا وتبرئتنا؛ فعندما يكون للعامل البشريّ دور في القضيّة يكون المسؤول والمتّهم الرئيسيّ فيها هو الإنسان المقترف لهذا الأمر حتّى وإن كان للعوامل الأُخرى دخل فيه.

كون الإنسان مكلّفاً تجاه الفتنة

كلّ ما يقع من أُمور وما يحدث من أحداث في الفتن التي هي من صنع البشر (والتي تعود في نهاية المطاف إلى الامتحان الإلهيّ) فإنّ الآخرين مكلّفون وعليهم واجبات تجاهها. فيتعيّن عليهم أوّلاً أن يصونوا أنفسهم من الانخراط في الفتنة؛ أي من أكلهم للطعم وصيرورتهم من عوامل تلك الفتنة. وثانياً أن يسعوا في اتّجاه إخماد الفتنة وإنقاذ الضالّين في غمارها. فهذا هو المراد من الامتحان، وهو أنّ الفتنة

(١) **سورة سبأ**، الآية ٢١.

(٢) **سورة إبراهيم**، الآية ٢١.

(٣) **سورة إبراهيم**، الآية ٢٢.

تلقي على عاتق الإنسان واجباً يتحتّم عليه أداؤه. كما أنّ الأحداث البشريّة، التي هي مصاديق للفتن الإلهيّة، تُعدّ ـ طبقاً لمعنىً من المعاني ـ فتنة شيطانيّة أيضاً؛ لأنّ الشيطان هنا يلعب دور الوساطة في الإغواء والوسوسة.

إنّ ما يدعو إلى الفتنة في بعض المواطن هي الأُمور التي تكون سبباً في زرع العداوة والبغضاء بين المؤمنين؛ ذلك أنّ الفتنة تشمل النزاعات والخصومات والعداوات والأحقاد والضغائن التي قد تسوق المرء إلى ارتكاب الآثام وتجرّه في النهاية إلى الكفر والشرك. فكلّ هذه المسائل هي من مصاديق الفتنة وإنّ لها مراتبَ ودرجاتٍ؛ فالفتنة التي تؤدّي إلى نشوب العداوات بين المؤمنين هي مرتبة من مراتب الفتنة. وإنّ ابتلاء البعض بذنوب من قبيل الحقد على المؤمنين والتحامل عليهم بالضغينة وسوء الظنّ والعدواة هي شكل من أشكال الفتنة التي تؤدّي ـ جرّاء حالة الخلاف والمواجهة ـ إلى الإضرار بما يتمتّع به البعض من عزّة في هذه الدنيا. وهذا بحدّ ذاته هو امتحان يتبيّن من خلاله ما إذا كان المؤمنون سينهضون بواجبهم كما ينبغي أم لا؟

دور المال والمنصب والشهوة في خلق الفتنة

قد لا ترتبط وسيلة الامتحان في بعض موارد الأفعال البشريّة بالدين بشكل مباشر، بل قد يكون منشأ الفتنة أمراً دنيويّاً، كما يحصل في جلّ الخلافات التي تنشب بين البشر والتي تقع ضمن ثلاثة محاور أساسيّة هي المال والمنصب والشهوة. فلو تقصّينا جذور وأسباب معظم البلايا والحروب والمجازر والفتن التي وقعت في مختلف أنحاء العالم وحواضره وقُراه على مرّ التاريخ وبحثنا عن عللها بعمق لاكتشفنا أنّ مُشعلي هذه الفتن كانوا إمّا في صدد التصرّف بأموال

الآخرين، أو الحصول على المناصب والسيادة على الآخرين، أو إشباع غرائزهم الجنسيّة؛ فكثير من الحروب الضخمة قد اشتعلت جرّاء تنافس على علاقات جنسيّة. وإنّ الجامع لهذه المحاور الثلاثة هو حبّ الدنيا. أمّا الوسيلة المباشرة للفتنة والاختبار فهو إمّا المال أو الجاه أو الشهوة. أمّا اندراج هذه الأُمور ضمن نطاق الامتحان الإلهيّ فهو من ناحية أنّ الأمر والنهي الإلهيّين يتعلّقان بمواردها وأنّ نتائجهما تكون سبباً لنيل الثواب أو التورّط بالعقاب في الآخرة.

إذن فموضوع الامتحان ابتداءً هو المسائل الدنيويّة. ولا يقتصر الأمر في هذا الباب على قضيّة رغبة المرء في امتلاك المال الكذائيّ والتصرّف به، أو حبّ الترؤّس على الآخرين ووجوب طاعة الآخرين له. فهذا الدافع يشتمل على طيف عريض وواسع من مراتب حبّ الجاه والمقام. فلا ينحصر المقام في حبّ المرء للسلطة ومنازعة الآخرين على سلطانهم. فهناك مراتب أبسط لذلك يمكن مشاهدتها في المجتمعات الصغيرة؛ كأن يحبّ شخص في قرية لا تتكوّن إلّا من خمس أو عشر أُسر أن يكون سيّد القرية، أو أن ينبري أحد الأطفال في عائلة مكوّنة من سبعة أو ثمانية أفراد إلى القول: كلمتي هي النافذة وعلى الآخرين أن يسمعوا قولي. فحبّ الجاه والاستعلاء يبدأ من هنا حتّى يصل إلى حدّ القول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1]. فالامتحان الإلهيّ هو في النهاية من أجل اختبار المرء هل سيتصرّف، في ظروف كهذه، بما يرضي الله أم لا؟ ومن أجل تحقّق هذا الامتحان فلابدّ من توفّر مقدّمات وأسباب تضع كلّ إنسان في ظرف يواجه فيه مثل هذه التكاليف.

---

(١) سورة النازعات، الآية ٢٤.

الشؤون الدينيّة أدوات للفتن الاجتماعيّة

إنّ جانباً من الامتحانات والفتن الاجتماعيّة والبشريّة تشكّلها أُمور ترتبط ارتباطاً مباشراً بالدين، وإنّ الذي يكون موضوع الخلاف وأداة الفتنة فيها أساساً هو الدين نفسه. والمثال على ذلك ما نشهده اليوم من خلاف بين أتباع المذهبين الإسلاميّين؛ حيث يدّعي أتباع كلّ مذهب أحقّية مذهبهم. فالكلام هنا لا يدور حول من سيكون الرئيس، هذا وإن كان الشيطان في النهاية سيخلط جميع تلك الأُمور مع بعضها. فالقضيّة تبدأ من السؤال التالي: هل هذا المذهب هو الحقّ أم ذاك؟ ففي عالم اليوم هناك من يعتقد أنّ أتباع المذهب المخالف لمذهبه هم مشركون ودماؤهم مباحة وإنّ قتلهم يُدخله الجنّة. فهذا هو شكل من أشكال الفتنة وهي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالدين. وهي فتنة مهلكة وشديدة الخطورة ولا يُعذر أيّ امرئ ينخرط فيها أو يُعِين عليها. هذه الفتنة هي أسوأ من القتل؛ فأنْ يُقتل المرء خير له من أن يضلّ ويُسلب دينه؛ فالمقتول لا يُسلب إلّا أيّاماً معدودة من عمر هذه الدنيا وقد يدخل الجنّة وتُغفر له ذنوبه. لكنّه عندما يُسلب منه دينه فإنّه سيُسلب سعادة أبديّة وهذا لعمري أشدّ من القتل. وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بتعبيرين؛ أحدهما: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(١)، والآخر: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(٢). وقد جاء في آية أُخرى ما نصّه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩١.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٣٩.

فهذا النمط من الفتن هو من أشدّها، والفتنة فيه بيّنة للغاية ومرتبطة بسعادة المرء وشقائه بشكل مباشر ولا يُعذر فيها امرؤ أبداً. بمعنى أنّ دعائم الدين الحقّ هي على جانب من الوضوح بحيث إنّ المُنكِر لأصل الدين أو لأمر ضروريّ من ضروريّاته فإنّه لن يُقبَل منه؛ اللهمّ إلّا أن يكون في وضع يقصُر فيه عن إدراك الحقيقة؛ كأن يكون فاقداً للعقل أو أنّه لم يسمع محتوى الوحي أو أن يُحاط بجوّ خاصّ أو حالة معيّنة لا يحتمل معها بأيّ خلاف في مذهبه؛ وإلّا فإنّ الوقوع في أشراك فتنة الدين لمن يعيش في مجتمع متحضّر يعادل الشرك والكفر. ومن هذا المنطلق فقد ذهبت معظم الروايات وكتب التفسير إلى تفسير كلمة «الفتنة» في القرآن الكريم بالشرك والكفر، وهي فتنة لا يُعذر أيّ امرئ يخوض فيها؛ ولذا فهي أخطر ألوان الفتن.

إنّ الفتن العظيمة تسبقها في العادة مقدّمات جمّة، فلابدّ لكلّ واحدة من هذه الفتن من أسباب ومقدّمات كثيرة من أجل التمهيد لأرضيّة فتنة عامّة وشاملة. وقد ينخدع في أيّ من تلك المراحل أُناس ويقعون في أشراك الفتنة من دون أن يحملوا سوء قصد أو نيّة سيّئة. كما ويقوم الشيطان أيضاً بدوره في الإعداد لأسباب تسوق آخرين إلى الافتتان والضلال فلا يشخّصون سبيل الحقّ، فإنّ أعظم أُمنية للشيطان هي إضلال أكبر عدد ممكن من البشر.

مَن هو فاعل الفتنة؟

لقد أسلفنا القول بأنّ القرآن الكريم ينسب فعل الفتنة وإيجادها أحياناً إلى الله تعالى كما في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[1]، أو قوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً﴾[2]،

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.

(٢) سورة القمر، الآية ٢٧.

أو قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[1]. كما وتشير آيات أُخرى أيضاً إلى أنّ الفاعل للفتنة هو الشيطان؛ نحو: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[2]. أمّا الكثير من غيرها من الآيات فإنّها تسند الفتنة إلى الناس. بل إنّ القرآن في مورد من الموارد ينسب الفتنة إلى الأشخاص أنفسهم قائلاً: لقد كنتم سبباً لفتنة أنفسكم. فعندما يقصّ لنا القرآن الكريم الحوار الذي يدور بين المنافقين والمؤمنين في يوم القيامة يقول: يشاهد المنافقون يوم القيامة أنّ المؤمنين يعبرون الصراط بكلّ يُسر وسهولة لِما أُوتوا من نور بينما يقبع المنافقون في ظلام دامس لا يشاهدون معه حتّى ما بين أرجلهم ولا يدرون إلى أين يذهبون: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[3]. ولمّا كان أكثر هؤلاء المؤمنين هم من أصدقاء المنافقين وجيرانهم ومعارفهم يوجّه المنافقون الخطاب لهم: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[4]؛ أي: انظروا إلينا كي يشرق نوركم علينا أيضاً فنستضيء به. ثمّ يخاطبونهم: ألم نكن في الدنيا سويّة؟ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾[5]، فيجيب المؤمنون: نعم لقد كنتم في الظاهر معنا: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[6]. فهذه الآية تنسب الفتنة إلى الناس أنفسهم قائلة: أنتم الذين فتنتم أنفسكم بأنفسكم.

---

(١) **سورة طه**، الآية ١٣١؛ **وسورة الجنّ**، الآية ١٧.

(٢) **سورة الأعراف**، الآية ٢٧.

(٣) **سورة الحديد**، الآية ١٢.

(٤) **سورة الحديد**، الآية ١٣.

(٥) **سورة الحديد**، الآية ١٤.

(٦) **سورة الحديد**، الآية ١٤.

إسناد ما يبدو أنّه مصادفة إلى الله تعالى

على أيّة حال فإنّ الفتنة لم تُطرح في القرآن الكريم باعتبارها أمراً وقع صدفة أو أنّ لها فاعلاً جبريّاً أو طبيعيّاً. وهذا الشيء لا ينطبق على القرآن فحسب بل على نهج البلاغة والأحاديث الأُخرى أيضاً، إذ لم يرد فيها مثل ذلك. إذن يتعيّن الالتفات إلى أنّ معظم الأُمور التي نعتبر نحن وقوعها من باب الصدفة ولا نرى أنّ المؤثّر فيها هو عامل إراديّ فإنّ الله تعالى ينسبها إلى نفسه، ويعدّها منضوية تحت إرادته. فالله عزّ وجلّ يسند هبوب الرياح، وهطول الأمطار، وإنبات النباتات ونموّها وإثمارها ـ يسندها جميعاً إلى نفسه. فالكثير من الأُمور التي يبدو حدوثها لنا مصادَفة فإنّها ـ وفقاً للرؤية القرآنيّة ـ تُسند إلى الله. وبشكل عامّ فإنّه ما من شيء هو خارج عن إرادة الله وإذنه ومشيئته، وما من أحد في مملكة الباري تعالى يتصرّف تصرّفاً من دون إذنه. بل إنّه عزّ وجلّ لا ينفي عن نفسه حتّى ما يحدث في العالم من فتن تُرتكب فيها المجازر ويسود فيها البغي. بل والأدهى من ذلك، فإنّ من الممكن أيضاً إسناد أعمال الشيطان إليه جلّ وعلا؛ ذلك أنّ الله هو الذي خلق الشيطان وهو الذي أجاز له إغواء الآخرين. وهذا جانب من التدابير المسيطرة على نظام الكون. فليس الأمر أنّ الشيطان قد وُجد من دون إرادة الله جلّ شأنه، أو هو قادر على التصرّف بهذا العالم من دون إذنه تعالى. فوجود الشيطان ـ حاله حال وجود الملائكة والأنبياء والعقل ـ هو وسيلة لتوفير أرضيّة للاختيار.

سرّ الفتن الإلهيّة

إذن فالفاعل للفتنة كائناً من كان (الله أم الشيطان أم الإنسان) هو فاعل إراديّ. لكنّ السؤال المطروح هنا هو: لماذا يمارس الفاعل الإراديّ الفتنة؟ إذ أنّ

كلّ فاعل إراديّ فهو يفعل ما يفعله لهدف معيّن. فخلافاً للأُمور الطبيعيّة التي ليس لها هدف إراديّ (هذا وإن كان لها غاية بشكل من الأشكال) فإنّ الفاعل الذي يتمتّع بالشعور والإرادة، والذي يمارس ما يمارسه عن إرادة، فلا ريب أنّه يهدف لشيءٍ مّا. وبناءً عليه فلابدّ من التساؤل: لماذا يُحدِث الله الفتن في الكون؟ ولماذا يسمح للشيطان بممارسة الفتنة؟ ولماذا يجيز لشياطين الإنس وأولياء الشيطان وأنصاره من الناس زرعَ الفتنة؟

لقد ذكرنا سلفاً أنّ الهدف من هذه الإجازة هو اختبار الناس وتهيئة الأرضيّة لمثل هذا الاختبار. فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي يمارس أفعاله باختيار كامل، ومن أجل توفير أرضيّة الاختيار فلابدّ من وجود عاملين، أو اتّجاهين مختلفين، أو قوّتي استقطاب من اليمين ومن اليسار؛ إحداهما تجرّه بهذا الاتّجاه والأُخرى بالاتّجاه المعاكس. فالإنسان يقف على نقطة الصفر حتّى يقرّر ما الذي يريده، وأيّ وجهة سيرجّح على الأُخرى. فما لم يتوفّر عاملان من اتّجاهين على الأقلّ (إذ قد يكون هناك عوامل متعدّدة من اتّجاهات مختلفة) فلن تتهيّأ أرضيّة الاختيار الحرّ بشكل كامل. إذن فمن الضروريّ أن يكون هناك العقل، وإرشادات الأنبياء عليهم السلام، وأيادي الملائكة في جانب؛ فالملائكة باستمرار في حالة دعاء وطلب الرحمة للمؤمنين، فقد ورد في صفات حَمَلة العرش ما نصّه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾(١). كما لابدّ أن يكون في مقابل ذلك عامل آخر للمحافظة على التوازن وتوفير البيئة للاختيار والانتخاب كي يتمكّن الإنسان من شقّ طريقه

---

(١) سورة غافر، الآية ٧.

إمّا باتّجاه الملائكة أو نحو الشياطين. ومن هذا المنطلق فالامتحان هو توفير أرضيّات معيّنة يواجه الإنسان فيها مفترق طرق ولابدّ أن يختار أحدها.

إذن فالله عزّ وجلّ إنّما يوجِد الفتنة لامتحان الناس؛ فهو قد انتهج هذا النهج منذ الأزل، وسينتهجه إلى الأبد: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾[1]. أمّا قولنا: لماذا يجيز الله للآخرين خلق الفتن؟ فإنّه للسبب نفسه؛ ألا وهو امتحان البشر.

سرّ ممارسة الشيطان للفتنة

وبغضّ النظر عن هذا التدبير الإلهيّ العامّ الذي يُعدّ بمثابة السنّة المهيمنة على خلقة الإنسان وحياته في هذه الدنيا، فإنّه يُطرح السؤال التالي بخصوص الفتن التي تُنسب إلى الشيطان وهو: لماذا يمارس الشيطان الفتنة؟

من وجهة نظر القرآن الكريم فإنّ الشيطان هو موجود ذو شعور ومكلّف وقد عبد الله لسنوات طويلة. وهو نفسه قد امتُحن بالسجود لآدم عليه السلام، لكنّه بعد أن تمرّد على أمر الله وفشل في الامتحان أصبح الآن عاملاً لفتنة الآخرين: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[2]. وقد أمهله الله تعالى من أجل أن يمهّد الأرضيّات لإضلال الآخرين في هذا العالم. فالشيطان يقف في الجانب المعاكس لعوامل الهداية المتمثّلة بالعقل والأنبياء وإمدادات الملائكة. وكما أنّه كان للأنبياء عليهم السلام أوصياء وأعوان وتلامذة تتلمذوا على أيديهم وأخذوا على عواتقهم تقديم المعونة لهم في إكمال مسيرة الأنبياء، فإنّ الشيطان أيضاً يستعين بتلامذته وأعوانه. فالقرآن يحدّثنا عن شياطين الإنس؛

---

(١) **سورة العنكبوت**، الآية ٢.

(٢) **سورة الحجر**، الآية ٣٩؛ **وسورة ص**، الآية ٨٢.

الذين ـ وإن كانوا من الناس ـ لكنّهم عندما يصبحون من أعوان إبليس وحاشيته فإنّهم يمسون شياطين أيضاً ويعملون على إغواء الآخرين.

فالسرّ وراء لجوء الشيطان إلى الإغواء واضح؛ ذلك أنّه لم يسجد لنبيّ الله آدم عليه السلام جرّاء ما انطوت عليه نفسه من تكبّر وتعجرف؛ لأنّ التراب ـ كما يدّعي ـ أخسّ من النار. ففي إثر تمرّده على السجود لآدم طُرد إبليس من حضرة الباري المتعال، فبيّت نيّة الانتقام من ولد آدم عليه السلام وإضلالهم أجمعين. فهذه الرؤية مذكورة في القرآن الكريم وهي جليّة إلى حدّ كبير.

السرّ في ممارسة الإنسان للفتنة

والآن نتناول دافع الناس من ممارسة الفتنة. فالإنسان بطبيعته لا يحمل عداوة تجاه الآخرين. إذن فلماذا يحاول ذوو السجايا الشيطانيّة من الناس إغواء غيرهم؟ لماذا يسعى ابن آدم وراء فتنة من شأنها أن تجرّ إلى البلايا في الدنيا أو تؤول بالمرء في نهاية المطاف إلى الضلال والعذاب الأُخرويّ؟ هناك عاملان في هذا الباب؛ أو فلنقل: هناك صنفان من أهل الفتنة: فصنف قد وضعوا نير العبوديّة لإبليس في أعناقهم فصاروا له مركباً ودابّة: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[1]. وتفيد هذه الآية القرآنيّة أنّ هناك من الناس من يسلّم زمام أمره بيد الشيطان باختيار منه. وقد نَعجب نحن من أنّه كيف يستطيع امرؤ أن يعطي عنانه للشيطان؟ ولعلّنا شاهدنا نماذج من هذه الحالات في حياتنا؛ وقد يكون أمثالي قد شاهدوا ذلك. فقد تطرأ عوامل تدفع

(١) **سورة النحل**، الآية ١٠٠.

الإنسان إلى وضع نفسه في تصرّف شخص آخر. وكنموذج بسيط لذلك هو ما يحدث كثيراً في حالات الحبّ المفرط؛ فقد يصل المرء في صممه وعماه وانقياده للمحبوب إلى حدّ القول لمحبوبه: كلّ ما تقولُه هو الصواب! فالصراط المستقيم حينئذ هو الذي ينتهجه المحبوب، والسلوك الصحيح هو سلوكه، واللباس المناسب هو ما يرتديه. وكذا الشيطان فإنّ له مَواطنَ جذب واستقطاب عندما يشاهدها البعض فإنّهم ينجذبون نحوه. فأمثال هؤلاء لا يرون الشيطان نفسه، لكنّهم يشاهدون يده وأدواته ومواطن استقطابه. وأبسط مثال على ذلك والذي يمكننا جميعاً استيعابه جيّداً هو حالة الإدمان بأشكاله المختلفة؛ كالإدمان على التدخين وعلى تناول المسكرات وعلى استخدام الشبكة العنكبوتيّة[1]؛ فالإنسان قد يعطي بنفسه زمام أمره لغيره أو لأشياء من قبيل المخدّرات، والمسكرات، والأفلام حتّى كأنّه يُسلب اختياره وسيطرته على نفسه؛ فهناك من يقول مثلاً: إنّه يصاب بالأرق في الليلة التي لا يشاهد فيها فلماً. فأمثال هؤلاء قد رضخوا لولاية الشيطان وسلّموه قيادهم. وهم بالطبع لا يرون الشيطان، لكنّ الشيطان يراهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[2]. فكأنّ الذي يصل إلى هذا الحدّ من الانقياد للشيطان ويصبح أداة طيّعة بيده يفقد سلطانه على نفسه. فالذي يصاب بالإدمان الشديد على المخدّرات قد يكون مستعدّاً لفعل أيّ شيء ووضع كلّ ما يملك تحت تصرّف الآخرين في سبيل الحصول على المخدّرات! وكأنّ

(١) قيل مؤخّراً إنّ استخدام الشبكة العنكبوتيّة (الإنترنيت) يسبّب الإدمان، وإنّ هناك في بعض الدول مستشفياتٍ متخصّصة لمعالجة المدمنين على استخدام هذه الشبكة. وقد نُقل عن بروفسور أمريكيّ قدم ذات مرّة إلى إيران أنّه يجلس أمام الحاسوب لمدّة أحد عشر ساعة متواصلة!

(٢) **سورة الأعراف**، الآية ٢٧.

الإدمان قد بات طبيعة ثانويّة لدى أمثال هؤلاء. لكن هناك أيضاً من أدمن بنفس الطريقة على إغواء الآخرين. فنحن إذ نقبل بمثال الإدمان على المخدّرات بسهولة فلأنّنا سمعنا وشاهدنا نماذج عديدة من هذه الحالة. غير أنّنا لا نستطيع أن نستوعب جيّداً فكرة أنّ التحايل على الآخرين وإضلالهم هو أيضاً شكل من أشكال الإدمان. فبعض البشر يكتسب طبائع شيطانيّة تجعله يسعى دائماً للخَتْل وإغواء الآخرين. فهؤلاء يُلحَقون بإبليس وإنّ القرآن الكريم يطلق عليهم تسمية «شياطين الإنس». كما أنّ هناك طائفةً أُخرى لم يصلوا إلى هذا الحدّ؛ أي إنّهم وإن اتّبعوا الشيطان لكنّهم لم يبلغوا حدّاً يصبحون فيه وكأنّهم مسلوبو الاختيار. وعندما نستخدم كلمة: «كأنّ» فهو من باب أنّ أيّاً من هذه الأُمور لا يرقى إلى درجة الجبر المطلق. فصحيح أنّ هناك ضعفاً في الاختيار والإرادة غير أنّ الإرادة لا تُسلب كلّياً ولا يُرتكب فعل عن جبر تامّ؛ لأنّه إذا كان ثمّة جبر فلا يعود هناك تكليف أساساً.

أفراد الطائفة الثانية ـ الذين لم يدمنوا على الإغواء بعد كي يكونوا من عملاء إبليس ويدخلوا في حلقة شياطين الإنس ـ قد يتّبعون الشيطان ويقتفون أثره في بعض الأحيان، ومن الممكن أن يشكّلوا سبباً لافتتان غيرهم، خلافاً لمن صارت عادة إغواء الآخرين وإضلالهم طبيعة ثانوية لهم؛ كما يقول المثل الفارسيّ: لسع العقرب بمقتضى طبيعته لا من دافع عداوته. أمّا أُولئك الذين لم يصلوا إلى هذا الحدّ فقد يقومون أحياناً بأعمال حسنة، بل وقد يساعدون الآخرين ويأخذون بأيديهم وينقذونهم من ورطة أيضاً، لكنّهم ـ في أحيان أُخرى ـ قد يوقعون الآخرين في فتنة ويعملون على خلقها وتبدر منهم تصرّفات غريبة. فأمثال هؤلاء يشكون من عوامل نفسيّة جمّة ومختلفة يصعب إحصاؤها.

الحسد هو أهمّ عوامل الفتنة

وفقاً لما يُستخلص من آيات الذكر الحكيم والتجارب العمليّة والمقبول من نظريّات علم النفس فإنّ الحسد يُعدّ من أهمّ عوامل الفتنة. وقد ذكر القرآن الكريم بضع قصص عجيبة جدّاً عن الحسد. ومن المناسب التساؤل هنا: لماذا يروي القرآن الكريم لنا هذه القصص؟

حسد قابيل لهابيل

إنّ الله تعالى يطلب من نبيّه الكريمﷺ أن يخبر الناس بقصّة ابنَي آدمعليه السلام المباشرين هابيل وقابيل عندما قدّما قرباناً: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾[1]. ويُفهم من هذه الآية أنّه في زمان آدمعليه السلام وهو نبيّ كان ثمّة مناسك عباديّة من قبيل الصلاة وذبح القرابين. واستناداً إلى بعض الأحاديث فإنّ علامة قبول القربان كانت ناراً تأتي على القربان وتحرقه. فإذا قدّم شخص قرباناً وقال: إلهي! لقد قرّبت هذا القربان لك ثمّ أتت نار وأحرقت هذا القربان عُلِم أنّ الله قد قبله منه، وإلّا فإنّه لم يقبله. فعندما قرّب كلّ من هذين الأخوين قرباناً لله قُبل قربان أحدهما ولم يُقبل قربان الآخر. فقال الذي لم يُقبل قربانه لأخيه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[2]. ووفقاً لقول أهل اللغة فإنّ نون التأكيد الثقيلة ولام القسم تأتيان جواباً للقسم، فيكون التقدير: أُقسم أنّني سأقتلك لا محالة؛ لأنّ قربانك قُبل وقرباني لم يُقبل. فأجاب أخوه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[3]، فأنا

(١) سورة المائدة، الآية ٢٧.

(٢) سورة المائدة، الآية ٢٧.

(٣) سورة المائدة، الآية ٢٧.

لستُ المقصّر في عدم قبول قربانك، فكن من المتّقين لِيتقبّل الله منك قربانك. لكنّ الحقد والحسد تجاه أخيه كان قد تغلغل في أعماق قلبه فكان أنْ قتله في النهاية.

فهذه أوّل قصّة ينقلها القرآن الكريم عن بني آدم وموضوعها الحسد. فهو يريد أن يقول: أيّها الإنسان! من الممكن أن يتولّد في نفسك شيء يؤدّي إلى كلّ تلك المفاسد؛ يؤدّي بك إلى اقتراف خطيئة بهذه الفداحة ليس لها أيّ تبرير عقليّ. ولا ريب أنّ القرآن ليس هو كتاب قصّة وحكاية وتاريخ، بل هو كتاب هدىً. فالقرآن إنّما ينقل لنا هذه الحكايات كي نفهم إلى أيّ مدى يمكن أن يكون الحسد خطراً.

حسد إخوة يوسف عليه السلام

وقصّة نبيّ الله يوسف عليه السلام هي نموذج آخر لهذا الأمر: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]. فيعقوب نبيّ من أنبياء الله، وهو ابن إسحٰق وحفيد إبراهيم الخليل عليهما السلام وهو مَن قال فيه العزيز المتعال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾[2]. وقد كان له اثنى عشر ولداً كلّهم أحفاد إبراهيم عليه السلام، بل إنّ القسم الأعظم من نسل إبراهيم قد ولدوا من أصلابهم. لقد لاحظ أبناء الأنبياء هؤلاء أنّ أخاهم الصغير أحبّ إلى أبيهم منهم. فاجتمعوا وقالوا: إنّ أبانا يحبّ يوسف وأخاه بنيامين (وقد كانا من أُمّ واحدة) أكثر منّا، وهذا غير صحيح: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الضلال

(١) سورة يوسف، الآية ٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٧٢.

هو بسبب حبّه لأخوَينا الصغيرين أكثر منّا. فماذا نصنع كي ننتشل أبانا من هذا الضلال ونزيح هذه الفتنة أو نلغي الموضوع من الأساس؟ فقال أحدهم: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾[1]. فالحلّ هو أن تقتلوا يوسف كي لا يعود هناك يوسف يحبّه أبوكم، أو أرسلوه إلى بلد ليبتعد عن أبيكم ولا يكون في متناول يده. إذن نقتل يوسف، ثمّ نكون أُناساً صالحين أتقياء. أيّ حلّ رائع هو هذا!

أمّا علّة رواية القرآن الكريم لهذه القصص (التي يسمّيها «أحسن القصص») وإعارته إيّاها كلّ هذا الأهتمام فهو لكي نعلم أنّ مثل هذا الشيء قد ينشأ في داخلنا نحن أيضاً. فالأرضيّة لذلك موجودة ومن الممكن أن يبلغ حدّ الفعليّة في أيّ وقت. فأيّ عامل غير الحسد يمكن أن يكون وراء إقدام أخ على قتل أخيه، الذي من المفترض أن يفتخر به، ليس لغرض سوى أنّه أفضل منه بمقدار معيّن وأنّ أباه يحبّه أكثر منه!

دور الحسد في قتل أهل البيت عليهم السلام من قبل مخالفيهم

يقول الباري عزّ وجلّ بخصوص النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وما يتّصل بمنظومة النبوّة والإمامة: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[2]. وقد تكون في هذه الآية إشارة إلى أنّ العامل الأهمّ وراء استشهاد أهل البيت عليهم السلام هو الحسد. إذن فإنّ من جملة عوامل ممارسة الفتنة من قبل البعض ـ ممّن ليسوا من أتباع الشيطان ـ هو حسدهم للآخرين. فالذين أضحوا من غلمان الشيطان

(١) سورة يوسف، الآية ٩.

(٢) سورة النساء، الآية ٥٤.

وعبيده وسُلبوا تقريباً كلّ اختيار تكون طبيعتهم طبيعة شيطانيّة. أمّا أُولئك الذين لم يبلغوا هذا الحدّ لكنّهم يقترفون بعض الأخطاء أحياناً، كإخوة يوسف الذين كانوا من أهل الصلاة والعبادة وأُناساً مرموقين ومحترمين ومن أحفاد إبراهيم عليه السلام، فإنّهم قد يقعون في هذا الفخّ بدافع الحسد. ولهذا فلو قلنا إنّ الحسد هو أكبر عوامل الفساد على مرّ التاريخ البشريّ لَمَا كان قولنا جزافاً.

شبهة كون الفتنة الإلهيّة شرّاً

الملاحظة التي قد لا تكون حظيت إلّا بالقليل من التأكيد هي أنّ إسناد الفتنة إلى الله تارة، وإلى الشيطان تارة أُخرى، وإلى الناس تارة ثالثة لا يعني تقسيم الفتنة. فليس المراد من ذلك أنّ بعض الفتن هو من فعل الله تعالى، والبعض الآخر هو من فعل الشيطان، أمّا بعضها الآخر فهو من صنيعة الإنسان، لأنّ جميع الفتن هي منسوبة إلى الله إيضاً بشكل من الأشكال. فاستناداً إلى التوحيد الأفعاليّ فإنّ ما يحدث في العالم يُنسب ـ في مستوى أعلى ـ إلى الله سبحانه وتعالى. بيد أنّ من شأن هذا الإسناد أن يخلق شبهتين: الأُولى هي أنّه يؤدّي إلى إسناد بعض الشرور إلى الله عزّ وجلّ، في حين أنّه: «**والخير في يديك والشرّ ليس إليك**»[1]. والثانية هي أنّ الله عندما ينجز فعلاً بواسطة الشيطان فإنّ الأخير يبدو كأنّه مأمور من قبل الله تعالى، الأمر الذي يجعله يطالب الله عزّ وجلّ فيقول له: لم يكن سعيي إلّا ضمن ما رسمتَه لي من خطّة ودبّرتَه لي من تدبير فلا ينبغي ـ إذن ـ أن تؤاخذني على ذلك!

---

(١) **الكافي**، ج٣، ص٣١٠.

جواب الشبهة

ولا بأس أن أستهلّ جوابي على هذه الشبهة بطرح مثال: فلنفترض أنّه ينبغي لنا السعي للقاء شخص من أجل أن يقدّم لنا مساعدة ماليّة أو خدمة فكريّة معيّنة. ولمّا كان هذا الشخص يعيش في مدينة أُخرى فإنّه يتعيّن علينا من أجل لقائه شدّ الرحال إليه وهو أمر شاقّ بالنسبة لنا. ومع ذلك فقد عقدنا العزم وخرجنا من دارنا صباحاً بقصدٍ وإرادةٍ منّا. وبمجرّد أن ركبنا في الباص اكتشفنا أنّ الرفيق الذي نبحث عنه والذي يعيش في مدينة أُخرى جالس إلى جوارنا في الباص. فبعد أن كان من المفترض أن نمضي ساعات في الطريق ونتحمّل أعباء السفر ونعطّل حياتنا وأعمالنا لبضعة أيّام كي نحظى بلقائه فإذا بنا نلقاه بهذه البساطة! وعندها سنقول: كان هذا اللقاء صدفة. أمّا من وجهة النظر التوحيديّة فإنّ هذا اللقاء لم يحدث صدفة، ولم يكن ثمّة جَبْر في المسألة. فقد خرجنا من بيتنا وركبنا في الباص بنيّتنا وبمحض إرادتنا ولم يجبرنا أحد على ذلك. وكذا رفيقنا فلم يكن مجبراً في تحرّكه وقد خرج من بيته لإنجاز عمل له فكان أن التقينا في الباص. طبقاً للتعاليم الدينيّة فإنّ جميع تلك الحوادث قد وقعت بتدبير من فوق؛ أي إنّ هناك تدبيراً إلهيّاً فوق تدبيرنا وتدبير رفيقنا كان السبب وراء لقائنا بهذه الصورة. فقد قمنا بما علينا وقد فعل هو ما عليه أيضاً، لكنّ ما كنّا نطلب، وربّما ما كان يطلب هو أيضاً، والذي ربّما لم يكن في حسباننا، قد تحقّق على أرض الواقع. لقد اعتدنا أن نقول في مثل هذه المواقف: لقد حدث ذلك صدفة. غير أنّه انطلاقاً من الرؤية التوحيديّة فإنّه لا وجود للصدفة في هذا العالم. فكلّ ما يحدث فيه هو ضمن تدبير وإرادة قاهرة تدير هذا الكون بأسره.

ولنضرب مثلاً أبسط فنقول: لو أنّ معلّماً يريد أن يختبر تلميذه وهو يعلم اليوم والساعة التي يأتي فيها التلميذ إلى الدرس، فيقوم بترتيب الأرضيّة كي يلتقي هذا التلميذ حين قدومه بشخص معيّن أو يواجه سؤالاً أو مشكلة خاصّة. أو يقوم أب يبتغي اختبار ابنه بترتيب المقدّمات بالشكل الذي يهيّئ الأجواء المناسبة لمثل هذا الاختبار. إذن فالإبن سوف يأتي بإرادته هو، أمّا الأب فإنّ في نيّته هدفاً أعلى من ذلك سوف يُصار إلى تحقّقه من خلال نفس هذا الفعل الاختياريّ للابن والمقدّمات المبذولة لذلك.

هذه أمثلة بسيطة، أمّا مضمون تعاليمنا الدينيّة والقرآنيّة فهو أنّ الناس أجمعين بكلّ ما يمتازون به من الكثرة وجميع العوامل الأُخرى التي لا نعلم أساساً بوجودها (كالملائكة والجنّ) وما يوجد بينها وبين العوامل الطبيعيّة من تأثير وتأثّر متبادل ممّا لا نعي حتّى واحداً من مئات منها ـ أنّ للجميع تأثيراً كلٌّ بحسبه؛ ذلك أنّ هناك خطّةً من فوق تنظّم هذه الأُمور وتنسّقها مع بعضها. ولا يستطيع فعل ذلك إلّا من يكون علمه غير مُتَناهٍ. فإذا أراد المرء أن ينظّم شيئين مع بعضهما تحتّم عليه التفكير طويلاً، لكنّ الله جلّ وعلا ليس بحاجة إلى التفكير؛ لأنّ علمه لا نفاد له وهو محيط بكلّ شيء. وخلاصة القول: فإنّ الله منذ بدء الخليقة وحتّى نهايتها ـ هذا إذا كان لها بداية ونهاية قابلة للفهم بالنسبة لنا، مع أنّه ليس لها بالنسبة إلى الله تعالى من تقدّم أو تأخّر ـ يعلم بكلّ هذه الأُمور وإنّ إرادته محيطة بها. وعلى الرغم من أنّ هذا المبحث يفوق مستوى مداركنا؛ إلّا أنّ هذا الشيء هو الذي يطرحه القرآن الكريم.

التنسيق بين إرادة الله وإرادة الخاصّين من عباده

يُستشفّ من لحن بعض الآيات القرآنيّة وكأنّ إرادة الإنسان مندمجة في إرادة الله ومتّحدة معها؛ نحو ما جاء في قصّة الخضر عليه السلام في سورة «الكهف» من قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[1]؛ أي: لقد أردنا أن يبدل هذين الأبوين ربُّهما بولد آخر يكون أفضل من هذا الولد من حيث الرشد والكمال ومراعاة الرحم؛ بمعنى أن يهب هذا الأب ولداً صالحاً. كما جاء في موضع آخر من نفس القصّة: إنّ الكنز الذي كان تحت الجدار الآيل إلى السقوط هو ملك للغلامين اليتيمين وقد أراد الله أن يُصان الكنز حتّى يبلغ الطفلان سنّ الرشد ويستخرجاه بنفسيهما: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾[2]. ولا تعني هذه التعابير أنّ إرادة العبد في موضع تكون هي الفاعلة ولا تأثير لإرادة الله، وأنّ إرادة الله في موضع آخر تكون هي المؤثّرة وليس للعبد أيّ دور. فالخضر كان يعلم بنتيجة الأعمال التي كان ينجزها. لكن من الممكن إسناد تلك الأعمال إلى الخضر وإلى الله في آن واحد. ولعلّ في هذا الإسناد المزدوج تكمن التفاتة معرفيّة عميقة؛ وهي أنّ وليّ الله هذا كان قد وصل إلى درجة بحيث لم تكن له إرادة مستقلّة من ذاته، ولم يكن يطلب شيئاً من تلقاء نفسه أبداً. وإنّ لدينا نظير ذلك في تراثنا الروائيّ؛ كالذي جاء في رواية قرب النوافل: «... **وإنّه لَيتقرّب إليّ بالنافلة حتّى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يُبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبتُه وإن**

---

(١) **سورة الكهف**، الآية ٨١.

(٢) **سورة الكهف**، الآية ٨٢.

سألني أعطيتُه ...»[١]. فالشخص الذي يضع نفسه في مقام العبوديّة بشكل كامل ويجعل إرادته باختياره تابعة للإرادة الإلهيّة فسوف يصل إلى حيث يتلطّف الله تعالى عليه بأن يصير عزّ وجلّ ـ كما تعبّر الرواية ـ يده وعينه وسمعه. ولقد بيّن علماؤنا بخصوص هذا الحديث مباحث مفصّلة[٢]. وعلى أيّة حال فإنّ من الممكن إدراك هذا المقدار وهو أنّ هذا المقام هو مقامٌ عالٍ وسامٍ؛ وهو أن يصل العبد إلى حيث يقول الله له: إنّني عينك وسمعك ويدك. ولعلّ الالتفاتة في اختلاف عبارة الخضر عندما يقول تارة: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ ويقول تارة أُخرى: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ تكمن في أنّه أساساً لا يملك إرادة من ذاته. فإنّ تبعيّته لإرادة الباري المتعال قد بلغت حدّ اتّخاذ الله للقرار عوضاً عنه. وأمثال هذه المضامين تشاهَد في دعاء عرفة أيضاً، لاسيّما في القسم الأخير منه حيث يقول أبو عبد الله الحسين عليه السلام: «**إلهي أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري وباختيارك لي عن اختياري**»[٣]. وهذا يعني أن لا أكون بحاجة إلى التفكير في اختيار هذا أو ذاك. فعلاقة الله تعالى مع بعض عباده هي من هذا القبيل. وهذا ما يخصّ أولياء الله الذين فَنِيَتْ إرادتهم في إرادته تعالى ولم تعُد لهم حاجة من أنفسهم. فقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام: «**قلوبنا أوعية لمشيّة الله**»[٤]؛ فكلّ ما يشاء الله يظهر في قلوبنا؛ بمعنى أنّنا عندما نشاء أمراً فهي في الحقيقة مشيئة الله قد ظهرت فينا وليس لأنفسنا مشيئة مستقلّة.

كما أنّ هناك رؤيةً أوسع وأكثر شموليّة؛ وهي أنّ أفعال الجميع، بما فيهم

---

(١) **الكافي**، ج٢، ص٣٥٢.

(٢) من جملة مَن شَرحَ هذا الحديث الشيخ البهائيّ، والإمام الخمينيّ رحمه الله في كتابه «**الأربعون حديثاً**».

(٣) **إقبال الأعمال**، ص٣٤٩.

(٤) **بحار الأنوار**، ج٢٥، ص٣٣٧.

العاصون والمذنبون وحتّى الأفعال التي تنجزها العوامل الطبيعيّة فإنّها جميعاً تُسند إلى الله؛ ذلك أنّ وجودها وآثارها كلّها هي باختيار الله عزّ وجلّ وأنّ كلّ ما لدى الموجودات كافّة (من وجود وفكر ومن قدرة مادّية أو فكريّة أو تدبير) فإنّها من عطايا الله تعالى. وتأسيساً على هذا التوضيح يتبيّن لنا كيف أنّ القرآن الكريم تارةً يُسند الفتنة إلى الباري جلّ وعلا، وطوراً يسند نفس الفتنة إلى الشيطان، وحيناً يسندها إلى الإنسان، ولا يعني ذلك أنّه عندما تُنسب الفتنة إلى الإنسان فلا دور لله تعالى فيها؛ فالله هو المؤثّر في ظهور الفتن[1] وإنّ إسناد كلّ فتنة إلى الله هو من باب أنّ الله تعالى هو الذي دبّر هذا الأمر من أجل امتحان البشر. فهذه هي حيثيّة إسناد الأمور إلى الله من دون فرق بين ما إذا كانت خيراً أو شرّاً. فسواء أكان البلاء بمعنى المصيبة والورطة والمرض أو بمعنى النعمة والسلامة، وسواء أكان المراد به القوّة أو الضعف، وسواء أكان يقصد به الغنى أو الفقر، فكلّ تلك الأُمور هي امتحانات إلهيّة. فإذا نُسبت مثل هذه الأُمور إلى الشيطان فهو من باب دور وسواسه في تحقّقها؛ وهذا بالطبع لا ينافي أنّ السنّة الإلهيّة في الاختبار هي في الوقت ذاته حاكمة ومسيطرة فوق هذه الأحداث كلّها؛ وبتعبير آخر: فإنّ نفس وساوس الشيطان هذه هي من مصاديق الشرور التي يمتحن الله بها الإنسان. وكذا بالنسبة للفتن التي يثيرها الناس والشرور

---

(١) ليس كلّ ما يُنسب إلى الله سبحانه وتعالى من الفتن يتعلّق بالشدائد والبلايا والشرور؛ فالله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (**سورة الأنبياء**، الآية ٣٥). فمواد بعض امتحانات الله عزّ وجلّ تتضمّن أُموراً حسنة ومُرضية جداً، وهي أيضاً أدوات للامتحان. فسليمان عليه السلام عندما أعطاه الله هذا المُلك العظيم قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ (**سورة النمل**، الآية ٤٠)؛ أي حتّى هذه النعمة وهذا السلطان هما وسيلتان للاختبار، ومن حيث إنّهما يُنسبان إلى الله سبحانه فهما يُعدّان من مصاديق الاختبار ايضاً.

التي تصدر منهم فمن حيث إنّها من دواعي الامتحان وأنّ بوسع البعض نتيجة خوض مثل هذه الامتحانات بلوغ مراتب غاية في العلوّ والرفعة، فإنّها خير وهي تُسند إلى الله عزّ وجلّ، لكنّها، من حيث كونها تُثار وتُؤجَّج من قبل أشخاص يحملون سوء النيّات ويرومون من ورائها الإضرار بالآخرين، فهي تُنسب إلى الناس وتكون مذمومة.

هدف الله من الفتنة

قلنا إنّ الهدف من وراء الفتن التي تُنسب إلى الله سبحانه وتعالى هو الامتحان: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]. فالله عزّ وجلّ يريد لجميع الناس الوصول إلى أعلى مرتبة يمكن أن يصلها مخلوق من الكمال. فإنّ لله ألواناً من الرحمة لا يمكن لأحد إدراكها إلّا إذا سلّم لإرادة الله باختياره تسليماً محضاً. فإن فعل أحد ذلك ظفر بالقدرة على إدراك هذه الرحمة. وكمثال بسيط على ذلك من شأنه أن يقرّب هذا المعنى إلى الذهن بعض الشيء نقول: لو أنّ شخصاً عظيماً وفي ظروف معيّنة أعطى امرَأً هديّة أو حباه باحترام مميّز فسيشعر هذا الأخير ـ إذا كان عارفاً ـ بنشوة كبيرة لما حظي به من فخر. فلو حظي أحد مثلاً بشرف اللقاء بقائد الثورة المعظّم (الإمام الخامنئيّ دام ظلّه) مع جمع من الناس وحدث في أثناء اللقاء أن ناداه قائد الثورة دون الجميع قائلاً له: يا سيّد فلان! أحتاجك في أمر وأودّ أن أراك! فإنّ هذا الشخص لن يتمالك نفسه من الفرح. لكن لو قيل نفس هذا الكلام لطفل صغير فلن يشعر بلذّة خاصّة ولن يفهم ما ينطوي عليه

(١) **سورة هود**، الآية ٧؛ **وسورة الملك**، الآية ٢.

هذا الكلام من خصوصيّة. فالإشارة أو حتّى الابتسامة تكون غاية في اللذّة لمن يدرك طعمها ويقدّر قيمتها. لكنّها لا تعني شيئاً ولا تكون ممتعة لمن لا يدرك سرّها.

فالله يُنيل من أشكال الرحمة ما لا يستطيع المرء إدراكه إذا لم يتمتّع بقدر كاف من المعرفة. فعندما يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فهو من أجل أن تطووا أيّها الجنّ والإنس هذا الطريق كي تكسبوا الأهليّة لإدراك هذه الرحمة، وإلّا فالله ليس ببخيل. فحتّى الملائكة لا يدركون هذه الرحمة الخاصّة، لأنّ إدراكها هو من مختصّات أولياء الله تعالى. فالإنسان أساساً لم يُخلق إلّا من أجل اكتساب الأهليّة لإدراك هذه الرحمة الخاصّة؛ فإنّه ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[2]. ومن أجل إدراك هذه الرحمة لابدّ للإنسان أن يكون مختاراً وإنّ من لوازم الاختيار أن يتعثّر البعض بسوء اختيارهم. فوفقاً لاصطلاح أهل المعقول فإنّ وجود العاصين والمنحرفين هو «مقصود بالعرَض»، وإنّ «المقصود بالذات» هو خلقة الصالحين. كما أنّ الأفضل من بين المقصودين بالذات يتمتّع بأصالة أكبر. ومن هنا يمكننا الاستنتاج بأنّ عالم الخلقة بكلّ ما له من عظمة قد خُلق من أجل أربعة عشر نوراً مطهّراً. فهذه الأنوار هي المقصود الأصليّ من الخلقة أمّا الآخرون فهم طفيليّون: «**لولاك لما خلقتُ الأفلاك**»[3]. وقد جاء في حديث الكساء عن العليّ الأعلى أنّه يقول: «**وعزّتي وجلالي! إنّي ما خلقت سماءً مبنيّة ولا**

(١) **سورة الذاريات**، الآية ٥٦.

(٢) **سورة هود**، الآية ١١٩.

(٣) **بحار الأنوار**، ج١٦، ص٤٠٥.

أرضاً مدحيّة... إلاّ لأجلكم ومحبّتكم»[1]. فالشخص الذي يروم استخراج الألماس من الأرض سوف يستثمر أموالاً طائلة وينقّب في أعماق الأرض وقد يحفر فيها منجماً بعمق عدّة كيلومترات وهدفه الأساسيّ من كلّ ذلك هو الحصول على شيء من الألماس. بالطبع إنّه سيحصل بالعرَض أثناء هذا التنقيب على فحم حجريّ وهو مادّة مفيدة أيضاً؛ لكنّ هدفه الأساسيّ هو الألماس.

فلمّا كان الله عزّ وجلّ يريد أن يوصل الإنسان إلى مرتبة لا يستطيع أيّ مخلوق بلوغها فقد وضع لهدايته خططاً وبرامجَ؛ حتّى أنّ أفضل الناس وأكرمهم قد يُقتلون في سبيل هداية البشر. فالشخص الذي يفدي الغالي والنفيس لا يخسر شيئاً، لكنّ الغاية من أخذ بعض النعم المادّية منه هو أن ينتفع الآخرون فيهتدوا إلى سواء السبيل. إذن فجميع التشريعات الإلهيّة والأُمور التكوينيّة التي تهيّئ الأرضيّات للطاعة أو العصيان هي ضرب من الامتحانات الإلهيّة وهي خير. فأيّ خير أفضل من الأمر الذي يشكّل مقدّمة لصعود الإنسان إلى أعلى ما يمكن أن يبلغه مخلوق من مراتب الخير؟ غير أنّ الظفر بهذا الهدف له لوازم ويستلزم بعض الخسائر؛ فعندما يصنع النجّار باباً أو شبّاكاً فإنّه يتساقط بعض الخشب على شكل نشارة. فنشارة الخشب ليست عديمة الفائدة تماماً؛ بيد أنّ هناك بوناً شاسعاً بين الدرّ النفيس ونشارة الخشب التي قد تُستعمل كوقود أو ما شابه ذلك. إذن فهدف الله عزّ وجلّ من الفتنة هو غاية في القداسة والسموّ؛ وهو ذلك الهدف من الخلقة، حيث يهدف إلى اختبار الناس من أجل توفير الأرضيّة لسموّهم وتكاملهم.

---

(١) **شرح إحقاق الحقّ** للسيّد المرعشيّ، ج٢، ص٥٥٦ (الهامش).

هدف الشيطان من الفتنة

قلنا سلفاً إنّ هدف الشيطان من الفتنة هو إطفاء ما تأجّج في صدره من بغض وحقد تجاه آدمعليه السلام الأمر الذي دفعه إلى السعي للانتقام من وُلدِه. فهو يستغلّ المغرَّر بهم من الناس للتمهيد لإضلال الآخرين. ومن أجل ذلك يستخدم الشيطان أُسلوب الوسوسة والتزيين وإعطاء الوعود الكاذبة. لكنّ ذلك كلّه يتمّ في إطار من الاختيار وليس من جبر في المسألة أبداً[1]؛ إذن فوجود الشيطان في أصل عالم الخلقة هو على أساس التدبير الإلهيّ، وإنّ إمكان وسوسته هو جزء من هذا التدبير؛ فلو لم يكن أمام الإنسان غير طريق واحد حاله حال الملائكة، لما كان ليمتاز عليهم. إذن فالوسواس والخداع هو من فعل الشيطان وهو نابع ممّا يعتمل في صدره من حقد وضغينة وعداوة تجاه آدمعليه السلام، لكنّ ذلك لا يعني أنّه ليس من امتحان في القضيّة؛ بل إنّ الإمتحان هو في مستوى أعلى وتدبير أشمل وهو يُعدّ جزءاً من مشروع الخلقة. من ناحية أُخرى فإنّ الناس الذين يقعون ضحيّة وسوسة الشيطان تبدر منهم أعمال قبيحة ويخلقون بعض المشاكل، بيد أنّهم غير مجبرين في عملهم هذا. فالشيطان يعين أمثال هؤلاء على ارتكابهم المعاصي، لكنّه لا يستطيع إجبار أحد على ذلك؛ فليس له سلطان على عباد الله وهو لا يتمكّن من إكراههم على فعل شيء، وليس بوسعه سوى الوسواس والتشجيع على السيّئات. فهو يزيّن العمل القبيح ويظهره بمظهر غاية في الحسن والجمال واللذّة، لكنّ ذلك لا يمتّ إلى الجبر بصلة. إذن ففعل الشيطان في إغواء العباد يأتي بدافع شخصيّ منه، وإنّ النتيجة المنتظَرة من

---

(١) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الحجر، الآية ٣٩)؛ و﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة ص، الآية ٨٢).

هذا الإغواء هو فسح المجال أمام الناس من أجل حرّية الاختيار كي يتحقّق ـ جرّاء ذلك ـ الهدف الإلهيّ من الخلقة، ألا وهو امتحان البشر.

هدف الإنسان من ممارسة الفتنة

ممارسة الإنسان للفتنة تعود ـ بمعنى من المعاني ـ إلى أحد أمرين: الأوّل هو طلب المنفعة، والثاني هو الانتقام. فتارةً يكون عمل الإنسان الفاتن سعياً وراء منفعة لا يمكن بلوغها إلّا بفتنة الآخرين؛ أي بتوريط الآخرين لجني النفع لنفسه، كما في المثل المعروف: «يصطاد في الماء العكر». فعندما يعمد الشخص إلى تعكير المياه يصاب الناس بالذهول أمّا هو فإنّ نيّته صيد السمك في هذا الماء؛ وهو لهذا يضرّ بالآخرين ويخلق لهم المتاعب من أجل الوصول إلى مبتغاه. وأنصع مثال لهذا النوع من الفتنة هو ما يفعله المستعمرون؛ فهم يبغون من وراء مخطّطاتهم بشأن الدول الأُخرى الاستيلاء على ثرواتها، وتسبيب المتاعب لها، وبثّ الخلافات والإيقاع فيما بينها، وخلق المشاكل كي يتمكّنوا من صيد ما يرومون من سمك في هذه المياه العكرة.

وتارةً أُخرى يعمل البعض على الانتقام من الآخرين جرّاء ما يحملون في قلوبهم نحوهم من حقد وضغينة. فإذا فشلوا مثلاً في موضع معيّن ونالوا الأذى من بعض الناس فإنّهم يؤجّجون نار الفتنة للانتقام منهم.

كما قد تكون للفتنة دوافع أُخرى تعود أيضاً ـ بشكل من الأشكال ـ إمّا إلى السعي وراء المنفعة أو الانتقام؛ كما في حسد الآخرين. فالشخص الحسود يحاول الإضرار بمن يحسده دونما سبب، ولا يفكّر بأنّه ما الذي سيجنيه من الإضرار بهذا الشخص؟ فإن ابتُلي المحسود بمرض أو مصيبة اطمأنّ الحاسد وهدأ باله.

إذن فهو يبغي ضرر الآخرين كي يصيب بعض اللذّة ويرتاح لذلك. ومن هنا فإنّ كلّ دوافع الإنسان من ممارسة الفتنة تعود إلى طلب النفع أو الإضرار بالآخرين، أحدهما بالأصالة والآخر بالتبع.

هذا فيما يتّصل بدوافع الناس من وراء الفتنة، لكن ليس ثمّة أيٌّ من هذه الدوافع ما لا ينسجم مع وسواس الشيطان أو ما يتنافى مع إسناد الفتنة إلى الله عزّ وجلّ. فإنّ جميع الأفعال التي تُنجز بدوافعهم الخاصّة تنتظم ضمن نظام عامّ وشامل حتّى يتحقّق الهدف الإلهيّ العامّ ويُختبَر الجميع بعضهم ببعض؛ حيث ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾[1] و﴿لِيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[2]. فلابدّ من ظهور هذه التقابلات والتعاملات والتأثيرات والتأثّرات المتبادلة وما يتبعها من مشاكل وصعوبات وابتلاءات كي تُهيَّأ الأرضيّة للامتحان. فهذا العالم بأسره، منذ بدء خلقة الإنسان وحتّى نهايته، خاضع لهذه القاعدة. فطوبى لأُولئك الذين يفهمون حقيقة هذا العالم وأنّه ليس ممّا يُتعلَّق به. فحتّى لو كانت ورقة الامتحان التي يعطونها للممتحِن غاية في الروعة ومصنوعة من أجود أنواع الورق وحتّى لو سلّموه قلماً ثميناً ليكتب به الأجوبة فهي جميعاً أدوات وأسباب للامتحان وإنّ الزمان سيمرّ وينتهي بسرعة. فامتحان الحياة يستمرّ لمدّة سبعين أو ثمانين سنة لكنّ ماهيّته ماهيّة امتحان. فالمهمّ هو ما سيؤول إليه المرء بعد الامتحان من عمر أبديّ. ومن هنا فهذا الامتحان مصيريّ للغاية؛ لأنّ النجاح فيه يساوي رحمة لا نهاية لها، والفشل فيه يعادل عذاباً إلهيّاً لا نهاية له: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٢٠.

(٢) سورة محمّد ﷺ، الآية ٤.

ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ...وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾[1]. فالراحة الأبديّة والعذاب الأبديّ هما هناك. أمّا في هذا العالم فجميع الأُمور هي وسائل وأسباب للاختبار. فإن أُعطي المرء في قاعة الامتحان ماءً بارداً أو عصيرَ فواكه فذلك من أجل أن يغتنم الفرصة ويتمكّن من اجتياز الامتحان؛ وإلّا فإنّه في خضمّ امتحان، وهو وإن استمرّ سنوات طويلة، فهو لا يساوي شيئاً مقارنة بما سيتلوه من عمر لا نهاية له.

الافتتان بالفتنة أو الفرار منها

الفتنة ـ كما مرّ ـ هي واحد من مصاديق الامتحان. والامتحان يمثّل سنّة إلهيّة عامّة لا تُعطّل وهي دائمة الوقوع بصور مختلفة. وانطلاقاً من هذه المقدّمات يتبادر السؤال التالي إلى الذهن: هل على المرء الاستسلام وعدم إبداء أيّ ردّة فعل تجاه الأُمور التي تُعدّ من السنن الإلهيّة، أو بتعبير آخر: تقديرات إلهيّة؟ فنحن نسمع هذا الكلام من الكثير ممّن ليست لهم إحاطة جيّدة بالمعارف الإسلاميّة. فأمثال هؤلاء يقولون: «إنّها فتن آخر الزمان ولا يمكن فعل شيء حيالها! وحتّى الأحاديث قد تنبّأت بوقوع مثل هذه الأحداث في آخر الزمان وليس في أيدينا فعل شيء». وإذا اعتُرض عليهم بشأن الوضع الدينيّ السيّئ لأُسرهم وسبب تربية أولادهم على هذا النحو، يأتيك الجواب: «هذه من مقتضيات آخر الزمان ولابدّ من الإذعان لذلك». وهم في الواقع يريدون بهذا المنطق تبرئة أنفسهم.

والجواب على هذا السؤال واضح، ولكن من أجل أن يرتفع كلّ إبهام فنحن

(١) سورة الحديد، الآية ٢٠.

نودّ أن نضيف هنا القول: إنّ الشيطان هو الذي يكون أحياناً الواسطة للامتحانات والفتن الإلهيّة، وإنّ ما يؤدّي إلى إضلال الناس وانحرافهم يرتبط بشكل أو بآخر بإبليس وأعوانه. فالله هو الذي قد خلق إبليس ومنحه القدرة على الوسوسة في صدور الناس. إذن فوجود الشيطان هو وسيلة لاختبار الناس، وقد قام فعلاً بأصناف الوساوس وخلق أنماط المشاكل. والآن ـ انطلاقاً من أنّ هدف الباري عزّ وجلّ هو امتحان الناس وهو قد خلق إبليس وجعله بين الناس للقيام بهذا الدور ـ فهل يمكننا القول: ليس الشيطان مقصّراً ولا ينبغي أن يُلعَن ويُرجَم؛ لأنّ الله قد خلقه للوسوسة في صدور الناس، وهو منهمك بعمل قد خُلق من أجله، وإنّ مقتضى تدبير الله وحكمته أن تُهيّأ مثل هذه الأسباب كي تتحقّق مختلف ألوان الامتحانات للناس؛ فالله تعالى يقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]؟ فما الداعي للعن الشيطان إذن؟ أليس هو منهمكاً في إنجاز مهمّته؟

وشبيه لهذا السؤال يُطرح أيضاً بالنسبة لعوامل الفتنة الأُخرى. فإذا كانت مشيئة الله هي التي اقتضت وقوع مثل هذه الفتن فما الداعي لتوجيه اللوم واللعن لأسبابها وفاعليها؟ فإذا كان من المقرّر أن يُمتحن بنو إسرائيل عند غياب موسى عليه السلام بأن يصنع لهم السامريّ عجلاً ويدعوهم إلى عبادته[2]، فما هي المشكلة في ذلك؟ أو عندما ذهب نفر من بني إسرائيل إلى جبل الطور لرؤية الله واشترطوا من أجل إيمانهم رؤية الله جهرة ففاضت أنفسهم بعد تجلّي الله عزّ

---

(١) سورة هود، الآية ٧؛ وسورة الملك، الآية ٢.

(٢) لقد صنع السامريّ لبني إسرائيل عجلاً يُصدر خواراً فقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى. فسجد بنو إسرائيل لهذا العجل معتبرين إيّاه إلهاً لهم: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ (سورة طه، الآية ٨٨).

وجلّ وتحدّثه إلى موسى عليه السلام وقال الأخير: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾[1]، أفتكون وسيلة الامتحان هذه سبباً للذمّ والتقريع؟ ففي إثر توفير أسباب الامتحان سينجح البعض في هذا الامتحان ويخرجون منه مرفوعي الرأس، وسيفشل البعض الآخر فيه ويضلّون عن سواء السبيل. فإذا كان هؤلاء سبباً للامتحان فلا ينبغي ملامتهم ومؤاخذتهم.

ومن أجل تقوية الشبهة يمكننا سوق هذا التشبيه: لنفترض أنّ مركزاً تعليميّاً قرّر إجراء امتحان فعيّن عدداً من الأشخاص لتنظيم الأسئلة وطرحها على الطلّاب كامتحان لهم. فهؤلاء الأشخاص في الحقيقة يقومون بدور الوسائط في هذا الامتحان، وسوف لن يبادر الفاشل في هذا الامتحان إلى اتّهامهم بالتقصير؛ ذلك أنّ عملهم كان يقتصر على تنظيم الأسئلة ولا ينبغي مؤاخذتهم بسبب ذلك، كما أنّه لا يوبّخهم أحد لهذا السبب. وهكذا هو فعل الله؛ فعندما يعيّن أشخاصاً كأسباب للفتنة ووسائط لها فلا ينبغي مؤاخذتهم على كونهم سببَ فتنة الآخرين. إذن فكيف لنا أن نلعن إبليس ونتّهمه بالسعي لإضلال الآخرين وهو ليس إلّا وسيلة لاختبار عباد الله؟

خطأ مقارنة الامتحان الإلهيّ بالامتحان البشريّ

كلّ هذه الشبهات نابعة من المقارنة الخاطئة بين الامتحانات البشريّة وتلك الإلهيّة. ففي الامتحانات البشريّة عندما يعيّن مدير المدرسة أحداً لتنظيم الأسئلة وطرحها على الطلّاب في قاعة الامتحان فإنّه ينبغي عليه شكره على ذلك؛ لأنّه وزّع أوراق الأسئلة بين الممتحِنين وحرص على أخذ الإجابات منهم. فلابدّ من

---

(١) **سورة الأعراف**، الآية ١٥٥.

توجيه الشكر لهذا الشخص لأنّه ليس لديه مسؤوليّة أُخرى. في حين أنّ هذا الأمر يختلف عن كون إبليس وسيلة للامتحان. الاختلاف بين الحالتين يكمن في أنّه عند بيان الأفعال الإلهيّة فإنّ الأُمور المنسوبة إلى الله تُسنَد ـ في الوقت ذاته ـ إلى غيره؛ فكما أنّنا نقول: ﴿فَتَنَّاكَ﴾ فإنّنا نقول أيضاً: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾[1]، ونقول كذلك: إنّ الله يجعل بعض الناس وسائل لفتنة الآخرين: ﴿لِيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[2]. فمن الممكن أن يكون للفعل الواحد ثلاثة عوامل وينسب إلى ثلاثة فواعل: إلى الإنسان الذي كان السبب في الضلال، وإلى الشيطان الذي وسوس لهذا الإنسان، وإلى الله الذي خلق الشيطان وهيّأ له سبل الوسوسة. إذن فلكلّ واحد من الفواعل الثلاثة دور. وقد ذكرنا سابقاً أنّه لا ينبغي حصر هذا الإسناد في واحد من هذه العوامل؛ ذلك أنّ كلّ واحد من هذه الفواعل هو مختار وله مكانته الخاصّة به. فالإنسان الذي كان السبب في الفتنة عليه تكليف ضمن نطاق عمله؛ فبغضّ الطرف عن كلّ شيء فإنّ عليه أن يكون مستقيماً في عمله وأن لا يلجأ إلى الكذب والتزييف والخداع. فإن هو أدّى تكاليفه كما ينبغي فهو مأجور، لكنّه إذا وسوس في قلوب الناس واستخدم أُسلوب الخداع واتّبع سبيل الفساد فسيؤاخَذ على ذلك. إذن فإسناد هذه الأعمال إلى هذا الشخص في مستوى معيّن هو واقع؛ لأنّه قد قام بذلك بإرادته وهو مسؤول تجاه ما قام به. لكن بوسعنا النظر إلى هذه المسألة برؤية أعمق، وهي أنّ العامل وراء فساد هذا الشخص ولجوئه إلى الإغواء هو شيء آخر قد ساعده على ذلك، ألا وهو الشيطان الذي وسوس له

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٧.

(٢) سورة محمّد ﷺ، الآية ٤.

فعل ذلك. وهو من جانبه أيضاً قد رحّب بوسوسة الشيطان وأقدم على إغواء الآخرين. لكن بما أنّه قد قبل بذلك باختياره، فهو يتحمّل مسؤوليّة؛ ذلك أنّ الشيطان لم يجبره على هذا الأمر فقد كان بوسعه رفضه. ففعل الشيطان إنّما اقتصر على تقوية هذا الدافع لديه وتزيين الأمر له، وأثاره وحرّضه على فعله وقال له: ستجني من هذا الفعل لذّة كبيرة. إذن فمن الممكن إسناد هذا الفعل بهذا المقدار إلى الشيطان أيضاً. والفرض القائم هنا هو أنّ الشيطان من الجنّ وهو مكلّف حاله حال البشر، وقد نهاه الله في مقام التشريع عن فعل مثل ذلك، لكنّه عصى الله باختياره المحض وراح يغوي عباد الله تعالى. إذن فالشيطان مسؤول عن عمله هو. فالله عزّ وجلّ يعلم أنّ الشيطان سيوسوس لهذا الشخص في هذه القضيّة وأنّ هذا الشخص سيستجيب لوسوسته، أو يكون معرّضاً للاستجابة لها. وبما أنّه سبحانه وتعالى محيط بكلّ ذلك فهو يخطّط لمشروع هو فوق مشروع إبليس وهذا الإنسان الفاتن. وبناءً على هذه الفرضيّات فإنّ لله مشروعاً عامّاً وتدبيراً شاملاً مفاده أنّه لابدّ من وجود إبليس وأُناس يقعون بسوء اختيار منهم تحت تأثيره ويصبحون في عداد شياطين الإنس. ففي حالة وجود مثل هذا التدبير فسيتعرّض الجميع إلى امتحان عامّ وشامل، وسيخضع كلّ مكلّف لامتحان من دون أن يكون هناك أيّ جبر في المسألة. إذن فبالنظر إلى هذا التدبير العِلْويّ وأنّ تهيئة الأسباب والوسائل هي بمشيئة الله تعالى فإنّ هذا الأمر يُسند إلى الله جلّ شأنه في حين أنّه عزّ وجلّ لم يجبر أحداً على ذلك قطّ.

فتكون النتيجة أنّ كلّ واحد من هذه العوامل التي يُسند الفعل إليها يحمل مسؤوليّة ضمن حدود ما له من اختيار، لكنّ هذه المسؤوليّة لا تمنع أن يمهّد هذا العامل بفعله الاختياريّ أرضيّة لامتحان غيره. فهذا جواب كلّي وهو أنّ الشيطان

هو العامل من وراء هذا الامتحان، لكن بما أنّ الله كان يعلم بأنّه يحمل دافع الإغواء فقد جعله وسيلة للاختبار؛ بمعنى أنّ الله قد هيّأ المقدّمات بالطريقة التي تمكّن الشيطان من إغواء بعض الناس، لكنّه كما أنّ الله لم يجبره على ممارسة هذا الإغواء، فإنّ الشيطان لم يغو أحداً جبراً أيضاً. ومن هذا المنطلق فإنّه ليس من جبر في القضيّة، لكنّه ثمّة ثلاثة أنماط من الاختيار على ثلاثة مستويات. فالإنسان الذي قام بهذا العمل بإرادته هو مسؤول. أمّا الشيطان فقد أعانه على ذلك، لكنّ أيّاً من هذه الإعانة أو التزيين أو الوسواس من قبل الشيطان لم يكن ليسلب من هذا الإنسان اختيارَه، فقد كان قادراً على المقاومة. فالمرء مسؤول بمقدار ما كان له من قدرة واختيار على الرفض؛ فلو افترضنا أنّ هذا الشخص كان مسلوب الاختيار تماماً، فلن تترتّب عليه أيّ مسؤوليّة، لأنّ المسؤوليّة تتبع اختيار المرء وقدرته على القيام بالفعل. فأينما وُجدت القدرة توجَد المسؤوليّة أيضاً، والقدرة موجودة ضمن هذه المستويات الثلاثة: فالشيطان قادر على إغواء الإنسان، وهذا الإنسان أيضاً له القدرة على أن يكون بإرادته خادماً مطيعاً للشيطان ويضع نير الذلّ والعبوديّة له في رقبته. فالمدمن على المخدّرات ـ مثلاً ـ لم يجبره أحد على إدمانه، فبمقدار ما للشخص من إدراك واختيار فهو مسؤول. وحتّى إذا وسوس له الشيطان فإنّ تلك الوسوسة ليست بالشكل الذي يجبره ويسلبه إرادته. ولذا ففي الوقت الذي يكون الشيطان عاملاً من عوامل الامتحان، فهو ليس مسلوب الاختيار ولا معفيّاً من نتائج فعلته، ومن حيث إنّه أذنب وخالف أمر الله تعالى فهو سيعذَّب لا محالة.

وبعبارة أُخرى: فإنّه يتعيّن الفصل بين منظومتَي التكوين والتشريع. فحيثما كان التشريع وكان القانون الإلهيّ، فسيكون أمر الله ونهيه، ويكون الثواب أو العقاب تابعاً لذلك. فعندما قال الله عزّ وجلّ للشيطان: إنّ عليك أن تسجد

لآدم، ولا يجوز لك إضلال عبادي، فهذا يندرج ضمن نطاق التشريع. أمّا في منطقة التكوين فإنّ الشيطان يمارس دوره ويغوي الناس ويضلّهم، وهو ـ لهذا ـ يكون محطّ لعن الله تعالى. فقد أراد الشيطان بعد ستّة آلاف سنة من عبادة الله أن يتوقّف عن طاعته. فبعد ستّة آلاف سنة من عبادة الله وعدم عصيانه شاء بإرادته ـ نتيجة ما داخل قلبه من حسد لآدم عليه السلام وما أصابه من الكبر ـ أن لا يطيع الله بعد الآن. فهو مسؤول تجاه هذا العصيان، وإنّ من تبعات عصيانه أن يضلّ بعض عباد الله أيضاً. لكنّ أُولئك الذين ضلّوا لم يكونوا مجبرين على ضلالهم، فقد اتّبعو الشيطان بمحض رغبتهم.

ومن هنا فما دام كلّ فاعل من هؤلاء مختاراً ضمن حيّز عمله، فهو مسؤول، ولا يتنافى ذلك مع وجود فاعل آخر في طول هذه الفواعل يمكن إسناد هذا الفعل إليه أيضاً. ولكن من حيث إنّ هذا الإسناد لا يسلب من الفاعل اختياره، فهو لا يعفيه من المسؤوليّة أيضاً.

الفصل الثالث

ماهية أصحاب الفتنة وكيفية نشوء الفتن الاجتماعية

مقدّمة

لقد اتّضح فيما تقدّم الجواب على السؤال الأوّل. وقد قلنا إنّ هناك فتناً وإنّه ثمّة مَن يمارس الفتن. لكنّ السؤال هنا هو: من هم أصحاب الفتنة؟ وما هي السبيل التي يتّبعونها لتنفيذ خططهم الدنيئة؟ فهذه أُمور يكتنفها بعض الإبهام، وهذا الإبهام هو من خصوصيّات الفتنة. فالمشكلة التي تواجَه في الفتنة هي أنّه من غير المعلوم ـ منذ البداية ـ من هم أصحاب الفتنة، وما الذي ينوون القيام به، وما المآرب التي يهدفون إليها، وما الذي سيتكبّده المجتمع من خسائر جرّاء ذلك؟ يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد: «**إنّ الفتن إذا أقبلَتْ شبّهَتْ وإذا أدبرَتْ نبّهَتْ**»[1]. فالفتن عند ظهورها تبعث على الشبهة والخطأ؛ أي إنّها تفتقد الشفافيّة وتكون مقرونة بالشبهات والإبهامات فتوقع الناس في أخطاء، لأنّها لا تكشف عن نفسها. وكذا حال أصحاب الفتنة فإنّهم لا يكشفون أوراقهم ولا يقولون: إنّنا في صدد إدخال الناس في فتنة؛ وإلّا لما عُدّ الأمر فتنة، ولأضحى حرباً علنيّة.

إنّ لأصحاب الفتنة ميزاتٍ شخصيّة خاصّة، كما أنّ لأفعالهم خصوصيّاتٍ معيّنة. فإذا كان أصحاب الفتنة لا يكشفون عن أنفسهم، وإذا كانت الفتنة تأتي عادة مقرونة بالشبهات والجهل والغفلة والتشابه، فما الذي نصنع إذن لنشخّص الفتنة أوّلاً، ونقف على ماهيّة نشاطات أصحابها ثانياً لنتمكّن من اتّخاذ الموقف

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٩٣.

المناسب في مواجهتهم وأداء تكليفنا على أحسن وجه؟ وبعبارة أبسط: كيف نعرف الفتنة؟ فالفتنة إن عُرفت عُرف مثيروها؛ هذا على الرغم من أنّ مثيري الفتنة قد يخفون أنفسهم.

بالطبع إنّ تشخيص عامل الفتنة أمر صعب، وهذه الصعوبة في التعرّف على الفتنة وأصحابها تعود إلى التجربة العريقة التي يمتلكها إبليس في هذا المضمار. فلو كان إبليس قد وُلد اليوم لَشكّل خطراً جسيماً علينا، فكيف به وقد كان منذ زمان آدمعليه السلام وعاش جميع مراحل الحياة البشريّة وهو يعلم ماذا يصنع. وحتّى لو لم يكن مطّلعاً على بعض الأُمور حينها فهو قد تعلّمها من خلال التجربة. فإنّ السبب في اهتمام الروايات البالغ بفتن آخر الزمان يرجع إلى كونها غاية في التعقيد وغير قابلة للتشخيص بسهولة.

أُسلوب البحث حول الفتن الاجتماعيّة

هناك أُسلوبان للخوض في البحث حول مثل هذه المسائل: أحدهما هو الأُسلوب التحليليّ، والثاني هو الأُسلوب التاريخيّ. والأخير هو أُسلوب استقرائيّ تقريباً يقوم المرء من خلاله بالمطالعة في بعض فتن التاريخ ليكتشف منشأها، وكيفيّة نشوبها، ومَن كان له دور فيها، وما الأساليب التي اتُّبعت لبثّها، وما هي النتائج المترتّبة عليها. هذا على الرغم من أنّه إذا أراد المرء أن يحصل على النتائج المرجوّة من قضايا التاريخ فهو بحاجة إلى تحليلها أيضاً. أمّا خاصيّة البحث التحليليّ فهي أنّ الإنسان إذا سبر غور قضيّة بشكل جيّد فسيفهم كيف يجب أن تكون وما هي الأحوال التي ينبغي للبعض أن يكونوا عليها. هذا مع أنّ تحليل قصّة، أو قضيّة، أو واقعة يختلف عن تحليل ظاهرة اجتماعيّة اسمها الفتنة.

أمّا ما نودّ الخوض فيه الآن فهو اعتماد الأُسلوب التحليليّ، ولنطرح في البدء السؤال التالي: كيف تنشأ الفتنة؟ وبالرجوع إلى المباحث التي سبق أن تناولت تعريف الفتن الاجتماعيّة فإنّ الفتنة الاجتماعيّة هي عبارة عن حوادث معقّدة تبعث على حالة من الضبابيّة في أجواء المجتمع وتخلق للبعض مشاكل غير مرغوب فيها، خلافاً للفتن الفرديّة والامتحانات الشخصيّة التي لا تتطلّب هذه المقدّمات ولا تستوجب هذه اللوازم؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾[1]، فإنّ كلّ مال يكون في حوزة الإنسان فهو وسيلة للاختبار لكنّه لا ينطوي على خصوصيّات الفتنة الاجتماعيّة. فالفتن الاجتماعيّة تبدأ من نقطة معيّنة؛ وهي أنّ أشخاصاً يحملون دوافع خاصّة ويسعون إلى تحقيقها ويرون أنّ السبيل لذلك هو إثارة حالة من البلبلة في المجتمع ـ ولا نقصد هنا البلبلة المحسوسة تحديداً، بل إنّها تشمل خلق أيّ حالة من حالات الإبهام والفوضى والهرج والمرج ـ ليتمكّنوا في خضمّ هذه الفوضى من تحقيق مآربهم. وهم يستغلّون في هذه السبيل أُناساً إمّا بإبرام اتّفاقيّة معهم عن علم كامل ووعي من الأخيرين أو بالإيقاع بهم في حبائلهم عن غير وعي منهم من أجل العمل وفقاً لمصالحهم. فهم يخطّطون ويعملون على تنفيذ ما خطّطوا له بشكل تدريجيّ. وهم لا يكتفون بوضع خطّة واحدة، بل يضعون خططاً متعدّدة حتّى إذا فشلت الأُولى نفّذوا الثانية، ثمّ الثالثة وهكذا إلى أن يحقّقوا مبتغاهم. وفي معمعة هذه التيّارات يسقط بعض الأشخاص ـ سواء بمحض إرادتهم أو رغماً عنهم ـ في هذا الفخّ ويتكبّدون الخسائر؛ إمّا على صعيد المال، وإمّا على صعيد العرض والكرامة ممّا يُعدّ أشدّ من الأوّل، حيث يُصار

---

(١) **سورة الأنفال**، الآية ٢٨.

فيه إلى تشويه المكانة الاجتماعيّة التي يتمتّع بها الفرد أو الجماعة والعمل على اغتيال شخصيّاتهم، أو إنّه ينتهي إلى خسارة في الأرواح والقتل. وحتّى الخسارة في الأرواح فإنّ لها مراتبَ أيضاً؛ فتارةً تؤدّي الفتنة إلى قتل شخص أو شخصين أو جماعة معيّنة، وتارةً أُخرى إلى اشتعال حرب طاحنة تهلك الحرث والنسل وتبيد شعباً بأكمله. فهذه هي المراحل المختلفة للفتنة.

أمّا مقوّمات الفتنة فهي أُمور تحدث بشكل هادف لخلق جوّ من الفوضى والضبابيّة فيتضرّر فيه بعض الناس ويسعى في ظلّه المخطّطون الأصليّون للفتنة إلى نيل مآربهم وآهدافهم. فتارةً يكون هدف أصحاب الفتنة هو المال، وتارةً أُخرى المكانة الاجتماعيّة، وتارةً ثالثة التعصّبات الشخصيّة والقوميّة حيث يكون السبيل لبلوغ تلك الأهداف هو الإيقاع بين مختلف الأشخاص؛ كتعصّبات الجُهّال ممّن يسمَّون بالوهابيّين أو السلفيّين. فأكثر الأوصاف أدباً لأمثال هذه الجماعات هي الجهل وهو ما أُصيبوا في ظلّه بالعصبيّة والتوغّل في هذا الطريق إلى حدّ الاستعداد للانتحار وقتل النفس. فقد لا يصيب أمثال هؤلاء منفعة ماليّة أو مكانة اجتماعيّة؛ لأنّ الذي يقتل نفسه لا يتوقّع جرّاء ذلك مالاً أو جاهاً، بل يتوقّع إصابة الأجر الأُخرويّ جرّاء ذلك، أو إنّه يثلج صدره بالانتقام من الآخرين ليحدّث نفسه بأنّه قد سحق عدداً من الأعداء. فهذا التخيّل أو التصوّر بحدّ ذاته ـ وهو قتل جماعة من المخالفين ـ يُعدّ قيمة بالنسبة له.

أشكال التخطيط والبرمجة

يحتاج العمل الاجتماعيّ وحتّى الفرديّ إلى مقدّمات لابدّ من التحضير لها مسبقاً. فالمطّلعون على لوازم العمل يخطّطون له ويمهّدون لمقدّماته قبل البدء به كي

يفيدوا منها في الوقت المناسب. وقد تقع أحياناً أحداث لم يتمّ التفكير فيها أو التخطيط لها مسبقاً لكنّها ـ من الناحية العمليّة ـ تساعد في إنجاز هذه المهمّة. فالمزارع ـ على سبيل المثال ـ يقوم في فصل معيّن بحرث الأرض وقلع الأعشاب الضارّة منها ثمّ يسمّدها وينثر فيها بذور الحنطة ويسقيها إلى أن ينضج المحصول ويأتي أوان جنيه فيقوم بحصاده وإجراء الخطوات اللازمة الأُخرى عليه لينتفع منه. فهو يضع في حسبانه ما يتسنّى حسابه ويخطّط لكلّ ما يريد فعله بحيث يكون كلُّ شيء في وقته. لكن قد يحصل أيضاً ما لم يكن في الحسبان فتكون النتيجة لصالحه أو في غير صالحه؛ كأن يهطل مطر لم يكن يتوقّعه فيكون لصالحه تماماً، أو قد تهطل أمطار غزيرة تُحدث فيضاناً يأتي على كلّ مزرعته ويُتلف المحصول. فهذه مجرّد أحداث غير متوقّعه، لكنّ المزارع وفقاً للعقل يخطّط في العادة لما يريد فعله مسبقاً. فنحن عادةً إذا أردنا أن نعرف ما إذا كان حدثٌ مّا قد وقع نتيجة تخطيط مسبق أو مصادفة فإنّنا نتقصّى ما حدث من ظواهر، فإن شاهدنا أنّ عدداً من الظواهر قد حدث بشكل متعاقب أو متزامن وأثّرت إحداها على الأُخرى وآلت إلى نتيجة معيّنة استنتجنا من ذلك أنّه ثمّة تخطيط وتدبير في المسألة. ففي مثال المزرعة نلاحظ أنّ هناك عمليّةً دقيقة قد تمّت منذ حراثة الأرض وحتّى أوان الحصاد. ولأنّ أعمالنا اليوميّة هي ـ إلى حدّ ما ـ على هذه الشاكلة أيضاً فسنكون واثقين من أنّ جني المحصول من هذه الأرض لابدّ أن يكون قد تمّ جرّاء تخطيط وتدبير. وكذا الحال عندما يقوم أُناس بحفر أرض. فالأطفال مثلاً، ولأنّهم غير مطّلعين على الأُمور، قد يتعجّبون من حفر هذه الأرض ولا يعرفون العلّة منها. لكنّه لا تمرّ فترة حتّى توضَع أُسس البناء ويعلو البنيان وقد يستغرق سنوات عديدة حتّى يكتمل. فعندما يكتمل بناء البناية سيفهم الجميع السبب من وراء الحفر الذي جرى قبل بضع سنوات.

كما أنّ التخطيط وتحضير المقدّمات لابدّ أن يتناسب مع النتيجة المرتقبة من ذلك. فالبناية التي من المقرّر أن تبقى قائمة مائة عام تحتاج إلى تخطيط وتدبير خاصّ، وكذا فإنّ العريش أو المأوى الذي يُعدّ للّجوء إليه لأيّام أو أشهر معدودة فإنّه يخطَّط له على نحو آخر. إذن فالتخطيط يأتي متناسباً مع الأهداف الموضوعة، سواء من حيث الكادر اللازم لذلك أو من حيث الزمان المخصّص للتخطيط وتهيئة المقدّمات. فقد تكون البرامج والخطط أحياناً طويلة الأمد وتستهدف أُموراً ضخمة بحيث يتعيّن الترتيب لمقدّماتها عبر عدّة أجيال؛ كأن يعمل جيل معيّن على التخطيط لمقدّمة معيّنة والعمل على توفيرها، ثمّ يأتي الجيل التالي ليكمل هذا البرنامج حتّى يأتي الجيل الثالث ليجني الثمار منه. والتاريخ يحدّثنا عن نماذج من هذه الأعمال والتخطيطات ممّا لا يسعنا هنا سردها لكون بحثنا غير تاريخيّ. كما وقد يخطّط أُناس لأمرٍ مّا أو يُقدِمون على شيء معيّن وعلى الرغم من عدم مشاركة الآخرين في هذا الأمر لكنّهم يشجّعون المخطّطين له أو القائمين عليه ممّا يُعدّ شكلاً من أشكال المشاركة أيضاً.

وحدة الدافع والرضا يعملان على ترابط الأجيال

يُستشفّ من الآيات القرآنيّة والأحاديث الشريفة أنّ حالة التضامن بين الطوائف والأجيال البشريّة لا تأتي من مشاركتها في تنفيذ الخطط والبرامج حصراً بل تعود إلى أمور تفوق ذلك. فالقرآن الكريم يخاطب يهود عصر النبيّ الكريم ﷺ بالقول: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1] ولا

---

(١) سورة البقرة، الآية ٩١.

يقول لهم: «فلِمَ قتلتم؟»، في حين أنّه لم يكن في زمان الرسول الأعظمﷺ ولا بعده أنبياء كي يقتلوهم وإنّ هذا الموضوع منتفٍ أساساً. إذن فما المراد من هذا الخطاب؟

الجواب على هذا السؤال قد جاء في كلام أمير المؤمنينعليه السلام عندما قال: «**إنّما يجمع الناسَ الرضا والسُّخطُ، وإنّما عقَر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا**»[1]؛ فإنّ ما يجمع الناس وما يجعل لهم حُكماً واحداً ويحتّم التعامل معهم بشكل واحد هو رضاهم وسخطهم. فكلّ ما يوجب رضا الجميع أو ما يوجب سخطهم وعدم رضاهم فهو يجعلهم جميعاً شركاءَ بعضِهم في هذا الأمر. ثمّ يستدلّ الإمامعليه السلام بالقرآن فيقول: عندما دعا نبيّ الله صالحعليه السلام قوم ثمود إلى دين الله طالبوه بمعجزة وهي أن يُخرج لهم من جوف الجبل ناقة، ففعلعليه السلام ذلك وقال لهم عن الله تعالى: هذه الناقة أمانة إلهيّة فيكم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾[2]، بل وقد أكّد حتّى على موضع شربها للماء بأنّه حينما تأتي لشرب الماء فلا يزاحمنّها أحد عليه. لكنّ قوم صالح اجتمعوا وعقروا الناقة فنزل عليهم العذاب من الله. وقد ذُكرت هذه القصّة في آخر سورة «الشمس» حيث قال عزّ من قائل: ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا * وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾[3]. يقول أمير المؤمنينعليه السلام: الذي عقر ناقة صالحعليه السلام (أي قطع يديها ورجليها بالسيف)

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٠١.

(٢) **سورة هود**، الآية ٦٤.

(٣) **سورة الشمس**، الآيتان ١٤ و ١٥.

كان رجلاً واحداً لكنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي عقرها جميع قوم صالح، وقد عذّبهم الله بسبب ذلك جميعاً. فلمّا كان عاقر الناقة شخصاً واحداً فلماذا عذّبهم الله تعالى جميعاً؟ يقولعليه السلام: «**فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا**»، فلمّا وافقه جميع الناس ورضوا بجريمته فقد شاركوه في العذاب أيضاً، وقد أشركهم الله في العذاب بسبب رضاهم بفعلته؛ بحيث إنّه لو لم يعقر ذلك الرجل الناقة لعقرها غيره. إذن فقد كان العمل عمل قوم صالح لكنّ شخصاً واحداً منهم هو الذي تصدّى لتنفيذه. إذ يقولعليه السلام في موضع آخر: «**الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم**»[1].

فإنّ جماعة من بني إسرائيل قد قتلت نبيّاً لهم قبل ألف عام، لكن القرآن الكريم يخاطب بني إسرائيل المعاصرين للنبيّصلى الله عليه وآله فيقول: لماذا تفعلون ذلك؟ ولا يقول: لماذا فعلتم ذلك؟ يقول: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾، أي إنّ حالكم كحال آبائكم. وإنّ مدى طرح هذه المسألة في عرف العقلاء وفي النصوص الدينيّة هو إلى درجة ذهاب بعض علماء الاجتماع إلى القول بأنّ لكلّ قوم روحاً خاصّة تتعلّق بجميع أفرادهم[2]. وهذه حقيقة وهي أنّه إذا اشتركت قلوب قوم في أمر مّا اشترك هؤلاء القوم من حيث المديح والذم، أو حتّى من حيث الرحمة والعذاب أحياناً.

---

(١) **نهج البلاغة**، الحكمة ١٥٤.

(٢) هذه نزعة موجودة بين علماء الاجتماع وقد صُنّفت كتب في هذا الباب، ويبدو أنّ أحد هذه الكتب الذي يحمل عنوان: «روح الشعوب» قد تُرجم قبل خمسين سنة إلى الفارسيّة. لكنّنا نتصوّر أنّ هذا الاعتقاد ينطوي على بعض المبالغة.

وقد ذكرتُ هذه المسألة لأُؤكّد على أنّه عندما نقول: لقد تمّ التخطيط والبرمجة للظاهرة الاجتماعيّة الفلانيّة فهذا لا يعني أنّ أشخاصاً جلسوا للتخطيط لها بالأمس ونفّذوها اليوم، فقد يكون المخطَّط قد وُضع منذ خمسين عاماً. وكذا فعندما نقول: لقد خطّط عدد من الأشخاص لظاهرة معيّنة ونفّذوها فلا يعني ذلك بالضرورة أنّهم هم الذين قاموا بتنفيذها، فقد يقوم غيرهم بتنفيذها عمليّاً؛ بمعنى أنّ بعضهم قد قام بإعداد مقدّمات تنفيذ الأمر كي يُصار إلى تنفيذه. كما قد تقسّم المشاريع الضخمة إلى عشرات أو حتّى مئات المشاريع الصغيرة، فعندما يقرَّر إنجاز مشروع ضخم فقد يقسَّم المشروع بين عدّة شركات تنفّذ كلّ شركة قسماً منه. وسيتضمّن كلّ قسم خطّة عمل، ورصد أموال، وأُموراً مستقلّة عن غيره؛ لكنّ جميع الأقسام تكون مرتبطة مع بعضها البعض وتشكّل بمجموعها مشروعاً كبيراً شاملاً؛ بالضبط كقطع الأُحجيّة التي لا يبدو لكلّ واحدة منها بمعزل عن الأُخريات مفهوم واضح، لكنّه عندما تُصَفّ جميع القطع بجانب بعضها على نحو معيّن فإنّها تشكّل مجموعة منسجمة ومترابطة؛ أي عندما تكون الخطّة الجامعة لصفّها موجودة ويُعمل على جمعها مع بعضها بوضع كلّ قطعة في مكانها المخصّص لها فسيفهم المرء حينها أنّ عمليّة صفّها قد جرت ضمن خطّة معيّنة.

هذا الكلام إنّما يُطرح في مواجهة آراء مَن ينكرون حصول الفتنة[1]؛ إذ يعتقد هؤلاء أنّ الأمر كان مجرّد أحداث وقعت، حيث رشّح البعض لمنصب رئاسة الجمهوريّة فقام عدد منهم بإثارة بعض الصخب وليس هناك أيّ ارتباط لهذه القضايا

---

(١) يُقصد هنا تلك الفتنة العظيمة التي حصلت في الجمهوريّة الإسلاميّة بعد انتخابات رئاسة الجمهوريّة في عام ٢٠٠٩م.

مع بعضها، بل لم يكن للقضيّة أساساً أيّ علاقة بالنظام الإسلاميّ أو بالإسلام أو بغيرها من الأُمور. لكن لو كان الأمر كذلك إذن فلماذا قيل كلّ ما قيل؟ ولماذا تعرّضوا للمشاركين في عزاء سيّد الشهداء عليه السلام؟ ولماذا أنكروا صاحب الزمان عجل الله فرجه؟ فالأشخاص الذين يتمتّعون بالبصيرة يرون أنّ هذه القضايا كانت تمثّل أجزاء أُحجيّة واحدة تمّ التخطيط لها منذ أمد بعيد وقد صُفّت كلّ قطعة من قطعها في مكانها المناسب فترابطت جميعها فيما بينها. فإن أنكر أحد ذلك لأيّ سبب من الأسباب وشكّك في هذا الأمر فإنّ لدينا طريقاً أبسط لإثبات ذلك وهو أنّ هناك مخطِّطاً هو وراء البشر، ألا وهو إبليس. فلقد أقسم منذ آلاف السنين: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١). كما أنّه، وبالنظر لما يمتاز به من فطنة وما تراكم لديه من تجارب خلال آلاف السنين من حياة البشر، فقد صار أشدّ حذقاً من ذي قبل. فإبليس هذا الزمان يختلف عن إبليس زمان آدم عليه السلام كثيراً. فإنّ وضْعَ خطّة يستغرق الإعداد لمقدّماتها مائة عام وتنفيذها يُعدّ أمراً بسيطاً بالنسبة له، بل ولا عجب إذا عمد إلى التخطيط لخطّة كهذه وهو الذي يريد أن يضلّ جميع البشر إلى يوم القيامة. فإن لم يكن في وسعنا إثبات أنّ الناس هم الذين خطّطوا وأعدّوا لهذه المؤامرة ونفذّوها على الأرض، فليس في وسعنا إنكار أنّ إبليس يمكن أن يكون ضالعاً في ذلك.

عناصر الفتنة

الأوّل. المخطّطون لها: يُعدّ المخطّطون للفتنة، الذين يضعون البصمات الأُولى لها، العوامل الأساسيّة للفتنة. فهم يسعون من خلالها لتحقيق أهداف تكون ـ شئنا أم أبينا ـ ذات منفعة لهم، أو فلنقل ـ على الأقل ـ إنّها تقيهم الخسائر

(١) **سورة الحجر**، الآية ٣٩.

والضرر. فإنّ من جملة عناصر الفتنة هي أن يحاول أشخاص يحملون مثل هذه الأهداف تحقيق مآربهم من خلال إثارة الضباب في الأجواء أو تعكير المياه.

الثاني. القائمون عليها والمباشرون لها: فالعنصر الثاني من عناصر الفتنة هم أُولئك الناس الذين يتمّ استخدامهم في هذه السبيل؛ إمّا عن طريق خداعهم أو بشراء ذممهم وجعلهم مرتزقة.

الثالث. النخب العديمو البصيرة: العنصر أو العامل الثالث في خلق الفتنة أو نشرها والعمل على اتّساعها هم الأشخاص الذين لا يحملون نيّات سيّئة ولا يسعون وراء أهداف مادّية أو دنيويّة أو شيطانيّة. فهم قد يُقدِمون على مثل هذا العمل بنيّة خير، وفوق ذلك فهم قد يقومون بأمر بنيّة أداء التكليف الشرعيّ المحض أو لربّما يتفوّهون بكلام حقّ؛ كأن يعبّروا عن حقيقة لكنّ تعبيرهم عنها يكون في زمان أو مكان أو كيفيّة تصبّ في صالح أصحاب الفتنة وتعينهم على جني النفع منها. فالحقائق في العالم كثيرة لكن لا ينبغي قول كلّ شيء في أيّ مكان وأيّ زمان. إذن فقد يتورّط أحياناً أشخاص صالحون يحملون دوافع حسنة، على خلفيّة الجهل وقلّة البصيرة، بالنطق بكلام ليس في محلّه والقيام بعمل غير مناسب يكون له دور في خلق الفتنة أو نشرها[1].

أسهل الطرق لمعرفة مثيري الفتنة

إنّ أبسط السبل لمعرفة الفتن وأصحابها هي معرفة الصفات العامّة لها

(١) ناهيك عن العناصر البشريّة الثلاثة المذكورة آنفاً والتي تكون ذات أثر في تحقّق الفتنة وظهورها فإنّ الأوضاع الاجتماعيّة والطبيعيّة يمكن أيضاً أن تمهّد للفتنة، وهو ما سنشير إليه إذا توفّر الوقت الكافي ووفّقنا الله تعالى إلى طرح البحث بشكل أوسع وأعمق.

ولأصحابها وتطبيقها على الموارد المشكوك بها. فحيثما انطبق المورد المشكوك به مع هذه الصفات أمكننا حينئذ التشخيص بأنّ هناك فتنة، أو على الأقلّ احتمال الفتنة، ولابدّ من إعداد أنفسنا لها. وإذا كان المرء يعرف من حوله مَن هم أشدّ الناس تقوىً وأكثرهم فهماً وبصيرةً في الدين وهم أهل للثقة أكثر من غيرهم فبإمكانه فهم الكثير من الأُمور بمساعدتهم وإرشاداتهم. بطبيعة الحال إنّ العثور على أشخاص كهؤلاء ليس بالأمر اليسير(١).

الخصوصيّات النفسيّة لرؤوس الفتنة

إنّ لكلّ من أصحاب الفئات الثلاث المذكورة ممّن لهم دور في خلق الفتنة أو توسيع دائرتها ميزاتٍ نفسيّة وشخصيّة معيّنة. فعلى الرغم من أنّ لجميع هؤلاء الأثر في بثّ الفتنة واتّساع نطاقها فإنّهم لا يتشابهون من حيث الميزات الشخصيّة والنفسانيّة. ولا بأس في أن نشير في البداية إلى ميزات رؤوس الفتنة.

---

(١) علينا أن نشكر الله جزيل الشكر على أنّنا نعيش في عصر قد عرّفنا فيه على الإمام الخمينيّ﵀. فعلى الرغم من أنّه﵀ لم يكن من المعصومين الأربعة عشر فقد كان يمتاز بأُفق واسع وفكر وقّاد وفراسة عظيمة وتقوى ممتازة وبصيرة عميقة ممّا يصعب في الحقيقة العثور على مثيل له. فإنّ التعرّف على مثل هذا الشخص بعد معرفة الأئمّة الأطهار﵈ يُعدّ من النعم العظيمة جداً؛ فنحن نقول في زيارة الإمام الحسين﵇ يوم عاشوراء: «**فأسأل الله الذي أكرمني بمعرفتكم ومعرفة أوليائكم**». فمعرفة أولياء الله وأولياء أهل البيت﵈ تُعدّ من أعظم النعم. فنحن نشكر الله آلاف آلاف المرّات على أنّنا نعيش في برهة من الزمن عرفنا فيها هذا الشخص؛ ونشكر الله آلاف المرّات أن عرّفنا بعد رحيل الإمام بشخص هو نسخة طبق الأصل منه (الإمام الخامنئيّ حفظه الله). إذن نحمد الله تعالى على أنّنا نملك السبيل لتشخيص الفتنة وأصحابها وأنّنا نعلم مَن الذي ينبغي علينا اتّباعه لاتّقائها.

١. الاستعلاء والطموحات العريضة

الاستعلاء والطموحات العريضة تُعدّ من أهمّ خصوصيّات أهل الفتنة. فالذين يقنعون ببسيط العيش ولا تتعدّى هممهم حدّ توفير الماء والغذاء والحياة الهادئة فإنّهم لا يطيقون الاصطدام مع الآخرين ولا يكونون من أهل الفتنة، وهم لذلك لا يخلقون للمجتمع مشاكل تستحقّ الذكر. فالعامل المحرّك لمثيري الفتنة هي روح الاستعلاء التي لديهم. فالقرآن الكريم يقول بحقّ فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾[1]. فقد طُرحت قصّة موسى عليه السلام وفرعون في بداية سورة القصص بتفصيل وتحليل خاصّين، وإنّ الخصيصة التي تميّز طريقة بيان القصّة في هذه السورة عن بيانها في غيرها من السور هي طرح بعض الالتفاتات التحليليّة. فالقرآن الكريم يبدأ القصّة بالقول: إنّ سرّ ادّعاء فرعون للربوبيّة ووقوفه بوجه موسى عليه السلام واستعباده لبني إسرائيل وممارسته لما لا يُعدّ ولا يُحصى من أصناف الظلم والتعسّف يعود إلى ما يتّصف به من روح الاستعلاء. فلو كان فرعون قانعاً بحياة بسيطة ومريحة وبامتلاك البساتين ووسائل الترف والرفاهية لما ادّعى الربوبيّة. فهذا الادّعاء إنّما هو ناشئ من روح التعالي وحبّ الاستكبار على الجميع. فلولا وجود هذا الدافع لدى الإنسان فإنّه سوف لن يفكّر بالادّعاءات الضخمة والأعمال العظيمة.

فالفتن الاجتماعيّة هي أعمال عظيمة لا تصدر من أيّ أحد. فهناك فرق كبير بين الناس من حيث ما يمتلكونه من همّة. فبعض الناس لا يفكّرون إلّا بتلبية

---

(١) سورة القصص، الآية ٤.

رغباتهم الحيوانيّة ولا يرغبون بما فوق ذلك. يقول القرآن الكريم في أمثال هؤلاء: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] و﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[2]. ويقول فيهم أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «**كالبهيمة المربوطة همُّها علفها**»[3]، فهم كقطعان الخراف والأبقار التي تؤخذ إلى المرعى منذ الصباح الباكر فلا ترجع إلّا عند المساء. فالبهائم لا تفكّر إلّا في أكل علفها والاستراحة عند التعب والعودة إلى حضيرتها مع حلول الظلام. فأمثال هؤلاء ليس لديهم الهمّة لفعل شيء آخر. فهم إن بذلوا جهداً فلأجل البحث عن مرعى ليشبعوا بطونهم، وإن رافقوا أحداً فلأجل أن يمتصّوا ما عنده، وإن بحثوا عن المنصب والمقام فلكسب العيش. فأمثال هؤلاء في الأعمّ الأغلب لا يخلقون فتنة في المجتمع؛ أو فلنقل: ليس أنّه لا تنشأ منهم أيّ فتنة، بل إنّهم لا يتسبّبون بفتنة خطيرة. فمثيرو الفتن يمتازون بهمّة عالية. ففرعون على سبيل المثال كان يريد أن يعبده الناس كما يعبدون الله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[4]. ولا يبدر هذا التصرّف من كلّ أحد، لكنّ فرعون كان يتّصف بعلوّ الهمّة. فالذين يسعون لقيادة العالم والسيطرة على الكرة الأرضيّة بأسرها، من أمثال هتلر وغيره كانوا من هذا القبيل أيضاً.

علوّ الهمّة الإيجابيّ والسلبيّ

وهنا يُطرح السؤال التالي: إذا كان مثيرو الفتن من ذوي الهمم العالية، وأنّ

---

(١) **سورة الفرقان**، الآية ٤٤.

(٢) **سورة الحجر**، الآية ٣.

(٣) **نهج البلاغة**، الرسالة ٤٥.

(٤) **سورة النازعات**، الآية ٢٤.

أصحاب الهمم الهابطة لا تبدر منهم فتن خطيرة فهل إنّ مبدأ علوّ الهمّة هو أمر حسن أم قبيح؟

عندما يأمر قائد الثورة المعظّم (مُدّ ظلّه الوارف)(١) بمضاعفة الهمم فإنّنا نفهم أنّ علوّ الهمّة هو أمر حسن وأنّ علينا مضاعفة هممنا أضعافاً مضاعفة. إذن فكلّما كانت الهمّة أعلى فهو أفضل. وهذه من جملة الشبهات التي يستخدمها الشيطان في مغالطاته وهي شبيهة بإساءة استغلال الاشتراك اللفظيّ. فعندما قال القائد: ضاعفوا الهمم، لم يخطر ببال أحد ولم يحتمل أيّ شخص أنّه يقصد: فكّروا كما يفكّر هتلر أو أُولئك الذين قتلوا آلاف البشر بقنابلهم الذرّية! فمن الواضح أنّ المقصود من الهمّة هنا هي تلك التي تكون في المسير الإلهيّ الصحيح والمرضيّ من قبل الله تعالى. فإنّ أصحاب الهمم الهابطة لا يتقدّمون ولا يتطوّرون حتّى وإن وُضعوا في المسير الصحيح. إذن فأصل الهمّة العالية هي أمر حسن للغاية. لكنّ المهمّ هو: في أيّ سبيل سيستخدم المرء همّته؟ فإن هو استعملها في الطريق الصحيح فهو أمر حسن جدّاً، وإن استهلكها في السبيل المنحرفة، فهو أمر سيّئ للغاية. فالهمّة تعني الاهتمام بإنجاز أمر(٢). وعلوّ الهمّة هو أن يسعى الإنسان لنيل ما هو حسن جدّاً وأن لا يقنع بالقليل.

كما أنّ للهمم أنواعاً مختلفة؛ فالبعض يتمتّع ببعض مراتب الهمّة وهو يتألّق في كلّ عمل ضمن حدود معيّنة. فإن كان من أهل العبادة تعلّم كيفيّة الصلاة وأحكامها وراعى الواجبات والمحرّمات، ممّا يُعدّ مرتبة من الهمّة في الدين.

---

(١) آية الله العظمى الإمام السيّد عليّ الخامنئيّ.

(٢) الهمّ: ما هممتَ به في نفسك. تقول: أهمّني هذا الأمر. والهمّة: ما هممتَ به من أمر لتفعله. يقال: إنّه لعظيم الهمّة، وإنّه لصغير الهمّة (**كتاب العين**، ج٣، ص٣٥٧).

والمرتبة الأعلى من الهمّة، كما عند البعض، هي أنّهم لا يقفون عند حدّ أداء الواجبات وترك المحرّمات بل يتعدّون ذلك إلى العمل بالمستحبّات وترك المكروهات أيضاً. وهناك أيضاً من يرمي بطرفه إلى مقامات أعلى من ذلك ممّا يلزم البحث عن تفاصيله في موضع آخر.

وإنّ للإيمان مراتبَ عديدة فالتقدّم في طريق الإيمان يعتمد على مقدار همّة المؤمن. فبعض الناس لا يحمل همّة كبيرة وإنّ الحدّ الأعلى لهمّته يقتصر على الرضا والقناعة بعدم الخلود في جهنّم. لكنّ همّة البعض هي على جانب من العلوّ والعظمة بحيث لو كان الوصول إلى مقام النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام ممكناً لَطلب ذلك وسعى من أجله.

إذن فالهمّة العالية أمر حسن لكنّ موطن إنفاقها يعتمد على ما لكلّ فرد من منظومة قيميّة. فكلّ إنسان بما آتاه الله عزّ وجلّ من فطرة فهو طالب للكمال. فلم يخلق الله إنساناً لا يطلب الكمال والسعادة، لكنّ الناس يختلفون من هذه الناحية في عاملَين: الأوّل في رأيهم حول ماهيّة الكمال، والثاني في دوافعهم التي تختلف شدّة وضعفاً. فعلوّ الهمّة لدى أكثر الناس إنّما يتحقّق فيما يتّصل بأُمور الدنيا. فالكاسب العظيم الهمّة يريد أن يصبح ملياردير اً، أمّا الشخص الهابط الهمّة في هذا المجال فيقول: يكفي أن نعيش حياة مريحة ولا حاجة إلى القصور والبساتين والسيّارة الفلانيّة والطائرة الشخصيّة. لكنّ الشخص العالي الهمّة فإنّه لا يلهث وراء كلّ ذلك فحسب، بل يحاول الاستيلاء على أموال الآخرين أيضاً. هكذا يستعمل هؤلاء علوّ الهمّة. أمّا الهمّة العالية الصحيحة فهي أن نشخّص الكمال الحقيقيّ أوّلاً كي نسعى من أجل بلوغه. وهنا تختلف فتاوى أكثر أهل الدنيا ومَن هم من أمثالي عن الرؤية القرآنيّة. فنحن نتصوّر أنّ الدنيا ولذائذها

والمقامات والمناصب الدنيويّة كرئاسة الجمهوريّة والوزارة ونيابة البرلمان وغيرها من الأُمور هي مقامات عالية لابدّ من رفع الهمّة للظفر بها. أمّا القرآن الكريم فيقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(١). فإن كان هدفكم هو هذه الأُمور بعينها فهي لا تتعدّى كونها لعباً ولهواً ولا قيمة لها. إذن فأصحاب الهمم العالية الحقيقيّون هم أُولئك الذين يعرفون أوّلاً ما ينبغي أن يُطلب ويعلمون إلى أيّ مقام يمكن لابن آدم أن يصل وأيّ مكانة تغبطه عليها الملائكة قد أعدّها الله له وكيف وبأيّ وسيلة يمكنه بلوغها. فأُمور الدنيا إنّما هي وسائل وهي موجودة اليوم وغير موجودة غداً: «**الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب**»(٢).

فالهمّة التي تبعث على رقيّ الإنسان وعدم قناعته بأيّ حدّ من الكمال وتدفعه أينما وصل إلى طلب الصعود إلى مرتبة أعلى هي حسنة جدّاً. فلو علم أولياء الله أنّه سيُمَدّ في أعمارهم يوماً أو ساعة أو حتّى لحظة فسيجهدون في أن يُمضوا هذا اليوم أو هذه الساعة أو اللحظة غالباً في العبادة وطاعة الله عزّ وجلّ كي يظفروا بمقام أسمى من ذي قبل ولا يقنعون بأقلّ من ذلك. إذن فعلينا مضاعفة الهمم في الاتّجاه الذي يرضاه الله تعالى والمؤدّي إلى كمال وسعادة الفرد والمجتمع، لا في طلب الدنيا وحبّها.

والمراد من الهمّة العالية السلبيّة هي ما لا يكون في محلّه من الطموحات العريضة وهي ليست من شأن أيّ أحد. فالأشخاص الذين يسعون ـ في كلّ

---

(١) **سورة محمّد**ﷺ، الآية ٣٦.

(٢) عدّة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن يعقوب بن يزيد عمّن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قيل لأمير المؤمنين** عليه السلام: **عِظنا وأوجِز. فقال: الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب وأنّى لكم بالرَّوح ولمّا تأسّوا بسنّة نبيّكم، تطلبون ما يُطغيكم ولا ترضون ما يكفيكم**» (**الكافي**، ج٢، ص٤٥٩).

بلد ـ لنيل منصب رئاسة الجمهوريّة وتحمّل أعبائه وأخطاره هم معدودون. فلا يسعى الجميع مثلاً في بلد كالعراق لأن يكونوا «صدّام حسين». فقليلون هم الذين يمتلكون هذا النمط من التفكير ويكونون على استعداد لتحمّل كافّة الأعباء والمخاطرة في هذا السبيل. ففي أغلب المواطن فإنّ الذين يفوقون غيرهم كثيراً في طلب الجاه وفي ذروة مراحل هذه الصفة يكونون على استعداد لأن يتغاضوا عن جميع مصالحهم ولذائذهم وإنفاق كلّ ما يملكون، بل وأن يتظاهروا ـ إذا لزم الأمر ـ بالزهد والتقوى وتجشّم عناء الجوع والرياضات الروحيّة وطلاق أزواجهم كي يصلوا إلى الهدف الذي ينشدونه. فهذه الروح لا تتوفّر عند الجميع. فالذين يشكّلون الدرجة الثانية أو الثالثة من عوامل الفتنة ليسوا بحاجة إلى هذه الروح بل ولا تصدر منهم مثل هذه الأعمال، فلابدّ لصفات أُخرى أن تتوفّر في أمثال هؤلاء. أمّا رؤوس الفتنة وأقطابها الأصليّون فلابدّ أن يحملوا مثل هذه الطموحات كي يتمكّنوا من بثّ الفتن ويهيّئوا أنفسهم لمخاطرها.

زهد الإمام عليّ عليه السلام نموذج لعلوّ الهمّة الإيجابيّ

وإذا كان علوّ الهمّة حسناً في الأُمور الدنيويّة فذلك لأجل كونه وسيلة لإشاعة الدين، والتقرّب إلى الله، وحفظ عزّة الإسلام في مقابل الأعداء والكفّار وليس لكونها مطلوبة بذاتها. فإذا أصبحت نفس هذه الأُمور هي الهدف صارت لهواً ولعباً ولم يَعُد لها أيّ قيمة. فلو كان للأُمور الدنيويّة قيمة تُذكر لما عاش أمير المؤمنين عليه السلام بالصورة التي عاش عليها. فنحن لم تتكوّن في أذهاننا إلى الآن صورة واضحة عن حياة عليّ عليه السلام. لقد تربّع هذا الرجل على كرسيّ امبراطوريّة البلدان

الإسلاميّة؛ فباستثناء الشام التي كانت تحت سيطرة الأُمويّين، فقد كان عدد من البلدان الإسلاميّة الضخمة التي كانت تُعدّ من أهمّ بلدان العالم آنذاك كمصر والحجاز واليمن وحتّى بلاد فارس تحت سلطته. ومع ذلك كلّه فقد كان يشتمل في الصيف بقطعة من الصوف، وكانت نعله من ليف النخل، وأثر السجود على جبهته كركبة البعير. وكان يبرز إلى الناس ويرتقي الصخرة قابضاً على سيفه ليخطب فيهم وهو بهذا الحال. وبهذا الوضع كان قد أنشأعليه السلام خطب نهج البلاغة؛ بهذا الهندام والنعل ولباس الصوف! فلم يكن يرتقي منبراً مزخرفاً ولم يكن يلبس الحرير والديباج ولم يكن يحمل سيفاً مرصّعاً! وفي أوقات السحر حيث الناس نيام كان هذا الرجل يجهش بالبكاء ويخاطب الدنيا بهذه الكلمات: «**يا دنيا! يا دنيا! إليكِ عنّي، أَبِي تعرَّضتِ أم إليّ تشوّقتِ؟ لا حان حينك، هيهات غُرّي غيري لا حاجة لي فيكِ، قد طلّقتُك ثلاثاً لا رجعة فيها**»[1]؛ فهل جئتِ لخداعي؟ هيهات! فأنا لا أنخدع بك. اذهبي واخدعي غيري... فلو كانت الدنيا مطلوبة، لطَلَبها عليّعليه السلام. لكنّها إذا كانت وسيلة لإحياء دين الحقّ وسوق الناس إلى حيث قرب الله تعالى، وأخذ حقّ المظلوم من الظالم، فإنّ كلّ لحظة منها تستحقّ ثواب أسمى العبادات.

وخلاصة القول: فقد ذُمّت صفة الاستعلاء؛ كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]. فعبارة: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ هي نكرة في سياق النفي؛ بمعنى: أنّهم ما كانوا ليريدوا أيّ

---

(١) **نهج البلاغة**، الحكمة ٧٧.

(٢) **سورة القصص**، الآية ٨٣.

شكل من أشكال العلوّ. وقد جاء في الخبر أنّ مَن أحبّ أن يكون رباط حذائه أفضل من رباط حذاء صاحبه فإنّه يحمل درجة من درجات العلوّ[1]. أفتستحقّ أُمور من قبيل الحذاء والملابس الأفضل والأجمل والبيت الكذائيّ أن يبدّد المرء عليها تفكيره؟! إذن فالذي ينفع الإنسان هو مضاعفته الهمّة فيما يورثه الكمال ويرضاه الله وما يقرّبه منه عزّ وجلّ. ولا تعني «مضاعفة الهمّة» جعلها ضعفاً في الكمّ؛ إذ كلّما زادت الهمّة في الكمّ فهي قليلة. بالطبع هذا بشرط أن لا يتخلّل ذلك علوٌّ في الأرض واستعلاء دنيويّ. إذن فالهمّة العالية لا تكون حسنة إلّا إذا كان متعلّقها أمراً مرضيّاً.

٢. الذكاء المفرط

ليس بمقدور كلّ امرئ خلق الفتنة في المجتمع. فقد يكون للمرء أحياناً هدف لا يُنال بسهولة ولا يُظفر به بالسبل السويّة والشرعيّة، لذا فهو سيعمد إلى إيجاد طريق أسهل وأقصر يمكنه من خلالها الوصول إلى مبتغاه الدنيء بسرعة وبأقلّ قدر من العناء. ومن هنا فلابدّ لمثير الفتنة أن يتمتّع ـ بالدرجة الأُولى ـ بذكاء يفوق الحدّ المتعارف. فالذين خطّطوا للفتن ووضعوا لها حجر الأساس في العالم ـ سواء على صعيد العقائد، أو على مستوى السلوكيّات، أو في مجال القضايا السياسيّة والاقتصاديّة ـ قد امتازوا دائماً بذكاء حادّ. فالبلداء من الناس لا يستطيعون إثارة فتنة في المجتمع، والأشخاص السُذّج لا يمكنهم مباشرة الفتنة بأنفسهم وليسوا ممّن يبدر منهم مثل هذا التصرّف، هذا وإن أمكن تحوّلهم

(١) روَى أبو سلام الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّ الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية**». (**مجمع البيان**، ج٧، ص٤٢٠).

إلى أداة ووسيلة بيد غيرهم لإنجازها. إذن فإثارة الفتنة؛ أي التخطيط لها وتنفيذها ليس من شأن كلّ أحد.

طبعاً إنّ للذكاء أقساماً مختلفة، وقد قسّمه بعض علماء النفس إلى ثمانية أقسام. فالذكاء الذي نتناوله في بحثنا هو ذلك المستخدم في نطاق الشيطنة، ومناوأة القيم، وخلق حالة الفوضى في المجتمع؛ فلنقل: إنّ ذكاء بعض الناس يتنامى في هذا الاتّجاه. أنا شخصيّاً أعرف بعض المصاديق من أذكياء البلاد ممّن يتمتّعون بذكاء ذاتيّ وقد حصلوا على شهادات عالية. فهؤلاء كانوا في السابق يشغلون مناصب حسّاسة في البلد لكنّهم تركوا مناصبهم وسافروا إلى الخارج لينشغلوا لسنوات في طلب العلم لهذا الغرض (وأنا أدري إلى أيّ بلد قد ذهبوا وفي أيّ فرع درسوا) حتّى حصلوا على شهادة الدكتوراه ليكونوا قادرين على خلق فتنة. إذن فصاحب الفتنة يحتاج إلى ذكاء ذاتيّ أوّلاً، وإلى تنميته من أجل أن تتفجّر مواهب الذكاء عنده ثانياً. كما أنّ للذكاء مجاري مختلفة؛ فالبعض يمتاز بذاكرة قويّة، والبعض الآخر يتّصف بقدرته على التفكير بعمق شديد، كما أنّ للبعض الآخر ذكاءً على مستوى العلاقات؛ فباستطاعته تكوين علاقة مع الآخر بسرعة. فبعض الناس لا يدرون ماذا يقولون إذا جالسوا شخصاً، وكيف يكوّنون علاقة معه وهم يقضون هذه الفترة بالسكوت ليس تعمّداً منهم، بل لأنّهم لا يعلمون ما الذي ينبغي قوله. لكن هناك في المقابل مَن يبدأ بتجاذب أطراف الحديث منذ اللحظة الأُولى للّقاء وبمجرّد أن يتعرّف على نفسيّة الطرف المقابل فإنّه ينزل إلى الساحة ويسترسل في الكلام حتّى يجتذبه. فالذين يرسمون ويخطّطون للفتن الاجتماعيّة يمتازون كذلك بذكاء خاصّ. أمّا إذا تلقّى هؤلاء دروساً في كيفيّة ممارسة الفتنة وتمرّنوا عليها فسيصبحون أنفسهم شياطين بكلّ معنى الكلمة. ولقد أشرنا في البحوث السابقة إلى أنّ سيّد هؤلاء وأُستاذهم هو

إبليس الذي يتّصف بذكاء مفرط وتجربة تمتد آلاف السنين ممّا يجعل هؤلاء جميعاً يخفضون أجنحتهم أمامه ويخضعون له ويتتلمذون على يده!

٣. النفاق والتعامل بوجهين

السمة الثالثة لأمثال هؤلاء هي النفاق والظهور بعدّة أوجه والتمثيل أمام الآخرين. فإنّ للبعض قابليّةَ التعامل مع كلّ شخص بمقتضى طباعه؛ فهو يستخدم ذكاءه في تكوين العلاقات مع الآخرين فيظهر في كلّ موقف وبمقتضى كلّ زمان ومكان بمظهر معيّن. فعندما يتطلّب الموقف الظهور بمظهر العالِم المتّقي الزاهد فإنّ باستطاعته توفيرَ أسباب ذلك بسرعة وتقمّص هذه الشخصيّة. فالبسطاء منهم يطلقون اللحية ويحملون المسبحة ويتختّمون بالخاتم، أمّا الأكثر فطنة وشيطنة منهم فهم أكثر دراية بكيفيّة لعب هذا الدور والظهور بوجوه مختلفة. فهم يظهرون في موضع بمظهر المتديّن، وفي موضع آخر بمظهر اللاهي غير المبالي. يتزيّون في مكان بزيّ الراقصين والممثّلين السينمائيّين ويتشبّهون في موضع آخر بالمجاهدين والأتقياء. أي إنّ لهم وجوهاً مختلفة. فالذين يسعون وراء الفتنة لابدّ أن يتقنوا هذا الفنّ بالذات كي يتسنّى لهم التستّر وعدم التورّط في الفضيحة، بل وقد يمعنون في خداع الآخرين وتضليلهم بالقول: احذروا! فمن الممكن أن يعمد أشخاص إلى بثّ الفتنة ويتّصفوا بكذا وكذا. هؤلاء هم أنفسهم المثيرون الأساسيّون للفتنة لكنّهم، ومن أجل خداع الآخرين، يمثّلون وينسبون ما بداخلهم إلى غيرهم؛ كالسارق الذي ينذر الآخرين من خطر سرقة أموالهم في حين أنّ السارق هو نفسه وهو يحاول استغفال أصحاب الأموال بهذه الحيلة.

فالنفاق والتعامل بوجهين أو الظهور بعدّة أوجه ليست من الفنون التي يتقنها الجميع. وهذا يذكّرنا بالممثّلين الذين يؤدّون دورين في آن واحد؛ فهم

يتحدّثون ويجيبون أنفسهم في الوقت نفسه؛ لاسيّما أُولئك الذين يمارسون ألعاب الدُّمَى. فمن الفن أن يستطيع المرء أن يغيّر لهجته وشكله ودوره بسرعة ويتكلّم بطريقة أُخرى. كأن يتكلّم نفس الشخص ـ على سبيل المثال المحض ـ بلسان الطفل تارة وبلغة الكبير المجيب على كلام الطفل تارة أُخرى. فمن الحذاقة أن يجيد المرء عدّة أعمال ويتقن بضعة فنون في آن واحد. فبسبب قدرة هؤلاء على التخفّي فإنّهم ـ في الأعمّ الأغلب ـ لا يُكشَفون، لكنّه قد تتّضح الأُمور في النهاية ويظهرون على حقيقتهم بعد استكمال فصول الفتنة وذلك بعد أن يكونوا قد بلغوا مآربهم أو فشلوا في الوصول إلى مبتغاهم.

من أجل ذلك لابدّ أن يتمتّع ممارس الفتنة ـ كي يقتنع به المخاطَبون ويقبلوه ـ بقدرة خاصّة على التخفّي والتستّر، والتحايل والمخادعة، وتغيير الأوجه والظهور في كلّ مكان بمظهر معيّن؛ لأنّه إذا كشف عن نفسه منذ البداية وأفصح عن نيّته في خداع الناس وتعريض مصالحهم للخطر بغية تسليمهم إلى العدوّ فلن يسمع لقوله أحد. إذن يتعيّن عليه أن يظهر في مكان بمظهر الإنسان الورع المحبّ لأهل البيت عليهم السلام المقيم لعزائهم والباكي على مصائبهم، كي يقول الناس: أيّ إنسان صالح هذا! لكنّه في موضع آخر حيث يكون الجميع من حَمَلة الثقافة المعاصرة أو من المستنيرين فكريّاً، كما يُصطلَح عليهم، ممّن لا تربطهم بالدين صلة وثيقة، وهو يودّ التأثير عليهم واستمالة أصواتهم فهناك ينبغي عليه الظهور بمظهر المثقّف المجدّد والتكلّم بما يدغدغ مشاعرهم، والتصرّف بالشكل الذي يرضيهم. هذا النموذج من الأشخاص وبمقتضى الأجواء المحيطة تراهم يخوضون في السياسة تارةً، ويتكلّمون في العرفان طوراً، ويتحدّثون حول الفلسفة حيناً، ويعتمدون أُسلوب الفقهاء والفقاهة زماناً. فإن لم يتمكّن شخص واحد من لعب كلّ هذه

الأدوار، سعى أصحاب الفتنة إلى تشكيل حلقة أو جماعة من الناس وتخصيص كلّ عمل للرجل المناسب له كي يتسنّى لهم اصطياد فرائسهم في كلّ مكان.

فلو أنّنا درسنا مجريات الفتن بدقّة لوقفنا على صحّة هذا القول تماماً. فمن جملة الفتن المعروفة لدى الجميع هي كيفيّة ظهور المذاهب المختلفة بين الناس. فلو تقصّينا تاريخ الفِرَق الدينيّة في إيران ـ مثلاً ـ لتبيّن أنّ مثيري تلك الفتن كانوا في الغالب أشخاصاً مثّقفين وموجّهين ومقبولين في المجتمع وكانوا مميّزين للغاية ومن أصحاب الزهد والفهم. وإن لم يتمتّع بعضهم بهذه الصفات فقد كان أداة بيد أشخاص آخرين يحرّكونه من خلف الكواليس، ولم يكن هو سوى دمية في مسرح للدمى. فإذا عثرنا على أشخاص ضحلي الإدراك والفهم قد عملوا على إثارة البدع فذلك مؤشّر على كونهم أداة بيد غيرهم يحرّكونهم من بعيد. فمؤسّسو بعض الفِرَق في إيران كانوا أشخاصاً تظهر عليهم أمارات القداسة والزهد وكانوا يفضّلون العزلة والانزواء، بل وقد يكونون من مصنّفي الكتب العلميّة العميقة أيضاً لكنّهم تحوّلوا إلى مصدر لبزوغ مذهب أو ديانة منحرفة تملؤها الخرافات وتمكّنوا من خداع الكثير من الناس.

فالفتنة الدينيّة تصدر ممّن يحمل امتيازاً دينيّاً، وكذا الفتن السياسيّة فهي لا تصدر إلّا من المتميّز في هذا المضمار. وهذه قاعدة عامّة لا تحتاج إلى استدلال وبرهنة. إذن فمثيرو الفتن هم أشخاص يمتازون بمستوى من الذكاء والفهم يفوق متوسّط ذكاء وفهم أفراد المجتمع وقدرة فائقة على التستّر وتبديل الوجوه أو النفاق. فباستطاعة هؤلاء الظهور في كلّ مكان بمظهر معيّن واستمالة قلوب بعض الناس إليهم. فهذا هو الفنّ العظيم الذي يتقنونه وليس باستطاعة أيّ أحد القيام بذلك.

التعلّق بالدنيا سمة الوسطاء في الفتنة ومباشريها

المجموعة الثانية المؤثّرة في عمليّة الفتنة ـ وهم الوسطاء ـ فإنّهم ليسوا بحاجة إلى مثل تلك الطموحات العريضة والذكاء المفرط، كما أنّهم ليسوا مضطرّين كثيراً إلى التخفّي والنفاق. فمعظم هؤلاء هم أسرى الأهداف المادّية واللذائذ الحيوانيّة. بالطبع قد يُضمّ وسطاء آخرون لهؤلاء، لكنّه يتعيّن ـ من أجل أداء دورهم ـ أن يكونوا من عُبّاد المال واللاهثين وراء المصالح المادّية. فما يضمره أمثال هؤلاء في سويداء قلوبهم هو النهوض بحياتهم المعيشيّة الأمر الذي لم يفلحوا لحدّ الآن في إنجازه عبر طرق أُخرى، أما وقد تهيّأت الأرضيّة لذلك الآن فإنّهم يظفرون بالمال أو المكسب المنشود بشتّى العناوين والأسماء من خلال الإطراء على شخص أو شيء أو ذمّه في خطاب أو مقالة أو كتاب. فالميزة التي يتعيّن على هؤلاء امتلاكها هي التعلّق بلذّات الدنيا ومالها، وليس بالضرورة أن يتّصفوا بصفة أُخرى؛ ذلك أنّ مستوى مطالباتهم وهممهم أوطأ بالقياس إلى زعماء الفتنة. وحتّى على مستوى العمل فإنّهم يقومون بأعمال هابطة القيمة لا تحمل أيّ وجهة أخلاقيّة وقيميّة، اللهمّ إلّا إذا حاولوا ضمّ أُمور أُخرى إليهم كي تزيد في قابليّتهم على التأثير.

العناصر المرتزقة الأجانب يتّصفون بخصال ثلاث

يعمل أصحاب الفتنة على رصد الميزات الشخصيّة لمختلف الأشخاص. فالذي يتميّز بروح طلب الجاه والمقام يشكّل طُعماً دسماً لهم. فهم يقدّمون له عهوداً ويشترطون عليه شروطاً من أجل مساعدته في الوصول إلى هذه المكانة. ولأنّ مثل هذا الشخص يعشق هذه المكانة فإنّه سينفّذ كلّ ما يطلبون منه. فالطائفة الأُولى من عناصر أصحاب الفتنة المرتزقة هم من هذا القبيل.

الطائفة الثانية من هؤلاء هم عُبّاد المال، أمّا الثالثة فهم عبيد الشهوات واللذّات. فرؤوس الفتنة يعمدون إلى استخدام عناصر كهؤلاء لتحقيق مآربهم المختلفة.

قنص أصحاب الفتنة الدوليّين لطلبة بلدان العالم الثالث

إنّ من الحيل التي تمارسها البلدان المتسلّطة، كأمريكا والشياطين الأصغر التي تدور في فلكها والتي تحمل أفكاراً استعماريّة، هي رصد طلّاب بلدان العالم الثالث المنشغلين بالدراسة في جامعات الغرب وفتح ملفّات لهم لدراسة روحيّاتهم وميزاتهم. أمّا بالنسبة لمن يمتلك واحدة من السمات الثلاث التي مرّ ذكرها ـ أو يملكها جميعاً، وهذا أفضل ـ فسينظّمون له ملفّاً خاصّاً ويقدّمون له المساعدات ويربّونه كي يستخدموه في الوقت المناسب. وقد ذكرنا أنّ واحدة من هذه الخصال هي خصلة حبّ الجاه. وكنموذج على مثل هؤلاء هو أبو الحسن بني صدر[1]؛ فهو من جملة من رُصدوا منذ بدء دخولهم إلى فرنسا ونُظّم لهم ملفّ

---

(١) هو الرئيس الإيرانيّ المخلوع في أوائل عهد الثورة الإسلاميّة. هناك البعض ممّن يتحفّظ كثيراً من ممارسة الغيبة إلى حدّ أنّه إذا ذُكر أمامه: انّ أبا الحسن بني صدر، الرئيس المخلوع الفارّ السابق لإيران كان محبّاً للجاه، قال: هذه غيبة! ولقد ذكرتُ في محاضرة سابقة قبل مدّة أنّ معاوية عندما حاول أخذ البيعة ليزيد من سيّد الشهداء قال له الإمامعليه السلام: «**والله لقد تركتَ من هو خيرٌ منه أباً وأمّاً ونفساً**. فقال معاوية: كأنّك تريد نفسَك؟ فقال الحسينعليه السلام: **نعم أصلحَك الله**. فقال معاوية: ...وأمّا ما ذكرتَ من انّك خير من يزيد نفساً فيزيد والله خير لأمّة محمّد منك! فقال الحسينعليه السلام: **هذا هو الإفك والزور، يزيد شارب الخمر ومشتري اللهو خيرٌ منّي**؟! فقال معاوية: مهلاً عن شتم ابن عمّك فإنّك لو ذُكرتَ عنده بسوء لم يشتمك». (**الغدير**، ج١٠، ص٢٥٠ ـ ٢٥١). وهو يعني أنّ يزيد أكثر قداسة منك وأنت تستحلّ اغتيابه!

خاصّ وقد كان الفرنسيّون يعلمون بما يحمله من نفسيّة. فهم يدّخرون أمثال هؤلاء الأشخاص ليعهدوا إليهم في الوقت المناسب بأدوار معيّنة؛ بدءاً من رئاسة الجمهوريّة إلى رئاسة الوزراء ووصولاً إلى نيابة البرلمان والحقائب الوزاريّة. وهناك أشخاص آخرون من هذا القبيل أيضاً إذا ذكرنا أسماءهم فسنُتَّهم باغتياب الآخرين.

أذكر في أحد أسفاري إلى أمريكا أنّ طالباً إيرانيّاً مقيماً هناك يحضّر لشهادة الدكتوراه قد أخذنا في جولة إلى عدد من الجامعات الأمريكيّة. بالطبع لم يكن من المتيسّر زيارة كلّ تلك المدن في الأسفار الأُخرى؛ ولم يكن مسموحاً لي بالذهاب إلّا إلى الدائرة القضائيّة في نيويورك كضيف لمنظّمة الأُمم المتّحدة. لقد دُعيت في تلك السفرة لإلقاء محاضرة في إحدى الجامعات وقد سنحت لي الفرصة لزيارة عدد آخر من الجامعات كجامعة «ييل» و«كولومبيا». وقد رافَقَنا هذا الشخص الإيرانيّ بعد ذلك إلى أرض مترامية الأطراف غاية في الجمال مكتظّة الأشجار كثيرة الورود. في وسط تلك الأرض كانت هناك بناية مكعّبة الشكل لا يبدو فيها أيّ أثر لباب أو شبّاك أو مدخل. يقول هذا الشخص: إنّ كلّ الذين يتولّون مناصب الدرجة الأُولى في أمريكا من مسؤولين لهم في هذه البناية ملفّ خاصّ منذ أن كانوا طلّاباً في الجامعة. ولا يتردّد على هذه البناية إلّا أشخاص معدودون ولا يُسمح للناس العاديّين بالدخول إليها. ولا يدخلها ذوو العلاقة من أجل النظر في الوثائق الموجودة فيها إلّا بشكل سرّي للغاية ومن طرق ومداخل لا يعلم بها أحد، قد تكون مثلاً تحت الأرض. ما أودّ قوله هو أنّ المخطّطين للفتن والمؤامرات يستغرقون سنوات طويلة في تحضير المقدّمات لإعداد شخص مؤهّل لإثارة فتنة.

السذاجة ميزة مؤيّدي الفتنة والمروّجين لها

أمّا أصحاب الطائفة الثالثة من عناصر الفتنة فهم لا يملكون السجايا الشيطانيّة المطلوبة في إضلال الناس كما أنّهم ليسوا من محبّي المال. مشكلة هؤلاء هي عدم امتلاكهم لما يكفي من الفهم والإدراك للأُمور؛ فهم غير قادرين على فهم الأُمور وتشخيصها بشكل صائب. ويمكننا العثور على أمثال هذه العناصر سواء في حياتنا اليوميّة، أو في تاريخ الإسلام، أو في تاريخنا المعاصر. قد يكون هؤلاء أُناساً صالحين أو حتّى علماء أتقياء، وقد يتّصفون بالزهد وبساطة العيش، وعدم السعي لإشباع الشهوات، والاتّصاف بالصفح أو حتّى بمجاهدة النفس الأمّارة، لكنّهم ـ وانطلاقاً ممّا يحملونه من سذاجة وقلّة إدراك ـ يصبحون أداة في أيدي الآخرين. وقد يقوم بعض هؤلاء بفعل أو يتفوّه بكلام أو يُقْدِم على خطوة معيّنة بتصوّر أنّ ذلك ممّا يمليه عليه واجبه الشرعيّ فيُكتشف فيما بعد أنّه كان قد شكّل عاملاً مؤثّراً من عوامل تفاقم الفتنة. ونترك قضيّة مدى كون أمثال هؤلاء معاقَبين عند الله ـ نتركها له عزّ وجلّ؛ فمن المحتمل أن لا يعاقَب بعض هؤلاء بسبب ما يعانونه من نقص في الفهم وبساطة في التفكير، أو قد يعفو الله تعالى عنهم. فلسنا هنا في صدد تحديد التكليف الشرعيّ لأحد أيّاً كان، بل نحن نحاول تقديم تحليل لظاهرة اجتماعيّة خاصّة والتطرّق إلى ماهيّة العوامل المؤثّرة في ظهورها. فقد يكون الشخص مُتّقياً ومتديّناً وعالماً لكنّه ساذج في الوقت ذاته. ومعنى السذاجة واضح؛ فقد يتمكّن طفل أحياناً من خداع شخص كهذا في حياته اليوميّة[1]. فهناك من

---

(١) يقول أستاذ في الجامعة: «أنا لا أمتلك القدرة حتّى على شراء كيلوغرام واحد من البطاطا من السوق خوفاً من خداع الآخرين لي». هذا على الرغم من أنّه عالم ومتعلّم ويمتاز بالذكاء الحادّ وهو الآن حيّ يُرزق.

يتّصف بمثل هذه السذاجة على الرغم من عدم ارتكابه أيّ عيب أو تقصير عمديّ، لكنّه سرعان ما ينخدع من قِبل الآخرين بسبب هذه السذاجة. ولعلّ أبا موسى الأشعريّ كان من هذا النمط من الناس. فمن المعروف أنّ أبا موسى قد خدعه عمرو بن العاص في قضيّة التحكيم بعد أن وضعت حرب صفّين أوزارها، مع أنّه من المحتمل أنّه لم يكن قد بيّت النيّة آنذاك للإضرار بأمير المؤمنين عليه السلام أو لتوجيه ضربة للإسلام أو الحكومة الإسلاميّة، لكنّه خُدع بسبب سذاجته.

فمن أجل أن نعرف ما ينبغي اتّخاذه من موقف وما علينا من تكليف في مواجهة الفتن ومجابهة أصحابها فإنّ الالتفات إلى مثل هذه المصاديق يساعدنا على التقليل من احتمال وقوعنا في حبائل الفتنة أو ـ وهو الأفضل ـ على تحمّل مسؤوليّة إرشاد الآخرين وإنقاذهم من تلك الفتن. أمّا إذا اعتقدنا بأنّه من المحال أن يعمد صاحب الذكاء المفرط والفهم الوقّاد إلى إثارة فتنة، فإنّنا سنُخدع بسهولة. فلولا امتلاك صانع الفتنة لهذا الفهم والإدراك لما استطاع التخطيط لها. فمن المعروف أنّ معاوية كان يملك ذكاءً حادّاً وقد عُرف بين العرب آنذاك بلقب «داهية العرب»، حتّى قال أمير المؤمنين عليه السلام فيه: «**والله ما معاويةُ بأدهَى منّي ولكنّه يغدِر ويفجُر ولولا كراهية الغدر لكنتُ من أدهَى الناس**»[1]؛ أي إنّ تقوايَ هي التي تمنعني من الغدر. والمراد من ذلك هو أنّ المخطّط لمثل هذه الفتنة لابدّ أن يكون داهية العرب كي يتمكّن من النهوض بمثل هذا الدور في مقابل أمير المؤمنين عليه السلام ويجعل الناس تعتقد لسنوات أنّ عليّاً لم يكن يصلّي! فليس باستطاعة أيّ أحد أن يبثّ مثل هذه الدعاية ويلقي مثل هذه الفكرة في أذهان الناس، فهي تحتاج إلى قدرة فائقة.

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٠٠.

ومن هنا فإنّه لا يمكن القول في صاحب الذكاء المفرط أنّه لا يمكن أن يكون من أهل الفتنة، بل ـ على العكس ـ علينا أن نتعامل مع أمثاله بحساسيّة أكبر؛ كما أنّه لا يسعنا ـ في المقابل ـ أن نتّهم كلّ ذكيّ فطِن بكونه من أهل الفتنة. فالذكاء سلاح ذو حدّين؛ فهو قد يُستخدم في الاتّجاه الصحيح ويعين على إخماد الفتنة. فالشخص الذي يعمد إلى إخماد الفتنة هو مصلح بالمعنى الحقيقيّ والإسلاميّ للكلمة. فمثل هذا الشخص لابدّ أيضاً أن يتمتّع بفطنة كبيرة وهمّة عالية؛ وإلّا فإنّ النفاق، والظهور بوجوه مختلفة، والتمثيل هو من فعل الشيطان. فالإنسان المؤمن الصالح لا يقوم بمثل هذه الممارسات الشيطانيّة على الإطلاق.

صراحة أمير المؤمنين عليه السلام في الشؤون الحكوميّة

إذا تأمّلنا في حياة الإمام عليّ عليه السلام فسنجد كم أنّها تتّصف بالشفافيّة والصفاء. فعندما يكون لأمير المؤمنين عليه السلام اعتراض على أحد فإنّه يبوح له بذلك بكلّ صراحة وشفافيّة. وهذه أُمور لا نستطيع نحن أن نطبّق حتّى نماذجها البسيطة في مجتمعنا. فكان عليه السلام إذا أخطأ أحد عمّاله أو تصرّف بشكل غير مبرَّر فيما يتّصل بأخذ أموال الخراج أو التصرّف بها أنذره على الفور. ولعلّ قصّة عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين عليه السلام في البصرة وواليها أوضح شاهد على ذلك. فقد عيّنه عليه السلام على البصرة وكان من صالحي أصحابه. لكنّنا نقرأ في نهج البلاغة أنّ عليّاً عليه السلام كتب إلى عثمان بن حنيف كتاباً قال له فيه: «... **فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعتَ إليها... وما ظننتُ أنّك تجيب إلى طعام قوم عائلُهم مجفُوّ وغنيّهم مدعُوّ ...**»[1]. ولا يبدو أنّ القضيّة كانت تشتمل

---

(١) **نهج البلاغة**، الرسالة ٤٥.

على المحرّمات إلّا أنّ ذلك لم يكن من شأن والي أمير المؤمنين عليه السلام. ولم يكن هذا الكتاب سرّياً بل قد نُشر حتّى أنّه قد وصل إلى أيدينا بعد مضيّ ١٤٠٠ سنة. بل لقد كان عليه السلام يوبّخ بعض الأشخاص وهم حاضرون ويتعامل معهم بطريقة غاية في الوضوح والشفافيّة، فهو لم يكن أبداً من أهل المداراة. كانت حياة الإمام عليّ عليه السلام شفّافة وواضحة ولا تكتنفها أيّ نقطة إبهام من ناحية، وكان تعامله مع الآخرين صريحاً جدّاً من ناحية أُخرى. ولهذا السبب فإنّ الناس لم يتحمّلوه.

على هذا الأساس فإنّ الصفة الثالثة التي ذكرناها لأصحاب الفتنة هي خاصّة بهم وبالشياطين. أمّا الصفتان الأُخريان؛ وهما الهمّة العالية والذكاء الوقّاد فهما صفتان مشتركتان بين الصالحين والطالحين وهي تعتمد على كيفيّة إفادة المرء منها.

ضرورة الفراسة وتجنّب السذاجة في معرفة الفتن

من أجل ذلك فإنّه ليس من السهل تشخيص جميع أنواع الفتن ومعرفة مناشئها وما يؤثّر فيها من خلف الكواليس بأشكال مختلفة من عوامل وأشخاص. أقول ذلك كي نتجنّب السطحيّة في الرؤية والسذاجة في التفكير. فإيماننا يحتّم علينا ـ من جهة ـ أن لا نسيء الظنّ بأحد دونما سبب؛ لكنّه يقتضي منّا ـ من جهة أُخرى ـ الفراسة والنظرة الثاقبة في الأُمور أيضاً؛ فقد جاء في الخبر: «**اتّقوا فِراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله عزّ وجلّ**»[1]. ومن أجل ذلك يؤكّد قائد الثورة المعظّم (دام ظلّه) مراراً وتكراراً على ضرورة التحلّي بالبصيرة؛ ذلك أنّ السذاجة في التفكير وحسن الظنّ يورثان المشاكل في بعض المواطن. بالطبع لابدّ أن نؤكّد هنا

(١) **الكافي**، ج١، ص٢١٨.

على أنّ سوء الظنّ هو إثم عظيم: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1]، أمّا أن يحتمل المرء أنّ شخصاً مّا معرَّض لخطر معيّن فيدفع ذلك هذا المرء إلى التمعّن والاحتياط الشديدين من دون أن يُصدر بحقّ ذلك الشخص حكماً، فهذا ممّا لا بأس فيه. بل إنّ عليه أن يتّخذ جانب الحيطة وينظر فيما يصنع هذا الشخص كي لا يقع في حبائله فيُنزِل بالإسلام والنظام الإسلاميّ الضرر. هذه النظرة البعيدة والاحتياط هما من صفات المؤمن. فلا نتصورنّ أنّ على المؤمن دائماً أن يغضّ طرفه ويقول: خيرٌ إن شاء الله! فهذا ما حصل في صدر الإسلام وكانت النتيجة أن أصبح أمير المؤمنين عليه السلام جليس الدار، أو أمسى أبو موسى الأشعريّ حَكَماً وحكَم لصالح عمرو بن العاص. فقد تكبّدنا على مرّ التاريخ بسبب هذه السذاجة في التفكير ما يكفي من الخسائر والأضرار. إذن لابد أن يكون المؤمن فطناً بالمقدار الذي يمكّنه من التمييز بين الحقّ والباطل ويفصل الشياطين عن غيرهم.

لزوم الاعتبار ممّا بُيِّن في القرآن والسنّة من فتن

قد يقودنا الإفراط في حسن الظنّ أحياناً إلى الانخداع والوقوع في حبائل الشيطان. وما بيان الفتن التي وقعت في التاريخ إلّا من أجل الإفادة منها في حياتنا المستقبليّة. فهل نقْل القرآن الكريم لكلّ هذه القضايا التاريخيّة يرجع إلى كونه كتاب تاريخ وأساطير يلجأ إليه القارئ في أوقات الفراغ ليتسلّى بمطالعته؟ فهل قصص القرآن يا ترى تشبه قصّة حسين كُرد[2] أو تلك الأساطير والروايات

---

(١) **سورة الحجرات**، الآية ١٢.

(٢) هو حسين كُرد الشبستريّ وهو شخصيّة أُسطوريّة اشتهرت قصّته في الأدب الفارسيّ وهي تحكي عن بطولات وحروب أُسطوريّة نشبت بين أبطال الحقّ والباطل في عهد الحكومة الصفويّة.

القصصيّة التي تؤلَّف للتسلية؟! كلّا، فالقرآن الكريم يقول عقب ذكر قصصه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1]، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2]. فإن لم تكن لكم أعين وكنتم عمياً فينبغي الأسف على حالكم. فالقرآن الكريم لم ينزل لسرد القصص وتسلية الناس، بل إنّ هدف الباري تعالى من بيان قصص القرآن هو أن يَعتبر الناس منها: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾[3]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾[4]. فالقضايا التي تحدّث عنها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في نهج البلاغة، بل ـ وفوق ذلك ـ ما تنبّأ به وأخبر عنه من أحداث المستقبل لم تكن تشبه ـ والعياذ بالله ـ كلام الرمّالين ومَن هم من أمثال فوكوياما[5] الذين يتنبّأون بما سيقع بعد مائة عام من أحداث. فعندما يخبر شخص كالإمام عليّ عليه السلام بما سيقع في المستقبل فهو لكي نتنبّه نحن بأنّ أمراً كهذا يمكن أن يحدث في زماننا أيضاً وعلينا أن نتوخّى الحذر. وليس هذا بمثابة الإفادة من قصص التاريخ كأداة للتسلية، بل من باب أخذ العبر والدروس منها؛ فالفائدة الأساسيّة من التاريخ هي جني العبر منه. فإن نحن استلهمنا العبر من التاريخ وقلنا: إحذر من أن تكون كأبي موسى الأشعريّ، فلا ينبغي أن ينبري أحدهم للقول: إنّكم

---

(١) **سورة آل عمران**، الآية ١٣.

(٢) **سورة الحشر**، الآية ٢.

(٣) **سورة المائدة**، الآية ٢٧.

(٤) **سورة الأعراف**، الآية ١٧٥.

(٥) هو «يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما» كاتب ومفكّر أميركيّ الجنسيّة من أُصول يابانيّة. وُلد في شيكاغو الأمريكيّة عام ١٩٥٢م ويُعدّ من أهمّ مفكّري المحافظين الجدد في أمريكا والمنظّرين لهم في سياساتهم وكيفيّة التعاطي مع القضايا العالميّة ومحاربة الإسلام والتشيّع. من كتبه كتاب **نهاية التاريخ والإنسان الأخير** وكتاب **الانهيار أو التصدّع العظيم**.

تستغلّون التاريخ وتتّخذونه أداة لتحقيق مآربكم! فالتاريخ إنّما هو وسيلة لاستلهام العبر والدروس التي تنفعنا في حاضرنا ومستقبلنا كي نحذر من الوقوع في أشراك الآخرين؛ لاسيّما وأنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ ما حصل للماضين سيحصل لكم أيضاً، فهل إنّ هذا التأكيد أيضاً لا يعدو كونه تنبّؤاً وإخباراً بالمغيّبات؟! ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾[1]؛ أظننتم أنّكم أصبحتم من أهل الجنّة بمحض إيمانكم وإتيانكم بالصلاة والعبادة؟ أفتدخلون الجنّة قبل أن يتكرّر معكم ما حدث للماضين؟ فعبارة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ هنا هي استفهام استنكاريّ؛ بمعنى: كلّا، ليس الأمر بهذه الصورة، فسيجري عليكم نفس ما جرى على السلف أيضاً. ولقد جاء في تفسير آية مشابهة: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾[2] أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: إنّ ما جرى على بني إسرائيل سيجري عليكم أيضاً: «**حتّى أنْ لو كان مَن قبلكم دخل جُحر ضبٍّ لدخلتموه**»[3]. وعليه فلابدّ من استلهام العِبر من قصص التاريخ لاسيّما التاريخ المعاصر، كي لا نكرّر اليوم ما حصل بالأمس بأعين مغمضة. فإنّ عدم فعل ذلك ليس أمارةً على النُّبْل، بل على ضحالة الإدراك وانعدام الإحساس والحُمق؛ فالعاقل هو الذي يعتبر.

---

(١) **سورة البقرة**، الآية ٢١٤.

(٢) **سورة الانشقاق**، الآية ١٩.

(٣) **بحار الأنوار**، ج٩، ص٢٤٩، «في تفسير القمّي: قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يقول: حالاً بعد حال، يقول: **لتركبُنّ سنّة مَن كان قبلكم حَذوَ النعل بالنعل والقُذّة بالقذّة، لا تُخطِئون طريقهم ولا يُخطَى شبرٌ بشبرٍ وذراعٌ بذراعٍ وباعٌ بباعٍ، حتّى أنْ لو كان مَن قبلكم دخل جُحر ضبٍّ لَدخلتموه.** قالوا: اليهودَ والنصارى تعني يا رسول الله؟ قال: **فمَن أعني! لتنقُضُنّ عُرى الإسلام عروةً عروة فيكون أوّل ما تنقضون من دينكم الأمانة وآخره الصلاة**».

أحد علماء مدينة يزد الأتقياء وهو المرحوم الشيخ غلام رضا اليزديّ (الفقيه الخراسانيّ) كان رجلاً عظيماً جدّاً[١] ولم نكن ندرك مقاماته المعنويّة جيّداً. من خصوصيّات هذا الرجل أنّه كان يرتقي المنبر حتّى آخر عمره، وكان منبره مربّياً ومعلّماً. وكان يختلف في منبره وطريقة كلامه عن الآخرين. نقل ذات مرّة وهو يحاضر في مسجد غوهرشاد[٢] أنّه قد دُعي مرّة في ليلة ممطرة إلى منزل أحد أهالي يزد. لم تكن في تلك الأيّام سيّارة شخصيّة أو سيّارة أُجرة وكان على مَن يحتاج وسيلة نقل للذهاب والإياب أن يمتطي حماراً. وأثناء اجتيازه من أحد الأزقّة على ظهر حماره انغرست قدم الحمار في الوحل وسقط الشيخ على الأرض فتلطّخت كلّ ملابسه وعمامته بالوحل وظلّ تحت المطر حائراً ماذا يصنع؟ فتنبّه الجيران للأمر وأدخلوه إلى البيت لينظّف نفسه ويبدّل ملابسه من أجل الذهاب إلى المكان الذي دُعي إليه. يقول الشيخ: في العام التالي دُعيت إلى نفس ذلك

---

(١) آية الله الحاج الشيخ غلام رضا اليزديّ (الفقيه الخراسانيّ) كان من العلماء العظام والأتقياء في مدينة يزد. وُلد في مشهد المقدّسة سنة ١٢٩٥ للهجرة. بدأ بطلب العلوم الدينيّة في مدينة مشهد منذ عام ١٣٠٩ هـ، ثمّ رحل إلى إصفهان عام ١٣١٤هـ فتتلمذ على كبار علمائها من قبيل المرحوم الآخوند محمّد الكاشي، والميرزا جهانغيرخان القشقائيّ، والآقانجفي الإصفهانيّ والسيّد محمّد باقر الدرتشئي. هاجر بعد ذلك إلى النجف الأشرف ليتتلمذ على أساتذتها المشهورين هناك، ويعود سنة ١٣٢٤هـ إلى إيران بصحبة أُستاذه آية الله محمّد باقر الاصطهباناتي ويستقرّ في يزد بلد أسلافه منشغلاً بالتدريس والتأليف وإرشاد الناس حتّى آخر عمره عندما لبّى نداء ربّه سنة ١٣٧٨هـ عن عمرٍ ناهز ثلاثة وثمانين عاماً. من آثاره المكتوبة **مفتاح علوم القرآن، وثلاثون بحثاً في أصول الدين، وترجمة الصلاة**. يقول آية الله العظمى الشيخ بهجت‎ؒ في وصفه: «إنّ لديه كتاب **مفتاح علوم القرآن** وهو كتاب رائع. وليس من المعلوم هل سينتج هذا المصنع قماشاً من هذا القبيل ثانيةً أم لا؟ الله وحده يعلم. لكن طوبى للحاج الشيخ غلام رضا، أين هو وأين نحن»؟!

(٢) أحد المساجد المشهورة المجاورة لحرم الإمام عليّ بن موسى الرضا‎؈.

المكان. فامتطيت نفس الحمار متوجّهاً إلى هناك فإذا بالحمار وهو يجتاز من نفس الزقاق يقف، ولم تفلح كلّ محاولاتي في حثّه على مواصلة السير. فترجّلتُ لتقصّي سبب وقوفه فإذا بي أتذكّر فجأة أنّنا في نفس المكان الذي انغرست فيه قدم الحمار وأسقطني على الأرض في السنة الماضية! إذن هذا الحمار لا يريد أن يمرّ من هذا المكان ثانية! يقول الشيخ: اجتهدوا في أن لا تكونوا أقلّ من هذا الحمار! فليس من النُّبْل أن ندخل اليوم نفس جحر الأفعى الذي لُدغنا منه بالأمس، بل إنّ ذلك يُعدّ من الحماقة. لهذا علينا أن نطالع قصص الفتن ونعمد إلى تحليلها كي لا نُبتلى بمثيلاتها.

الفصل الرابع

استراتيجيات أصحاب الفتنة وتوجهاتهم

مقدّمة

هناك أساليب عامّة لبثّ الفتن ينبغي أن تحظى باهتمام وتركيز واسعَين. وكما أنّ لهذه الأساليب جوانبَ استراتيجيّة، فإنّ لبعض مسائلها جوانبَ تكتيكيّة وتطبيقيّة أيضاً؛ بمعنى أنّها تختلف فيما بينها باختلاف الأحوال وبتنوّع أفراد المجتمع وأحزابهم وشرائحهم وأجناسهم. صحيح أنّ هناك خطوطاً عريضة يتّبعها الجميع، لكنّهم يختارون ويبتدعون لكلّ زمان ولكلّ جماعة نهجاً يتناسب معها. وسنحاول هنا أن نشير ضمن سياق منتظم إلى أُمور نعرفها ونواجهها جميعاً.

تغيير المعتقدات والقيم؛ نهجان رئيسيّان لأصحاب الفتنة

يمكن تقسيم خطط الشياطين لزرع الفتنة إلى طائفتين رئيسيّتين: الأُولى هي السعي باتّجاه تغيير المعتقدات، والثانية هي محاولة تغيير القيم. فمنذ مطلع تأسيس أوّل مجتمع بشريّ نشط الشياطين بين الناس وانتهجوا لتنفيذ خططهم طرقاً مختلفة. وحتّى إذا لم يكن لدينا أيّ دليل تاريخيّ معتبَر على ذلك فقد جاء في القرآن الكريم ما يدعونا إلى الاستنباط بأن هذه القضايا ليست بالأمر الجديد. فمن أجل تحقّق الاستراتيجيّات المذكورة آنفاً يعمل أصحاب الفتنة على اتّخاذ سبل شتّى وانتهاج الطرق التالية بما يتناسب مع أحوال الزمان والمكان:

سبل الترويج للفتنة

الأوّل: تحقير أنبياء الله عليهم السلام

لقد جاء التأكيد في غير موضع من القرآن الكريم (على لسان الباري عزّ وجلّ) على أنّنا ما أرسلنا من رسول إلّا وُوجِه بتكذيب قومه واستهزائهم به ونخصّ بالذكر المترفين والنخب منهم. والقصص القرآنيّة تتضمّن هذا المعنى بخصوص كلّ نبيّ من الأنبياء.

فلقد دخل أصحاب الفتنة بدايةً من باب قاعدة نفسيّة تمثّل مرتكزاً عامّاً لجميع البشر[1]. فإنّ من جملة الأساليب التي انتُهجت منذ قديم الزمان لحرف الناس وحرمانهم من هداية الأنبياء وبثّ الفتن في المجتمع هي تحقير أنبياء الله وأوليائه. فالمعارِضون كانوا يعلمون بأنّ الأنبياء عليهم السلام ـ بقطع النظر عن مقام نبوّتهم ـ كانوا أُناساً محترَمين طاهرين شرفاء أُمناء نزيهين صادقين رُحماء بالناس دأبهم خدمتهم، والناس كلّهم يحبّون أشخاصاً كهؤلاء بالفطرة. وهم يعلمون أيضاً بأنّ الأنبياء إذا جاءوا بكلام منطقيّ مبرهَن فمن الطبيعيّ أن يحظى بالقبول، الأمر الذي سيرفع من شأنهم عليهم السلام. أمّا التاريخ والقرآن الكريم فيبيّنان لنا عكس ذلك؛ إذ لم يكن يؤمن بالأنبياء إذا بُعثوا إلى قومهم إلّا نفر قليل منهم، أمّا الآخرون فكانوا يكذّبون بهم. وإنّ أكثر ما كان يحرّض عامّة الناس على عدم اتّباع أنبيائهم هم الشياطين الذين كان ديدنهم تحقير الأنبياء في أوساط الناس

(١) المسائل النفسيّة ليست مسائل جعليّة ووضعيّة بل هي قضايا يرتكز عليها جميع البشر ثمّ تمّ تبويبها وتدوينها على هيئة عِلم؛ وإلّا فإنّ كلّ فرد من أفراد البشر يحمل في داخله شكلاً من أشكال علم النفس.

والاستهزاء بهم؛ أي إنّهم كانوا يتعاملون معهم بأُسلوب يبعث على عدم اهتمام الناس بهم: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1]. فمهما كان الشخص محترماً ووقوراً ومؤدّباً فإنّه إذا اجتمع حوله نفرٌ يحقّرونه ويستهزءون به فستقلّ منزلته بين الناس. بل إنّ استهزاء الأطفال بالمرء قد يُنقص من وزنه في المجتمع أحياناً، فما بالك بسخريّة كبار القوم وعلّيتهم منه.

هذه السخرية كانت تتّخذ أشكالاً شتّى؛ فقد كانوا يرمون الأنبياء في البدء بقلّة العقل، بل ويطلقون عليهم لقب المجنون علناً. حتّى أنّهم كانوا يقولون لهم: ليس لدينا أيّ تفسير لما تقولون، سوى أنّكم قد جُنِنتم وأنّ آلهتنا قد غضبت عليكم فسلبتكم عقولكم. وعندما كان الأنبياء يتحدّثون بكلام رصين وجميل ومستدلّ كانوا يتّهمونهم بأنّهم شعراء بالقول: هؤلاء شعراء ينطقون بجميل الكلام.

لقد كان هذا تعمياً تمّ تنفيذه على سائر الأقوام والمجتمعات منذ بزوغ فجر الحياة الاجتماعيّة البشريّة إلى يومنا هذا؛ فالقرآن الكريم يقول: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾[2]؛ أي: أكانت هذه الأقوام المختلفة على مرّ التاريخ يوصي بعضها بعضاً بالتعامل مع الأنبياء بهذه الطريقة؟ فمن الواضح أنّ هذه الأساليب والطرق الشيطانيّة موغلة في القدم. فقضيّة أن يعمد البعض إلى السخرية من شخص إذا أضحى محطّ أنظار الناس واهتمامهم ليست بالأمر الجديد، بل إنّ جميع الأنبياء كانوا قد تعرّضوا لهذا النمط من التعامل. بناءً على ذلك فإنّ أحد جوانب القضيّة كان يتمثّل في تحقير الأنبياء لإسقاطهم من أعين الناس كي لا يلتفّوا حولهم.

---

(١) سورة الحجر، الآية ١١.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٣.

الثاني: اتّهام أنبياء الله عليهم السلام

عندما لم يكن المعارضون يفلحون بالكامل في الحيلولة دون مواصلة الأنبياء عليهم السلام لمسيرتهم وإنجاز مهمّتهم كانوا يعمدون إلى اتّهامهم بألوان السلوكيّات المنبوذة والمشينة. فالعلاقات غير المشروعة مع الجنس الآخر مرفوضة ومُدانة في كافّة المجتمعات، وقد كانت تُعدّ قبيحة ومشينة حتّى في تلك المجتمعات التي كانت تشيع فيها هذه الظواهر وتُمارس بشكل علنيّ. ومن هنا فقد اتُّهم بعض الأنبياء عليهم السلام بمعاصيَ قبيحة محاولةً لإسقاطهم من أعين الناس. بل وقد لاقت أمثال هذه المسائل من الرواج ما جعلها أمراً عاديّاً وأسقط عنها قبحها إلى درجة أنّ التوراة الموجودة اليوم بين أيدينا، والتي تُعدّ الكتاب المقدّس للمليارات من البشر، تُسنِد إلى بعض الأنبياء التورّط بعلاقات غير مشروعة مع بناتهم. ولقد أكّد القرآن الكريم تأكيداً خاصّاً على تنزيه أنبياء الله من هذه التهمة حينما قال: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾(1). ومن الواضح هنا أنّ أرضيّة رمي النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بمثل هذه التهم كانت مُعَدَّة حتّى ينذر الله تعالى المسلمين بالقول: لا تكونوا مثل هؤلاء. فقد وردت في بعض الجوامع الروائيّة أحاديث عن بعض الفرق في باب علاقة رسول الله صلى الله عليه وآله بامرأة زيد بن حارثة ممّا يشبه ما جاء في الكتاب المقدّس في حقّ نبيّ الله داوود عليه السلام.

على أيّة حال فإنّ من سبل فصل الناس عن أنبياء الله ورسله وتحريضهم على النفور منهم هي اتّهام الأنبياء بممارسات غير مشروعة. وممّا لا شكّ فيه أنّ الأُمم المختلفة لا يشبه بعضها بعضاً تماماً فيما تعتقد به من منظومة الحسنات

---

(1) **سورة الأحزاب**، الآية ٦٩.

والسيّئات، لكنّ أمثال هذه القضايا تُعدّ قبيحة في جميع المجتمعات البشريّة على وجه التقريب. وحتّى في عالمنا المعاصر فعندما يُراد تشويه سمعة شخصيّة سياسيّة مرموقة فإنّه تُطلق عليها مثل هذه التهم. بل وحتّى في المجتمعات الغربيّة ـ حيث تتفشّى العلاقات بين الرجل والمرأة خارج نطاق الحياة الزوجيّة بشكل فاضح ـ يتبادل الساسة مع منافسيهم تهماً من هذا القبيل. فاستقباح هذا العمل من قبل الجميع هو أمر فطريّ، بل وحتّى أُولئك الذين يمارسونه فإنّهم ينزعجون من رميهم به؛ لكنّهم، ومن أجل أن يبعدوا الناس عن الأنبياء كانوا يرمونهم عليهم السلام بهذه الأفعال المشينة التي لا تليق بهم بأيّ حال من الأحوال. فلقد كان الأنبياء على جانب من الطهارة والنزاهة إلى حدّ اجتناب النظر إلى غير المحارم.

فالغاية من التهمة الأُولى هي ردع الناس عن قبول أفكار الأنبياء والانجذاب إليهم، أمّا التهمة الثانية فهي من أجل أن لا يلتفت الناس إلى سلوك الأنبياء فيتأثّرون بهم؛ أي أن لا يعدّوا نبي الله إنساناً صالحاً وذا خُلُق. فحياة الإنسان لها جانبان: جانب فكريّ وآخر سلوكيّ، ولم يكن الناس ينتفعون من الجانب الفكريّ للأنبياء فحسب، بل كانوا يقتدون بسيرتهم العمليّة والسلوكيّة أيضاً. فإذا عُرِّف النبيّ من الناحية الفكريّة على أنّه شخص مجنون، ومن الناحية السلوكيّة على أنّه إنسان مذنب وفاسد ومنحرف، فإنّه لا يبقى هناك مجال لاتّباعه.

الثالث: إيذاء الأنبياء وحبسهم ونفيهم وقتلهم

عندما لم تكن أيّ واحدة من الطريقتين السابقتين تؤتي أُكلها كان الناس يعمدون إلى إيذاء الأنبياء، ونفيهم عن أوطانهم، أو حتّى قتلهم في نهاية المطاف:

﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[1]، ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾[2]. ووفقاً لرواية القرآن الكريم فإنّ هذا السلوك مع الأنبياء كان ينتهجه مُترَفو القوم ونُخبهم الفاسدة. وصحيح أنّه لم تكن للجميع يد في قتل الأنبياء غير أنّ نفيهم عن بلداتهم وإيذاءهم ورميهم في مطامير السجون وإنزال أنواع الأذى فيهم كان يتّصف بالعموميّة.

والشياطين اليوم تتّبع نفس هذه الأساليب في خلق الفتنة؛ ذلك أنّهم يواجهون مجتمعاً قد تأسّس وفقاً لمعايير دينيّة وأُسس إسلاميّة، لأنّ ثورتنا قد قامت على معتقدات وقيم إسلاميّة وإنّ قوامها واستمرارها هو بنفس تلك المعتقدات والقيم. فإذا سُلبت من الثورة هذه المعتقدات والقيم فإنّها ستُسلب هذه الصفة ولا تعود ثورة إسلاميّة.

استهداف المعاصرين من مبتغي الفتنة للمعتقدات الإسلاميّة

إنّ أوّل ما يحاول مبتغو الفتنة القيام به هو إضعاف الأفكار التي لها الأثر في ظهور وتثبيت هذه الحركة الثوريّة والنظام الإسلاميّ. فإذا انصبّت رغبتهم في اجتثاث هذا النظام من جذوره فإنّهم يسعون إلى زعزعة منشأ الفكر الثوريّ ومُعتمَد كلام الإمام الراحلﷺ على مرّ تاريخ الثورة وبعد انتصارها، ألا وهو كلمة: «الإسلام»، أمّا إذا استطاعوا حذفها بالكامل فإنّهم يكونون قد حقّقوا غاية مناهم وبلغوا منتهى مآربهم. إذن فهم يبذلون غاية المجهود في سبيل تقليص اهتمام الجماهير بأمثال هذه المسائل فتكون النتيجة هي إصابة معتقداتهم

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨١.

(٢) سورة البقرة، الآية ٩١.

الدينيّة بالوهن. وإلى جانب استهداف المعتقدات الدينيّة، يحاول هؤلاء جاهدين التقليل من شأن القيم العلميّة والمُثُل الأخلاقيّة والسنَن الدينيّة، الأمر الذي يجرّ الناس شيئاً فشيئاً إلى ارتكاب المعاصي وعدم الامتثال لتعاليم الإسلام أو مراعاة قيمه. فهذان هما السبيلان الأساسيّان اللذان ينتهجهما هؤلاء، وهما نفس السبيلين المتَّبعَين مع الأنبياء عليهم السلام؛ الأوّل: وصفهم بالمجانين وعديمي العقول ليحرّضوا الناس على عدم تبنّي أفكارهم، والثاني: هو رميهم بالخطيئة واعوجاج السيرة ليوحوا إلى الناس بأنّ هؤلاء أنفسهم لا يعملون بما يقولون ولا يلتزمون بما يدّعون؛ إذن لا تقبلوا بما يسنّون من سنن وما يطرحون من قيم.

وكذا هو سلوك أصحاب الفتنة اليوم؛ مع فارق أنّ أُسلوب العمل في ذلك الزمان كان بسيطاً جدّاً، إذ كان بإمكان الشياطين الوصول إلى أهدافهم عن طريق بثّ الشائعات التي تتناقلها الأفواه، أمّا اليوم فهناك أنواع شتّى من وسائل الإعلام ومواقع الشبكة العنكبوتيّة والمدوَّنات الشخصيّة[1] يكتب فيها كلّ شخص ما يحلو له وما يجول في خاطره ويتلقّاه الآخرون دونما نفقات تُذكر وبلا مشقّة ولا عناء. إذن فمن جهة الإعلام والصحافة فإنّه لا وجه لمقارنة اليوم بالأمس على الإطلاق. ففي الماضي عندما كان يُراد إشاعة خبر في المجتمع لم يكن يتسنّى نشره حتّى في اجتماع مكوّن من ألف شخص بسهولة، أمّا اليوم فيحيط جميع أهل العالم بالخبر علماً في غضون بضع دقائق. إذن فأُصول الأمر وأُسسه واحدة أمّا الأساليب فقد تغيّرت وأصبحت أكثر تعقيداً من ذي قبل، وصارت في متناول أهل الفتنة سبل أفضل وطرق أعقد لذلك.

---

(١) *Web logs*

من أجل ذلك فإنّ المسائل التي تحمل عند طالبي الفتنة طابعاً استراتيجيّاً وتُعدّ من الأُمور الأساسيّة والبنيويّة لم تتبدّل وهي مستمرّة وموجودة على الدوام؛ أوّلها السعي لتغيير البنية الفكريّة للجماهير، وثانيها العمل على تغيير المنهج السلوكيّ لهم. وبعبارة أُخرى: الأُولى هي محاربة المعتقدات، والثانية هي مناهضة القيم. هذان المبدآن يحملان صبغة استراتيجيّة ويمكننا العثور عليهما في جميع أنواع الفتن، لاسيّما تلك التي تظهر في المجتمعات المتمسّكة بمجموعة من المعتقدات والقيم. فكلّ مجتمع، حتّى إذا لم يكن معتقداً بالله عزّ وجلّ، فإنّه يمتلك منظومة من القيم والمبادئ والعقائد يتعاطى معها بحساسيّة.

فمنذ طلوع فجر الثورة إلى اليوم وهناك سلسلة من المساعي بُذلت وتُبذل لزعزعة معتقدات الجماهير يقتضي استعراض قائمة بها الكثير من الإطناب. فقد تمّ التشكيك بأصل الاعتقاد بالله تعالى، وبالدين، وبالوحي، وبعقائد التشيّع، وبصاحب الزمان عجّل الله فرجه، وبسيّد الشهداء عليه السلام؛ وبتعبير آخر: تمّ التشكيك بكلّ شيء. فبثّ الشبهات ليس بالأمر العسير؛ فمن السهل على مجنون أن يرمي صخرة في بئر، لكنّه يتحتّم على مائة عاقل أن يعملوا على إخراجها منها. ونذكر من هذه المساعي:

الأول: إشاعة الأُسس الفكريّة للمدارس الفلسفيّة الأجنبيّة

إنّ من جملة الطرق التي يتّبعها مبتغو الفتنة في محاربة المعتقدات الإسلاميّة الأصيلة هي إشاعة معتقدات يُسهم تبنّيها من قِبل الناس في تراجع المعتقدات الأصيلة وانعدام الاهتمام بها والالتفات إليها. ولابدّ للوصول إلى هذا الهدف من عمل ثقافيّ دءوب على مستوى المجتمع يهدف إلى زعزعة معتقدات أفراده. من أجل ذلك فقد تمّ في السنوات الماضية السعي بشتّى الصور وعبر مختلف

الكتب والأفلام لبثّ وإشاعة مذهب الشكّ[١]، والمذهب النسبيّ[٢]، والعدميّة[٣]، والعلمانيّة[٤]، والفلسفة الإنسانيّة[٥] وغيرها من المكاتب الفلسفيّة الإلحاديّة من دون أن تثير حفيظة أحد. وقد وصل الأمر ببعض المنظّرين في إحدى الحكومات السابقة إلى تأليف كتاب باسم العلمانيّة ورفده بالدعم أيضاً. كما قد صرّح البعض الآخر علناً بأنّ آيديولوجيّتنا هي الليبراليّة الديمقراطيّة ولا يعرف حزبنا غير ذلك. كلّ ذلك كان يصبّ في تمهيد الأرضيّة للفتنة؛ فقد شكّلت هذه الأعمال البذور الأساسيّة التي نُثرت في بادئ الأمر واستمرّ نموّها وقد توقّع أصحاب الفتنة أن يجنوا ثمارها في عام ٢٠٠٩ (في الفتنة التي حصلت بعد الانتخابات الرئاسيّة) ليقرأوا على الإسلام والجمهوريّة الإسلاميّة السلام، لكنّ إرادة الله سبحانه وتعالى مدعومة ببركة دماء الشهداء قد حالت دون ذلك، وإلّا فإنّ الأعداء لم يدّخروا جهداً في هذا السبيل.

الثاني: تحقير علماء الدين وإضعافهم

يتبادر إلى الذهن هنا السؤال التالي: ما الذي يجعل المعتقدات والقيم تشيع في المجتمع وتترسّخ فيه؟

---

(١) «*Skepticism*» وهو مذهب يقول بأنّ المعرفة الحقيقيّة أو المعرفة في حقل معيّن غير محقّقة أو مؤكّدة.

(٢) «*Relativism*» وهي نظريّة تقول بأنّ الحقيقة نسبيّة، أو بأنّ الحقائق الأخلاقيّة تتفاوت تبعاً للفرد والزمان والظرف.

(٣) «*Nihilism*» وهي وجهة نظر تقول بأنّ القيم والمعتقدات التقليديّة لا أساس لها من الصحّة وأنّ الوجود لا معنى له ولا غَناء فيه.

(٤) «*Secularism*» وهي عدم المبالاة بالدين أو بالاعتبارات الدينيّة.

(٥) «*Humanism*» وهي فلسفة تؤكّد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات من طريق العقل، وكثيراً ما ترفض الإيمان بأيّة قوّة خارقة للطبيعة.

هذه المعتقدات والقيم مذكورة بين طيّات الكتب وسطور النصوص الدينيّة. وإنّ علماء الدين هم الذين يُقبلون على مطالعتها وتعلّمها ثمّ يدرّسونها في مدارسهم الرسميّة وحلقات دروسهم التقليديّة أو يلقونها على مسامع الناس عامّة في مجالسهم الدينيّة في المساجد والحسينيّات فتنفذ إلى القلوب وتحلّ محلّ ما كان قبلها لتصير جزءاً لا يتجزّأ من وجود الناس وكيانهم. فمَن الذين يستطيعون حفظ هذه المسائل وترسيخها في المجتمع؟ إنّهم علماء الدين. إذن فاستهداف علماء الدين يحتلّ مركز الصدارة ضمن مخطّطات العدوّ. فما دام علماء الدين موجودين فإنّهم سيحبطون كلّ ما يحوكه العدوّ؛ فإن بثّ العدوّ شبهة قدّم علماء الدين لها الجواب، وإن نالوا من قيمة عمد إليها علماء الدين فقوّوها وعزّزوها. إذن فما من سبيل أمام العدوّ لإضعاف المُثُل والمعتقدات سوى تسقيط علماء الدين.

فبالنسبة للعدوّ فإنّ عليه بادئ ذي بدء أن يعمل على زعزعة المكانة الاجتماعيّة لعلماء الدين. وقد بيّنا سلفاً بعض النقاط في باب إضعاف مكانة الأنبياء عليهم السلام. وإنّ نفس الطرق تُتَّبع اليوم بصورة أكثر تعقيداً لإسقاط العلماء من أعين الناس. فالذين يدعون الناس إلى التمسّك بالمعتقدات والقيم الدينيّة هم الأنبياء بالدرجة الأُولى. ووفقاً لما يعتقد به الشيعة فإنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام هم الذين يتولّون هذه المهمّة بعد الأنبياء. أمّا اليوم وفي زمان الغيبة فإنّ مَن ينهض بهذا الدور هم علماء الدين.

إنّ من أبسط الطرق التي يتّبعها الأعداء في هذا المجال هو التفتيش عن نقاط ضعف العلماء. إذ ما من شخص يخلو من نقطة ضعف، وقد تُشاهَد بعض نقاط الضعف في علماء الدين أحياناً. ويحاول الأعداء هنا الإيحاء بأنّ علماء الدين أُناس بعيدون عن الواقع، رجعيّون، يؤمنون بالخرافات، ولا يمتلكون فهماً

اجتماعيّاً صحيحاً، وغير عارفين بالمصالح.

قبل ما يقرب من سبعين عاماً عندما كنت طفلاً في الخامسة أو السادسة من العمر كانت صحيفة تنشر يوميّاً مقتطفات عن بعض القضايا الدينيّة لاسيّما بخصوص علماء الدين والمعمّمين. نشرت هذه الصحيفة ذات يوم صورة عن حوض حمام عامّ وقد استقرّ عالمٍ دين بلحية طويلة ورأس أصلع في الحوض وهو يحاول أن يغترف من ماء الحوض ليشربه. ثمّ صوّرت في الجانب الآخر من الحوض بعض الصبيان والأشخاص وهم يغسلون أجسامهم الوسخة في ماء الحوض، أو طفلاً يتبوّل داخل مائه والشيخ في الطرف الآخر يريد شرب الماء من نفس الحوض!

لقد كانت حمّامات السوق متعارفة في الماضي غير البعيد. وكان آنذاك عرف سائد وهو أنّه عندما ينزل جماعة إلى حوض الحمام صباحاً يقدّم كلّ واحد منهم غرفةً من ماء الحوض إلى الآخرين للشرب. سبب ظهور هذا العرف غير معلوم، ولعلّ منشأه حديث مضمونه أنّه ينبغي أن يكون ماء الغُسل نظيفاً إلى درجة أنّ الشخص يمكنه شربه. وقد تحوّل شيئاً فشيئاً إلى عُرف بأن يقدّم كلّ من يدخل إلى حوض الحمام صباحاً غرفةً من مائه إلى الآخرين. تلك الصحيفة كانت تحاول الإيحاء بأنّ علماء الدين كانوا يشربون من هذا الماء القذر عند النزول إلى الحوض وتدّعي بأنّهم كانوا يصرّون على الإبقاء على أحواض الحمّامات العامّة رغم إصرار دائرة الصحّة على ضرورة استعمال الدوش بدلاً عنها كي يَسلَم الناس من هذه الأقذار والأمراض. إذن على هذا النحو وأمثاله كان يحقَّر علماء الدين ويصوَّرون بهذا البَلَه والحمق في أعين الناس.

وإذا كانت هذه الأحداث ترتبط بسبعين سنة مضت فلا بأس أن أذكر قصّة

أُخرى تعود للفترة قُبَيل انتصار الثورة بقليل: ففي إحدى المدن كان أحد المثقّفين يدلي بمحاضرات جميلة وكان عندما يريد الفكاهة وإنهاء الموضوع بطُرفة يحرص على أن تكون هذه الطرفة عن شريحة علماء الدين. أذكر مرّة أنّه نقل في إحدى محاضراته أنّ طالب علوم دينيّة يدرس في مدرسة «مروي» في طهران لكنّه كان إذا أراد الاستحمام في حمّام السوق توجّه إلى قمّ لهذا الغرض ثمّ عاد إلى طهران. كانت أُجرة حمّام قمّ في زمان إلقاء المحاضرة ريالين وأُجرة الباص من طهران إلى قمّ ٢٥ ريالاً؛ بمعنى أنّ على المرء أن يدفع ٥٠ ريالاً للذهاب والإياب بين طهران وقمّ. ووفقاً لنقل هذا المحاضر فقد سُئل هذا الطالب: لماذا تذهب إلى قمّ للاستحمام؟ فأجاب: لأنّ أُجرة حمّام قمّ أقلّ. قالوا: كيف؟ فقال: في طهران عليّ أن أدفع خمسة ريالات لدخول الحمّام بينما ليس عليّ أن أدفع سوى ريالين لحمّام قمّ. قالوا له: لكن عليك أن تتحمّل أُجرة الذهاب والإياب وإضاعة يوم بأكمله عوضاً عن ذلك! فأجاب: مع ذلك، لكنّ حمام قمّ أرخص! إلى هذا الحدّ كان يسعى هذا الرجل للتقليل من شأن طلبة العلوم الدينيّة وتسفيه عقولهم والإيحاء بأنّهم أُناس بُلَهاء لا يجيدون حتّى العمليّات الحسابيّة البسيطة، إلى درجة استعداد الواحد منهم لدفع خمسين ريالاً ليوفّر ثلاثة ريالات.

لقد ابتدأ هذا النهج منذ عهد «الثورة الدستوريّة»[1] واستمرّ بعد ذلك أيضاً،

---

(١) هي ثورة قام بها مجموعة من علماء الدين من أمثال السيّد عبد الله البهبهانيّ والسيّد محمّد الطباطبائيّ والشيخ فضل الله النوريّ (رحمهم الله) وبعض المثقّفين في عام ١٩٠٤م على حكومة سلالة القاجار التي كانت تحكم إيران وذلك في عهد الملك مظفّر الدين شاه ومن ثمّ محمّد علي شاه هدفها إنهاء عهد الاستبداد واستبدال حكومة دستوريّة به، وكانت نتيجتها تأسيس مجلس الشورى الوطنيّ (أوّل برلمان في إيران) وإقرار أوّل دستور في البلاد.

حتّى بات أمثال هذا المحاضر يجرؤون على حكاية طُرف غايتها الحطّ من شأن شريحة علماء الدين وذلك في أحد المراكز الثقافيّة المشهورة للغاية. وهذا من الأساليب المعروفة التي كانت تُتَّبع لفصل الناس عن شريحة العلماء. وأودّ التأكيد هنا على أنّني لستُ متعصّباً لشريحة العلماء الحوزويّين وأعلَم أنّ هناك في هذا الوسط ـ كما هو الحال في غيره من الأوساط ـ عيوباً، بل إنّ بعض العيوب لا ينبغي أن تكون فينا، بل ولا نتوقّع وجودها أساساً. المراد من هذا الكلام هو أنّ الخبراء في الدين والذين باستطاعتهم تعريف الناس بالإسلام الأصيل إنّما يمكن العثور عليهم في وسط علماء الدين. فالإسلام الأصيل لا يؤخذ من جامعة هارفارد. وإذا أردنا التفتيش عن خبراء في القرآن الكريم فينبغي علينا التفتيش عنهم بين خرّيجي المدرسة الفيضيّة[1] وأمثالها. فأمثال الإمام الخمينيّ ﷺ والشهيد المطهّري والشهيد البهشتيّ (رحمهما الله)، الذين كانوا من العارفين بالإسلام، قد نشأوا في هذه الحوزات. فالحوزات العلميّة هي مراكز دينيّة يرتادها علماء فطاحل. بالطبع إذا رام المرء التخصّص في فرع من العلوم لا يوجد إلّا في قطر معيّن من أقطار العالم فعليه شدّ الرحال إلى هناك، أمّا الراغب في طلب العلوم الدينيّة على أتمّ وجه فعليه طلبها من قمّ وأمثال قمّ.

أمّا الذين يودّون فصل الناس عن علماء الدين فتراهم ينقّبون عن عيوب العلماء ويضعونها تحت المجهر أحياناً، فيصوّرونها في مجلّاتهم ووسائل إعلامهم على شكل كاريكاتور أو يَنظِمون فيها قصائد هجاء. هذه الأساليب وأمثالها

(١) هي من أقدم المدارس الدينيّة (الحوزات) في مدينة قمّ المقدّسة ويرجع تاريخ تأسيسها إلى النصف الأوّل من القرن الثالث عشر للهجرة وتقع إلى جوار حرم السيّدة فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم (سلام الله عليهما).

كلّها مدروسة ولابدّ من اتّباعها من أجل الوصول إلى هذا الهدف. فإفشال الدين وثنيه عن تحقيق هدفه إنّما يتحقّق في إفشال علماء الدين وتشويه سمعتهم. فإذا تكلّل هذا النهج بالنجاح فإنّ الأعداء يكونون قد حقّقوا مآربهم ولا يلزم اللجوء ـ حينئذ ـ إلى وسائل أُخرى، لأنّ الناس إذا تفرّقوا عن علماء الدين فإنّ أي شكل من أشكال الانحراف سيكون ممكناً بالنسبة لهم. أمّا إذا لم يفلح الأعداء في هذا النهج، وفشلوا في تحريف آراء المفكّرين والعلماء والعظماء، وأخفقوا في محاولة اغتيال شخصيّاتهم، فإنّهم يلجأون ـ في نهاية المطاف ـ إلى اغتيال أشخاصهم وتصفيتهم جسديّاً؛ كما فعلوا بآية الله المطهّري الذي كان من أعظم علماء عصر الثورة، لكنّ أيادي هؤلاء الجهلة، أو فلنقل: المرتزقة، قد امتدّت إليه ـ في أوّل ربيع للثورة، وبعد مضيّ شهرين فقط على انتصارها ـ لتقتله وترويه كأس الشهادة لنُحرَم جميعاً من آثار هذا الرجل العلميّة والكتابيّة والسلوكيّة.

والسؤال المطروح هنا: ألم تكن آنذاك شخصيّات سياسيّة أو عسكريّة أُخرى في إيران أكثر نشاطاً من العلّامة المطهّري؟ ألم تكن إيران تعجّ بالشخصيّات السياسيّة والقيادات العسكريّة؟ فلماذا اغتيال العلّامة المطهّري بالذات يا ترى؟

لقد علم هؤلاء أنّ تقدّم فكر الثورة الإسلاميّة كان يتطلّب شخصيّات من أمثال الشيخ المطهّري من أجل صيانة إسلاميّة النظام. فقد كان يجب أن يستمرّ الفكر والعقيدة الإسلاميّة وأن تتمّ الإجابة على الشبهات. وليس لأيّ أحد أن يضطلع بهذه المهمّة، فهي مهمّة بطل همام كهذا. إذ نستطيع أن نجرؤ على القول إنّه ـ حقيقةً ـ لم يكن في ذلك الزمان مثل الشهيد المطهّري ليتصدّى لهذا الأمر. ومن هنا فإنّ عمليّة الاغتيال هذه كانت مدروسة، ولا يتصورنّ أحد أنّها كانت

محض صدفة؛ أي إنّ أحدهم أطلق النار فأصابت شخصاً فقُتل وانتهى الأمر، بل كان عملاً مدبّراً وخطّة مدروسة نُفّذت بموازاة برنامج آخر غرضه إضعاف العلماء الآخرين والنيل منهم؛ كاتّهامهم بالأُمّية، والغباء، وانعدام الوعي، أو رميهم بأُمور مشينة يبغضها الناس كالفساد الأخلاقيّ والماليّ وأمثالها. الغاية من ذلك وأمثاله هي الوصول إلى مرحلة انفصال الجماهير عن العلماء. فقول الإمام الخمينيّ الراحل: «الإسلام بمعزل عن علماء الدين هو إسلام بمعزل عن الإسلام»(١) إنّما ينمّ عن وعي هذا الرجل وإدراكه العميق لمخطّطات العدوّ. فكلام الإمام هذا يعود إلى ما قبل انتصار الثورة وقد جاء ردّاً على من قالوا: «لقد اقترح الدكتور مصدّق فكرة الاقتصاد بمعزل عن النفط، ونحن نقترح فكرة الإسلام بمعزل عن علماء الدين»(٢). موقف الإمام هذا لا ينبع من ولعه بعمامتي وعمامة كلّ معمّم، ولا من منطلق انتمائه إلى شريحة المعمّمين وتعصبّه لهذه الشريحة. فالإمام أطهر وأنزه وأسمى بكثير من ذلك. كلامه هذا كان نابعاً من رؤيته الثاقبة وإشرافه على حقيقة أنّ حذف علماء الدين يعني تجريد الناس من إمكانيّة الانتفاع الصحيح والسليم من علوم أهل البيت والمعارف الإسلاميّة؛ ذلك أنّه إذا نُفي العلماء الملتزمون من مسرح هداية البشر أصبح بالإمكان صبّ أيّ موضوع في قالب إسلاميّ وإعطاؤه صبغة إسلاميّة وخداع الآخرين به.

---

(١) **صحيفه‌ى نور** (صحيفة النور)، ج٨، ص٤٤ (وهي بالفارسيّة).

(٢) «لحسن الحظ كما أنّ الدكتور (مصدّق) قد قدّم أُطروحة الاقتصاد بمعزل عن النفط... فإنّ أُطروحة الإسلام بمعزل عن عالِم الدين قد تحقّقت في المجتمع أيضاً» (علي شريعتي في كتاب **مخاطبهاي آشنا** (المخاطَبون المعروفون)، ص٨).

محاربة القيم الإسلاميّة

السبيل الاستراتيجيّ الثاني للعدوّ يتمثّل في السعي لطعن الأُسس القيميّة. فلقد بُذلت منذ بدء الثورة الإسلاميّة إلى يومنا هذا مساعٍ محمومة وبصور شتّى من أجل سرقة الأُسس القيمية للكوادر الثوريّة والتقليل شيئاً فشيئاً من قداسة واحترام الأُمور المقدّسة والمحترمة.

إنّ الحطّ من شأن قيمة من القيم يكون تارةً عن طريق بثّ شبهة فكريّة، وتارةً أُخرى عبر مناهج عمليّة. على سبيل المثال، فإنّ الربا يُعدّ من الخطوط الحمراء للمجتمع الإسلاميّ وإثماً عظيماً جدّاً إذ يصنّفه القرآن الكريم على أنّه حرب مع الله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[١]. وقد ورد هذا المضمون في بعض الأحاديث الشريفة أيضاً وهو أنّ أكل درهم رباً هو أسوأ من بعض عظائم الذنوب[٢]. مع ذلك يأتي بعضهم فيطرح شبهة مفادها أنّ العمل الفلانيّ ليس من الربا وأنّ له مخرجاً شرعيّاً ويطرح حيلاً شرعيّة لذلك ممّا لا يعدو كونه عملاً من أعمال الشياطين. يبيّن أمير المؤمنينعليه السلام نقلاً عن رسول اللهصلى الله عليه وآله أمارات ومؤشّرات على فتن آخر الزمان على وجه الخصوص، وهو أنّ فتناً ضخمة ستعصف بالمسلمين في آخر الزمان منها: «... **فيستحلّون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهديّة، والربا بالبيع**»[٣]. فهم سيأخذون الرِشوة ـ وهي محرّمة

---

(١) **سورة البقرة**، الآية ٢٧٩.

(٢) عن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «**درهم من رباً أعظم عند الله من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام**». قال: «**إنّ للربا سبعين جزءاً أيسره أن ينكح الرجل أمّه في بيت الله الحرام**» (**تفسير القمّي**، ج١، ص٩٣ ـ ٩٤).

(٣) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٥٦.

وسحت وقد ذمّها القرآن الكريم بصراحة ـ باسم الهديّة وسيتصوّرون أنّهم سيؤجرون على ذلك! فهذه هي إحدى الطرق المتّبعة وهي تغيير اسم الشيء وإعطاؤه صبغة أُخرى لدفع القبح عنه.

أمّا الطريقة الأُخرى فهي تكرار العمل القبيح مراراً حتّى يسقط عنه قبحُه. فالأفلام والبرامج التلفزيونيّة والفضائيّات وأمثالها لا تقوم بدور بثّ الشبهات حول القضايا الفكريّة والنظريّة وهي لا تتدخّل في قضيّة كون تلك الأُمور ذات قيمة أو مناهضة للقيمة، بل إنّ نهجها هو تطبيق هذه الشبهات عمليّاً للعمل على إثارة الشباب وجرّهم إلى التعوّد عليها. ففعل الغريزة عند الشاب أشبه ما يكون بفعل المواد القابلة للانفجار التي لا تحتاج لأكثر من صاعق أو شرارة كي تفتح على الشاب نيرانها من كلّ حدب وصوب.

ومن الأمثلة على ذلك هو إشاعة الثقافة الغربيّة عن طريق الملابس. فقد يشقّ على المرء أحياناً أن يعثر في السوق على ملابس لنفسه أو لزوجه أو لأولاده تكون مناسبة من الناحية الإسلاميّة. فمعظم الملابس المتوفّرة حاليّاً في الأسواق تُشيع الثقافة الغربيّة بأشكال مختلفة. إذ يصعب العثور على ملابس لا تحتوي على كتابات أجنبيّة أو صور أو حروف أو شعارات بذيئة. بل وقد تُكتب أحياناً أسماء مقدّسة على أجزاء غير مناسبة من الملابس ليس لشيء إلّا لقصد التجاسر والإهانة. فقد كُتبت على الكثير من الملابس عبارات انجليزيّة أو رُسمت عليها علامات مشينة للغاية تتعلّق بفِرَق ومجموعات فاسدة من دون أن يلتفت المرتدي لها إلى ذلك. فالمتصدّون لهذه الأُمور يصمّمون السلع التجاريّة التي هي محطّ احتياج الناس اليوميّ بشكل يجعلهم يتورّطون بهذه المسائل من حيث لا يعلمون.

هذه النشاطات وأمثالها لها بُعد استراتيجيّ وقد بدأ تنفيذها منذ اليوم الأوّل لانتصار الثورة، لكنّها لا تسير على وتيرة واحدة فهي تشتدّ تارةً وتضعف تارةً أُخرى. لكنّ الاختلاف الهائل في وجهات النظر حول تشخيص هذه القضايا يورث الأسى حقّاً، فليس لجميع المسؤولين والساسة إرادة موحّدة من أجل مواجهة هذه الظواهر؛ فقسم منهم يراها حسنة والقسم الآخر يراها قبيحة. بعضهم يطرح إشكالاً اقتصادياً والبعض الآخر يرى أنّ المشكلة ثقافيّة. وقد تكون ثمّة قضايا غاية في الظرافة لا يلتفت إليها الكثيرون، أو لا يجرؤ على طرحها مَن يلتفت إليها. وهنا نشير إلى بعض سبل أصحاب الفتنة في محاربة القيم الإسلاميّة:

الأوّل: إشاعة القوميّة

إنّ من جملة السياسات التي اتّبعها شاه إيران المخلوع، والتي نعتقد بأنّها كانت بإملاءات خارجيّة وقد لاقت قبولاً وتأييداً من حاشيته في الداخل، هي سياسة إشاعة القوميّة. وعلى هذا الأساس فقد قام بتغيير التاريخ الإسلاميّ وأحلّ محلّه تاريخاً عمره ٢٥٠٠ سنة من أجل إحياء القوميّة الإيرانيّة وجعل الإسلام يتلاشى خلف بريق هذا الشعار. فقد كانوا يلقّنون تلاميذ الصفّ الأوّل الابتدائيّ منذ البداية عبارات «حبّ الوطن» ومثيلاتها ويكرّرونها في الكتب. وعوضاً عن تقوية الشعارات الدينيّة راحوا يؤكّدون على القضايا الوطنيّة والإيرانيّة وعبارات «روحي فداء لإيران» والأناشيد التي تتحدّث عن هذه المواضيع. ولم يكن هذا النهج ممّا يثير العجب في أيّام الشاه؛ ذلك أنّه يتعيّن على من يريد طمس القيم الدينيّة أن يطرح قيماً أُخرى محلّها، وإنّ القيم الوطنيّة

والقوميّة هي التي يمكنها أن تحلّ محلّ القيم الدينيّة؛ وهي أن نعظّم آباءنا وأجدادنا وأسلافنا كي ينسى الناس تدريجيّاً المسائل الدينيّة أو يضمحلّ اهتمامهم بها، حتّى نصل إلى تغيير التاريخ الإسلاميّ والاستعاضة عنه بتاريخ إيران القديمة والقول: نحن إيرانيّون ولنا تاريخ يمتدّ إلى ٢٥٠٠ عام!

لكنّ الذي يدعو إلى الأسف حقّاً هو ملاحظة هذه الميول أحياناً ـ بشكل قويّ أو ضعيف ـ بعد انتصار الثورة حتّى لدى ذوي النيّات الحسنة غافلين عن قضيّة أنّ الترويج لتاريخ يمتدّ لآلاف السنين هو ممّا يثلج صدور الأعداء ويمحو الإسلام وكلّ ما جاء به من ذاكرة الناس.

الثاني: الترويج للحرّية المطلقة

كما أنّ من الأساليب المتّبعة لزعزعة الأُسس الفكريّة والعقائديّة والقيميّة هي طرح ما يُصطلح عليه بالقيم الإنسانيّة، وأحد هذه القيم هي الحرّية. إذ لا يساور أحداً الشكّ في أهمّية هذا الشعار وقيمته وقداسته. لكنّهم يتلاعبون بهذا المفهوم ويوسّعون من نطاقه حتّى تكون نتيجته الابتذال والتفلّت من القيود وتلبية كافّة أهواء النفس ونزواتها من دون أدنى قيد أو شرط. وليس هذا مزاحاً! فهذا المعنى يُعدّ اليوم من أكبر مفاخر الثقافة الأمريكيّة، بل وإنّهم يدّعون تفوّقهم على الأُوربّيين في هذا المضمار؛ ذلك أنّهم مهّدوا البيئة المواتية لأن يعيش كلّ شخص كما يحلو له وأن تُكسر ـ في حدود الإمكان ـ كلّ القيود والقوانين والسنن والأعراف الاجتماعيّة.

عندما حضرتُ لأوّل مرّة في بعض الجامعات والمحافل الأمريكيّة رأيت مشاهد تدعو إلى الدهشة والعجب وعندها سألت نفسي: هل هؤلاء بشر

حقّاً[1]؟ والأدهى من ذلك هو أنّه عندما سُئل وزير الثقافة في إحدى الحكومات السابقة في الجمهوريّة الإسلاميّة عمّا قدّمته وزارته من خدمة للثقافة الإسلاميّة قال: «إنّ أعظم خدمة قدّمناها للشعب هي منحه الحرّيات. فلقد بذلنا كلّ ما بوسعنا ليكون أفراد الشعب أحراراً في كلّ ما يريدون ويطلبون». ومن جملة ما قاله أيضاً: «لابدّ أن تكون إيران مثل بعض الدول (وذكر اسم إحدى الدول المسلمة) حيث يمكنك أن تشاهد في الشارع امرأة ترتدي العباءة وتغطّي وجهها بالخمار وهي تسير إلى جانب ابنتها أو امرأة أُخرى نصف عارية قد بالغت في زينتها وتبرّجها»!

تعقّد الأساليب وتشعّبها في الفتن المعنويّة

النشاطات المبذولة في سبيل تغيير حال المجتمع وعمليّة سيره في الوجهة المطلوبة تقتصر تارةً على تحقيق أهداف مادّية ودنيويّة وتتّخذ شكل النشاطات المادّية، لكنّها ـ تارةً أُخرى ـ تتخطّى هذا النمط من الأهداف فيكون الغرض منها تحقيق أهداف معنويّة أيضاً. فمراد أهل الفتنة في الأهداف المادّية سلب السلطة من بعض الناس والاستيلاء عليها، أو السيطرة على بعض الإمكانيّات

---

(١) دُعيتُ مرّة إلى أمريكا لإلقاء محاضرة حول موضوع معيّن ولقد كان برفقتي الدكتور حدّاد عادل وكان يترجم كلامي. لقد شاهدنا مشاهد في الجامعة أثارت دهشتنا حتّى قلنا لأنفسنا: أيّ جامعة هذه؟! لنتصوّر أنّ الاستاذ المحاضر يجلس على الطاولة ويدخّن سيجارة، وأحد الطلبة يضع يده حول عنق الطالبة التي تجلس إلى جواره وزجاجة البيرة في يده، والملابس بالغة القصر. الجامعات الأُوربّية ليست على هذا النحو من الابتذال لكنّ الأمريكيّين يفتخرون بهذه الحرّية المفرطة وأنّ كلّ شخص بإمكانه أن يفعل ما يحلو له. فهم يعتبرون ذلك حرّية ومن دواعي الفخر ويدّعون بأنّها التحفة التي أتحفوا بها البشريّة.

التي في حوزتهم والانتفاع منها. لكنّ الهدف المنشود في الفتن المعنويّة يتعدّى ذلك، كما أنّ هذه الفتن تختلف عن الفتن المادّية في الهدف والأُسلوب للوصول إليه؛ بمعنى أنّه على الرغم من أنّ الهدف النهائيّ قد يكون استيلاء عناصر الفتنة على الإمكانيّات المادّية للطرف المقابل كالثروة والسلطة، لكنّه بما أنّ المجتمع مجتمعٌ دينيّ فلابدّ، في سبيل تمهيد الأرضيّة لبلوغ تلك الأهداف، من محاربة عقائد الجماهير ومعتقداتهم الدينيّة أوّلاً. وعلى الرغم من اشتراك جميع أنواع الفتن المذكورة في الأساليب والسياسات العامّة، لكن لمّا كان الدين يشكّل الموضوع الأساسيّ في النوع الأخير فإنّ الأساليب المتّبعة فيه تكون أكثر تعقيداً وصعوبة.

فإذا أردنا أن نترجم مفردة «الفتنة» وفقاً لثقافتنا ولغتنا المعاصرة فيمكننا ـ إلى حدّ ما ـ استخدام مصطلح «الحرب الناعمة» لتعريفها وهو ما يقابل مصطلح «الحرب الخشنة». فعندما تقف فئتان موقف المواجهة لبعضهما البعض أو تشهر كلّ منهما السلاح بوجه الأُخرى جهاراً بقصد إبادتها أو تركيعها، فهذه حرب خشنة. لكن ليس بالضرورة أن تنشب بين طرفي الصراع مواجهة عسكريّة، بل قد يتّبعان أساليب مختلفة ويقومان بنشاطات دعائيّة شتّى، فإن أصابا مقصدهما اكتفيا بهذه المرحلة من المواجهة؛ وهذا ما يسمّى بالحرب الناعمة أو الفتنة. وبطبيعة الحال قد تنتهي الحرب الناعمة بحرب خشنة عسكريّة أحياناً، لكنّها من هذه النقطة فصاعداً لا تُسمّى فتنة، بل حرب عسكريّة.

لقد اتُّبع كلا الأُسلوبين ـ الفتنة والحرب ـ في صدر الإسلام. فقد وقعت فتن في زمان أمير المؤمنين عليه السلام؛ منها ما وقع قبل خلافته الظاهريّة كفتنة عثمان، ثمّ

تلتها ـ بالترتيب ـ حروب الجمل وصفّين والنهروان؛ حيث كانت في البداية على هيئة فتنة لكنّها انتهت بالحرب. فحيثيّة الفتنة هي نفس حيثيّة مقدّماتها؛ بمعنى أنّ مبتغي الفتنة قد قاموا بأعمال كانت الغاية منها زرع الخلاف بين الناس ومن ثمّ حملهم على الاصطفاف في مقابل عليّ عليه السلام.

ويمكن إخضاع الفتن التي تقتصر على الغايات المادّية للبحث، لكنّها لا تهمّنا هنا من الناحية العمليّة. ولمّا كانت أبْهَت وأضعف من الفتن المعنويّة فإنّها ستتّضح تلقائيّاً أثناء البحث حول الفتن المعنويّة. فأساس بحثنا يدور حول الفتن التي تتّصل بديننا وإيماننا ونظامنا الإسلاميّ. والبحوث الأُخرى التي تمّ طرحها لحدّ الآن كانت بمثابة المقدّمات للوصول إلى هذه النقطة؛ بمعنى أنّه إذا أرادت جماعة مواجهة أُمّة قد بُني نظامها السياسيّ الحكوميّ على أُسس دينيّة ـ أو بتعبير المعاصرين: لها حكومة آيديولوجيّة (أي إنّها لا ترتكز على السلطة فحسب بل على معتقدات الناس ودينهم) ـ والعمل على إبادتها أو إضعافها، فإنّ الأُسلوب الأكثر قابليّة للتطبيق هنا هو أُسلوب الحرب الناعمة؛ ذلك أنّ العلّة المُحدِثة لهذا النظام هي ـ في الحقيقة ـ نفس العلّة المُبْقِية له، وهي ليست سوى المعتقدات الدينيّة لأفراد هذه الأُمّة.

فمنذ أن بدأ الشعب بتحرّكاته الثوريّة كانت هذه التحرّكات مبنيّة على معتقدات أفراده الدينيّة ومن منطلق كونها واجباً شرعيّاً في أعناقهم، كما أنّ مساعيهم من أجل الحفاظ على هذا النظام تنبع هي الأُخرى من إحساسهم بالتكليف الشرعيّ تجاهه، وحتّى إذا لاحت في الأُفق بوادر حرب عسكريّة فإنّهم سيكونون على أُهبة الاستعداد للذود عن النظام بأرواحهم. وبطبيعة الحال فإنّه لابدّ للمناوئين لمثل هذا النظام أن يفكّروا في كيفيّة زعزعة الأُسس الفكريّة

والعقائديّة للجماهير، تلك الأُسس التي تُعدّ الرصيد الرئيسيّ لمثل هذا النظام. وبناءً عليه فبالإضافة إلى الأساليب المتّبعة في الفتن الدنيويّة والحروب الناعمة والثورات المادّية والمخمليّة الأُخرى، فإنّه يتعيّن هنا الإفادة من أساليب أكثر تعقيداً واتّساعاً.

فاوكرانيا وأمريكا بلدان ليس لأيّ منهما التزام عميق بالموازين الدينيّة، والناس فيهما ينظرون إلى الدين بمعزل عن الدنيا، ولا يقوم النظام الحكوميّ في أيّ منهما على أساس الديانة المسيحيّة. مع ذلك فعندما أراد الأمريكان إخراج اوكرانيا من قبضة روسيا بدأوا بنشاطاتهم في إطار الحرب الناعمة فانتهى الأمر إلى ثورة مخمليّة جرّت إلى تغيير نظام الحكم الذي استمرّ لفترة بعدها من دون اللجوء إلى حرب عسكريّة معلنة. في مثل هذه الموارد لا يتّسم الأمر بصعوبة بالغة؛ فيكفي أن تُثار بين أفراد الشعب حالة من سوء الظنّ تجاه حكومتهم وتحريض نفر منهم على العصيان وإثارة القلاقل. فسبيل مثيري الفتن هنا واضح والنتيجة تعتمد على مقدار التمهيد والنفقات المبذولة لذلك.

لكنّهم عندما يواجهون نظاماً قائماً على أساس الدين، ولا يرتكز إلى السلطة المادّية والثروات أو حتّى إلى التقنية والعلم فحسب، بل إنّ المحرّك الرئيسيّ فيه هو التكليف الشرعيّ، فالمسألة هنا تختلف. وصحيح أنّ هذا الكلام لا يعني بالضرورة أنّ جميع أفراد الشعب يمتازون بمستوى عال من الإيمان بحيث لا يكون لديهم في أيّ مرحلة من المراحل دافع إلى العمل سوى الدين، بل يعني أنّ العامل المؤثّر والمصيريّ في هذا النظام هو العامل الدينيّ. بالطبع من الممكن أن تكون هناك عوامل أُخرى إلى جانب هذا العامل وقد تفوق العامل الدينيّ من حيث الكمّ، لكنّ العامل الأساسيّ والمصيريّ والذي يبلغ بالأُمور خواتيمها هو الدين.

فنحن نعلم أنّ نظامنا كان هكذا. ومع أنّ شبابنا لم يدركوا الأيّام الأُولى من الثورة لكنّهم يعون هذا الأمر من كثرة ما سمعوا حول تلك الفترة وقرأوا عنها الكتب وشاهدوا فيها الأفلام. أمّا الذين أدركوا تلك الفترة وعاشوها فقد شاهدوا بأُمّ أعينهم كيف أنّ الناس لم يقوموا بالثورة إلّا بأمر من نائب صاحب الزمان عليه السلام، فحاربوا جيش الشاه المدجّج بالسلاح من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه خلال أشدّ أيّام المواجهة والنزال ضراوة حتّى أركَعوه. فعندما قال الإمام الراحل رحمه الله مقولته المشهورة: «التقيّة حرام ولو بلغ ما بلغ» نزل أفراد الشعب إلى الميدان وثبتوا حتّى آخر رمق فيهم وقدّموا الشهداء تلو الشهداء إلى أن انتصرت الثورة.

فلا يمكن مواجهة نظام كهذا بنفس الأساليب المتّبعة في أُوكرانيا وجورجيا أو غيرها من الدول. إذ كان الأعداء يتصوّرون أنّ إشعال فتيل ثورة مخمليّة بنفس تلك السبل والأساليب هو أمر متاح، فقاموا ببعض التجارب وقدّموا لذلك المقدّمات. لكنّ الفطنين وأصحاب البصر الثاقب منهم كانوا يعلمون بأنّه لا جدوى من هذه الأساليب مع هذا النموذج. وبناءً عليه فقد عكف المخطّطون للفتنة منذ سنين خلت على دراسة وإعداد الأرضيّات المختلفة لزعزعة إيمان الناس بالنظام الإسلاميّ، ولم يتّبعوا سبيلاً واحدة لذلك، بل انتهجوا مختلف الطرق والوسائل ممّا سنشير إليه لاحقاً.

تحليل إجماليّ عن الحرب الناعمة وتبيين استراتيجيّات أصحاب الفتنة

فلنفترض أنّ جماعةً مّا تبيّت النيّة للسيطرة على مقدّرات شعب معتقد ومتمسّك بمجموعة من المعتقدات والقيم، فما السبل التي يتحتّم عليها اتّباعها لبلوغ هذا الهدف؟

هناك سلسلة من الإجراءات الخاصّة ينبغي التحضير لها والقيام بها في كلّ حرب، سواء أكانت حرباً ناعمة أم خشنة. مضافاً إلى ذلك فهناك بعض الإجراءات التي يجب القيام بها في الحرب العسكريّة؛ من جملتها تخمين ما يتوفّر من إمكانات بشريّة وتجهيزيّة. فيتعيّن بادئ ذي بدء تقييم قوّات الجيش والعمل على تقويتها وتوفير الإمكانات اللازمة للحرب؛ بمعنى أنّه لابدّ من التكهّن بكلّ ما يلزم من العدد والعدّة الحربيّة وكلّ ما هو ضروريّ للحرب بما في ذلك المؤونة والقضايا الأمنيّة. هذا ما يتعلّق بالجبهة الصديقة. أمّا فيما يخصّ جبهة العدوّ فهناك أيضاً مجموعة من الإجراءات؛ منها ـ مثلاً ـ السعي لإضعاف العدوّ قدر الإمكان. وهذه أُمور عامّة تشترك فيها جميع الحروب. أمّا في الحروب الناعمة فبما أنّ القوى التي يرتكز عليها النظام القائم على الدين الحقّ لا تقتصر على الأُمور المادّية فقط، فإنّ المواجهة فيها لن تكون سهلة على الإطلاق. وفرضُنا هنا قائم على وجود أُناس يتّسمون بالإيمان والعقيدة الراسخة وهم مستعدّون للتضحية بكلّ ما يملكون. إنّهم أُناسٌ لا يحرّكهم حبّ أرضهم فحسب، بل إنّهم على استعداد لأن يفدوا حتّى أرضهم ويضحّوا بأجسادهم وأبنائهم من أجل بقاء دينهم. ومع أنّ تصديق أمر كهذا يشقّ على العدوّ، لكنّ الأخير وبعد تجربة ثلاثين عاماً من عمر الثورة لم يجد بُدّاً من تصديقه.

إذن فالإجراءات التي ينبغي تنفيذها في الحرب الناعمة لا تقتصر على هذين الأمرين البسيطين؛ وهما إضعاف العدوّ وتقوية النفس، بل لابدّ في مثل هذه الحرب من تنفيذ سلسلة من النشاطات المنسجمة وعلى نطاق واسع تستهدف زعزعة المعتقدات. ويتعيّن القول هنا كمقدّمة إنّ الناس يختلفون من حيث مستوى تمسّكهم بالعقيدة. فمعظم الناس يؤمنون بمجموعة من المعتقدات إيماناً

راسخاً، لكنّ إيمانهم ببعض المعتقدات الأُخرى يكون أضعف بعض الشيء، وسبب هذا الضعف هو قلّة الاهتمام بهذه المعتقدات وعدم بذل الجهود الكافية للدعوة إليها وإشاعتها. ففي مجتمعنا ـ على سبيل المثال ـ فإنّ الاعتقاد بالله تعالى وبالنبيّ الكريمﷺ وبصاحب الزمان(عج) وبسيّد الشهداء أبي عبد الله الحسين(ع) هو اعتقاد راسخ متجذّر لا يمكن النيل منه بسهولة. لكن هناك شرائح في مجتمعنا يعانون من ضعف حتّى في هذه العقائد ممّا يجعلهم عرضة للمخاطر. وبشكل طبيعيّ فإنّ الطبقة التي تواجه تهديداً أكبر في هذا المجال هي طبقة الشباب. كما أنّ أُولئك الذين لا تسنح لهم فرصة الحضور والمشاركة في المراسم والمجالس والمناسك الدينيّة أو الذين ظلّوا بعيدين عنها لسبب أو لآخر هم أكثر عرضة لهذا الخطر حتّى من الشباب.

إنّ النشاطات التي بُذلت في بلادنا بعد انتصار الثورة الإسلاميّة ولا زالت تبذل لحدّ الآن عبر إنفاق أموال طائلة بغية التشكيك بعقائد الناس الدينيّة إنّما هي في إطار تمهيد الأرضيّة لحرب ناعمة. فهناك من المواقع الالكترونيّة والبرامج الإذاعيّة والفضائيّات وآلاف برامج الحاسوب الأُخرى المُعدّة لزعزعة العقائد الإسلاميّة ولاسيّما عقائد التشيّع ممّا يدعو إحصاؤها إلى العجب والدهشة. وما بذْلُ الأعداء لهذه الأموال الطائلة والمساعي المحمومة إلّا لأنّهم أدركوا أنّ الإسلام ليس بالقضيّة الهيّنة والسطحيّة التي يمكن التعرّض لها أو محوها ببعض الشتائم والكاريكاتورات؛ هذا على الرغم من أنّهم لا يكفّون عن هذه الممارسات أيضاً. فهؤلاء لا يتوانون حتّى عن رسم الكاريكاتورات المهينة والتفوّه بالشتائم البذيئة على الله تعالى ورسوله الأعظمﷺ والإسلام الحنيف والأئمّة الأطهار(ع) والعلماء والعظماء. والنتيجة هي أنّ بعض الناس يتأثّر

بهؤلاء. لكنّ الشريحة التي تستحوذ على الاهتمام الأعظم هي تلك التي سيكون مصير البلاد والنظام في المستقبل بيدها، وهؤلاء ليسوا حفنة من الأراذل والأوباش وشاربي الخمور، هذا وإن أمكن التأثير في الأوباش ببعض الوسائل والإفادة منهم في بعض المواطن. فالذين سيديرون البلاد في المستقبل، سواء في الأجهزة الحكوميّة أو في المنظّمات الوطنيّة، وسيمسكون بزمام الاقتصاد والصناعة والإدارة فيها ويتولّون المناصب الحسّاسة في المستقبل هم جيل الشباب المتعلّم وطلبة الجامعات الذين يرتقون مدارج التحصيل العلميّ. فهذه الطبقة من المجتمع هي التي ستفرز في المستقبل رئيساً للجمهوريّة ووزراء ونوّاب برلمان ومحافظين وصنّاعاً وتجّاراً ومعلّمين وما إلى ذلك. ومن هذا المنطلق فإنّ هذه الطبقة تستحوذ على جلّ اهتمامات العدوّ.

إذن فماذا على مَن يبيّت النيّة لممارسة مثل هذه الشيطنة أن يصنع؟ إنّ جانباً من الإجراءات التي يرى العدوّ من الضروريّ إنجازها خلال هذه الحرب الناعمة هي إضعاف معتقدات الناس الدينيّة على مستويات مختلفة. فلا جدوى من التطرّق أمام عامل أو مُزارع إلى بحث وجود الله تعالى أو عدمه. فهؤلاء يحملون عقائد ورثوها من آبائهم وأُمّهاتهم وهم متمسّكون بها. ولن تكون ردود أفعالهم بأكثر من ردّة فعل ذلك المزارع الذي قيل له: إذا قال أحدهم إنّه لا وجود لله، فماذا ستفعل؟ فقال رافعاً مسحاته: أضربه بهذه المسحاة على رأسه! أمّا شريحة طلبة الجامعات والمثقّفين من المجتمع فهم يتعاطون المسائل الفكريّة ويأنسون بها، ولقد بُذلت منذ بداية الثورة المساعي المحمومة والنشاطات المكثّفة من أجل التأثير عليهم. ويمكننا هنا دراسة هذه النشاطات والوقوف على مدى العلاقة التي تربط فيما بينها. في تلك الفترة لم يكن يخطر ببالي ولا ببال من هم

أفضل منّي ـ اللهمّ إلّا القلّة القليلة ـ أنّ هناك سلسلة من النشاطات والإجراءات المنظّمة والمنسّقة والممنهجة تجري على الأرض. غاية ما كنّا نتصوّره أنّه ثمّة فعاليّات متفرّقة، وأخطاء تبدر اعتباطاً من هذا الشخص أو ذاك.

بناءً على ما تقدّم فإنّ جانباً من الموضوع يرتبط بإضعاف العقائد. فالعدوّ يائس من سلب الناس عقائدهم بالكامل وجعلهم كفّاراً، لكنّه لا ييأس أبداً من زرع الشكّ وبثّ الشبهات وإضعاف إيمان الناس. فقد خاض في هذا المجال تجربة وكانت ناجحة؛ وهي أنّ عمليّة بثّ الشبهات من شأنها أن تضعف عقائد الناس وتزعزعها وأدرك أنّ أيّ نجاح يصيبه في هذا المضمار فإنّه يصبّ في صالحه.

أمّا البعد الثاني لنشاط الأعداء فهو ما يتعلّق بالقيم؛ وهي الأُمور التي لها أثر في أعمالنا وسلوكيّاتنا؛ أي: الحُسن والقُبح السلوكيّ وما ينبغي ولا ينبغي على الصعيد العمليّ. وبعبارة أُخرى: ما هو الحسن وما هو القبيح من السلوكيّات، وما الذي ينبغي فعله وما الذي لا ينبغي؟ هذه الأُمور جميعاً موجودة في كلّ مجتمع ضمن إطار نظام قيميّ، سواء أكان نظاماً مدوّناً يتضمّن موادّ معلومة ومحدّدة، أو كان نظاماً غير مدوّن. إذ إنّ لكلّ مجتمع قيماً. أمّا في المجتمع الإسلاميّ فإنّ هذه القيم تنبع من الدين وتشكّل جزءاً ضخماً منه. فالأعداء يحاولون أيضاً إضعاف هذه القيم في المجتمع. فبالإضافة إلى سعيهم في سبيل زعزعة عقائد الناس وإضعافها فهم يبذلون كلّ ما بوسعهم كي لا يكون سلوك أفراد المجتمع مبنيّاً على القيم الإسلاميّة. وهذا يمثّل جانباً آخر من نشاطات العدوّ وهو يتطلّب الآليّات الخاصّة به.

الفئات المستهدَفة في الغزو الثقافيّ

ذكرنا سلفاً أنّه من أجل مواجهة مجتمع إسلاميّ فإنّ العدوّ يستهدف روح هذا المجتمع ألا وهي الإسلام ويحاربها. ومحاربة الإسلام تتلخّص في محورين: الأوّل هو النيل من المعتقدات، والثاني هو محاربة القيم والمُثُل الإسلاميّة؛ وبعبارة أُخرى: فإنّه يتعيّن على الأعداء أن يغزوا ثقافة هذا الدين التي تتضمّن المعتقدات والقيم، أو العقائد والأخلاقيّات(١).

ففي مجال زعزعة معتقدات الناس فالعدوّ يواجه شرائح متنوّعة من المجتمع: الشريحة الأُولى هي شريحة المثقّفين، سواء من الجامعيّين أو الحوزويّين، الذين يتعاطون المفاهيم العقليّة والفلسفيّة أو ـ بتعبير آخر ـ الذين يتقنون البحوث الفنّية الدقيقة. أمّا الشريحة الثانية فتمثّل السواد الأعظم من الجماهير ممّن لا يتقنون البحوث الدقيقة لكنّهم يقتنعون بالاستدلالات البسيطة التي يفهمها الجميع، غير أنّه من الممكن ـ في المقابل ـ أن يتأثّروا بمغالطات من هذا النمط أيضاً.

وهنا بعض ممارسات العدوّ في مواجهة هاتين الشريحتين:

الأُولى: شريحة المثقّفين من الحوزويّين والجامعيّين

لقد طرح الأعداء في مواجهة شريحة المتعلّمين والمثقّفين شبهات من أهمّها التشكيك في وجود الله سبحانه وتعالى. فقد قالوا بصراحة ومن دون اللجوء إلى الكلام المبطّن: «لا يمكن إقامة برهان عقليّ على وجود الله؛ بل لا جدوى من

(١) هذا التعبير مأخوذ من كلام قائد الثورة الإمام الخامنئيّ (دام ظلّه الوراف).

العقل هنا أساساً»! كما وقد ناقشوا كلّ ما طُرح في الإسلام والديانات الأُخرى من براهين لإثبات وجود الله ولم يروا أيّاً منها دليلاً تامّاً لبرهنة ذلك. ثمّ قالوا: «إذا سلّمنا ـ بقطع النظر عن المسائل العقليّة ـ بوجود الله وأنّه أرسل نبيّاً، فليس بوسعنا القبول بأنّ هذا القرآن الذي جاء به النبيّ هو كلام الله»! وقد استدلّوا على دعواهم بالقول: «إنّ الله لا يتكلّم. إذن، هذا كلام النبيّ». ولم يقفوا عند هذا الحدّ بل تمادوا في ادّعاءاتهم فقالوا: «حتّى لو أذعنّا بأنّ القرآن هو كلام الله، فمن أين لنا أن نعلم أنّ الله يقول الصدق؟ إذ ما هو الدليل على كون الله صادقاً في كلّ ما يقول»؟ وقد شكّك هؤلاء أيضاً في أدلّة صفات الله وإثبات أنّه عزّ وجلّ صادق فقالوا: «الصدق هو أمر اعتباريّ، وليس حُسن الصدق ممّا يقبل البرهنة. إذن لا يمكننا إقامة دليل على ضرورة صدق الله». وحتّى فيما يتعلّق بسائر المصادر الدينيّة، التي تنتهي ـ حسب عقيدتنا نحن الشيعة ـ إلى كلام النبيّ صلى الله عليه وآله أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فقد قالوا: «تفصلنا عن أولياء الدين أكثر من ألف وبضع مئات من السنين، فمن أين لنا أن نعلم أنّ ما هو بأيدينا من أحاديث هو من كلام النبيّ والإمام المعصوم؟ فقد قُلب محتوى هذه النسخ والكتب رأساً على عقب إلى درجة اختلاط الصحيح بالخطأ والغثّ بالسمين. وحتّى لو افترضنا أنّ ما فيها هو كلام النبيّ والأئمّة حقّاً، فما هو الدليل على صحّة كلامهم أساساً؟ فهم بشر كغيرهم والبشر خطّاءون. وبالنظر إلى كون الأدلّة على عصمة الأنبياء والأئمّة مخدوشة، فليس في حوزتنا أيّ دليل على وجود إنسان معصوم لا يخطئ أبداً». فما الذي يبقى من الإسلام وغير الإسلام من الأديان مع وجود كلّ هذه الشبهات؟! هذا ومن شبهاتهم الأُخرى أيضاً قولهم: «إذا سلّمنا جدلاً بأنّ القرآن هو كلام الله، وأنّ الأحاديث صادرة عن

النبيّ ﷺ، فأنّى لنا أن نعلم أنّنا واقفون حقّاً على مضامينها وقد فهمناها بشكل صحيح؟ فالمعاني والقراءات متعدّدة».

فأمثال هؤلاء يطرحون بحوثاً تندرج في إطار المدرسة «الهرمنيوطيقيّة»[١] أو ما هو من هذا القبيل ليصلوا إلى نتيجة مفادها: «إنّنا لا نعلم شيئاً عن الدين، وليس ثمّة دليل قاطع على كون هذه المباحث دينيّة». وليس ما أقوله هنا هو نسج خيال فهناك وثائق تثبت ذلك؛ فبعض مَن طرح مثل هذه المباحث يدافع عنها ويصرّح بها في مؤلّفاته، بل ويؤكّد عليها في أبحاثه بطرحها تحت عناوين من قبيل «قابليّة القرآن للنقد».

عندما ذهبت في إحدى سفراتي إلى كندا لمناسبة معيّنة تزامن حضوري هناك مع مجيء أُستاذ جامعيّ إيرانيّ مشهور يعرفه الجميع في إيران ليلقي محاضرة في جامعة «مك غيل»[٢] هناك. حينها سألت بعض الأصدقاء الذين حضروا محاضرته عن موضوعها (وليلاحظ القارئ هنا أنّ الذي نتحدّث عنه هو أُستاذ جامعيّ من إيران يعتبر نفسه أحد أنصار الثورة بل ومن المنظّرين لها ومن المدافعين عن الإسلام) فقالوا: لقد دار موضوع بحثه حول نفي العصمة، وأنّه لا وجود لإنسان معصوم على الإطلاق، وأنّ مسألة العصمة ما هي إلّا كذبة! قد يتعجّب البعض ويسأل: ما الداعي لطرح مثل هذا البحث في جامعة كجامعة

---

(١) الهرمنيوطيقا (*Hermeneutics*) هو علم تأويل وتفسير النصوص، ويُعدّ اليوم واحداً من فروع المعرفة، حيث تعكف جماعات علميّة شتّى في العالم على البحث فيه. لقد رأت «الهرمنيوطيقا» النور في الغرب وتناولت بدايةً بعض التفاسير المتّصلة بنصوص النصرانيّة، أمّا موضوعها فكان كشف وتفسير وسبر معاني الكتاب المقدّس، بعهدَيه القديم والجديد.

(٢) جامعة «*McGill*» في مونتريال.

ملك غيل الكنديّة؟ وما جدوى طرح بحث كلاميّ عن العصمة على طلّاب جامعة؟! أمثال هذه النشاطات تندرج في إطار مشروع مدروس ومدبّر؛ ذلك أنّنا إذا أردنا العمل على إزاحة الدين جانباً، فإنّ أوّل ما يتعيّن علينا إثباته هو أنّ النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام كانوا خطّائين. فما دام الاعتقاد بعصمة النبيّ والأئمّة عليهم السلام قائماً فلا يمكننا القول بخطئهم. إذن فلابدّ للأعداء من ضرب هذا الأصل كي يتمكّنوا من تقطيع أغصانه الواحد تلو الآخر حتّى تذبل شجرة الدين وتموت.

الثانية: الناس عامّة

البحوث التي أُشير إليها آنفاً لا تجد لها آذاناً صاغية في المحافل العامّة؛ ذلك أنّه لابدّ من أجل طرحها استخدام مصطلحات خاصّة لا يعرفها عامّة الناس كما أنّهم لا يطيقون الخوض في بحوث علميّة وفلسفيّة وكلاميّة معمّقة. لكن هناك من البحوث ما يفهمه عامّة الجماهير ومن الممكن بكلّ سهولة النفوذ إلى أفكارهم وعقائدهم عن هذا الطريق. إذن المحور الثاني الذي يسلكه أصحاب الفتنة والذي من شأنه التأثير على عامّة الناس هو بثّ المغالطات التي يسهل على الناس فهمها ويصعب عليهم الردّ عليها. ففهم أصل الشبهة سهل، بينما الإجابة عليها وتفنيدها أمر شاقّ. وليست هذه الطريقة بالجديدة بل لقد استُخدمت وتُستخدم منذ قديم الأيّام، حتّى أنّ القرآن الكريم قد أشار إليها أيضاً بالقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧.

فمصطلحا «المحكم والمتشابه» اللذان يُستخدمان أحياناً في الكتب الأُصوليّة هما مصطلحان قرآنيّان مشتقّان من هذه الآية. يقول عزّ من قائل في هذه الآية: «الآيات التي ننزلها تنقسم إلى قسمين: محكمة، ومتشابهة». والمتشابه هو كلّ ما تقع فيه الشبهة، ويُشتبَه في معناه الحقيقيّ ويُصرَف إلى غيره. وقد جاء في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**وإنّما سُمّيت الشبهة شبهةً لأنّها تشبه الحقّ**»[1]. فبما أنّ الكلام الباطل يشبه الكلام الحقّ أحياناً فقد سُمّي شبهة، وعندما يؤخذ في صيغة باب التفاعل يصبح «متشابهاً».

إذن فالقرآن الكريم يصرّح بكون بعض الآيات متشابهة. والبحث طويل حول السرّ في تشابه الآيات. ولعلّ تفسير الميزان هو الأكثر تفصيلاً والأفضل من بين سائر التفاسير في تناوله لهذا الموضوع[2]. يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: إنّ الذين في قلوبهم زيغ[3] وانحراف يتّبعون الآيات المتشابهة. أي إنّ بعض الناس، وبسبب ما يتّصفون به من انحراف في التفكير واعوجاج في الفكر والرأي، فإنّهم يفتّشون عن المتشابه من آيات القرآن الكريم ويتّبعونها. أمّا السبب في ذلك فيعود إلى ابتغائهم للفتنة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾[4]. إذن يعلّمنا القرآن الكريم نفسه بأنّ إحدى طرق الفتنة هي اتّباع بعض الناس للنصوص القرآنيّة القابلة للتأويل وسوء الفهم والتأكيد

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٣٨.

(٢) **تفسير الميزان**، ج٣، ص٥٦.

(٣) «الزيغ» هو مصطلح قرآنيّ ورد في بعض آياته من قبيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ (سورة **الصف**، الآية ٥)، أو المورد المذكور آنفاً: ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾. وأصل الزيغ هو الانحراف والميل عن السبيل القويم والصراط المستقيم.

(٤) كلمة: «ابتغاءَ» من: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ هي مفعول لأجله، وتعني: «لأجل ابتغاء الفتنة».

على معانيها الخاطئة وإشاعة ذلك بين الناس. بل ويذكرون شاهداً أيضاً على أنّ هذا هو المعنى الصحيح للآية وأنّ كلامنا يطابق كلام القرآن. وينتهج هؤلاء نفس هذا الأُسلوب مع الأحاديث أيضاً، بل وإنّ نهجهم هذا يطال حتّى كلام العلماء الذي يُعدّ مصدراً من مصادر الدين من بعد المصدرين الرئيسيّين له ألا وهما القرآن والسنّة. ولعلّ حجم ما قاموا به في العقود الثلاثة الأخيرة من تحريف لكلام الإمام الراحل‌ﷺ وتأويله إلى المعاني المزيّفة لم يسبق له مثيل في أيّ عصر. فنفس هؤلاء ـ الذين يتظاهرون بالثوريّة والذين ربما شغلوا مناصب حسّاسة في السابق ـ يعمدون إلى التغافل عن النصوص التي لا لبس فيها من كلام الإمام الخمينيّ والتركيز على عبارة واحدة يمكن تأويلها إلى المعاني المنحرفة التي تخالف قصد الإمام وتتباين مع عشرات أُخرى من عباراته تبايناً فاحشاً.

فإذا كان الباري عزّ وجلّ يصرّح بأنّه كان هناك مَن يبتغي الفتنة وينتهج هذا النهج حتّى في عصر نزول القرآن الكريم فكيف لنا أن نتوقّع أن لا يحدث ذلك من أمثال هؤلاء بعد مضيّ ١٤٠٠ سنة على نزوله؟ فأصحاب الفتنة اليوم يفوقون أمثالهم بالأمس كثيراً من حيث العدد والتطوّر والمنهجيّة. بل إنّ هناك ـ أساساً ـ فرعاً فلسفيّاً أُسّس لهذا الغرض يحمل اسم «الهرمنيوطيقيّة» يقوم دعاته بإلصاق أيّ معنىً يحلو لهم بأيّ لفظ من الألفاظ ثمّ يقدّمون التبريرات على أنّ معنى الكلام هو هذا. بل وقد وصل بهم الأمر إلى حدّ القول: «بغضّ النظر عن المخاطَب فإنّه لا معنى للفظ نفسه وإنّ المخاطَب هو الذي يخلق للّفظ معناه، أو يشارك في تحقّقه. فالمعنى هو أمر يحمل بعدين: الأوّل بُعدٌ في ذهن القائل، والثاني بُعدٌ في ذهن المتلقّي»، أو كما يعبّر واحد من نفس هؤلاء الكتّاب: «اللفظ لا يحمل معنىً، بل هو

متعطّش للمعنى»[1] فإنّه المخاطَب الذي يعطي للفظ معناه. فأيّ معنىً يمنحه أيّ شخص للفظ فهو صحيح. وقد فُلسفت هذه المسألة وكتب فيها الفلاسفة الأُوربّيون الكتب وقدّموا فيها الأبحاث فصارت شعبة من شعب الفلسفة.

ذرائع أهل الفتنة

يستعمل أهل الفتنة وسائل وأدوات مختلفة في سبيل بثّ الشبهات ومحاربة المعتقدات الإسلاميّة الأصيلة؛ فتارةً يلجأون إلى الآيات القرآنيّة، وأُخرى إلى أحاديث المعصومين عليهم السلام، وثالثة يفيدون من أقوال كبار العلماء وفتاواهم الفقهيّة، ورابعة ينتهجون سبلاً أُخرى. ونقدّم هنا تفصيلاً لما ذكرنا:

١. الإفادة من القرآن والحديث كأداة

يستدلّ أصحاب الفتنة أمام عامّة الناس أحياناً بآية قرآنيّة أو حديث شريف أو مقطع من كلام الإمام الخمينيّ الراحل رحمه الله كي يحملوا الآخرين على القبول بما يطرحون، ويُظهرون أنفسهم بمظهر المنسجم مع القرآن والسنّة، أو يقولون بأنفسهم: «ليس القرآن الكريم كلام الله وليس له ـ بطبيعة الحال ـ حجيّة ذاتيّة، ولا نعلم إن كانت الأحاديث النبويّة صادرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وإذا كانت صادرة عنه حقّاً، فمن غير المعلوم أنّه صلى الله عليه وآله كانّ محقّاً في كلامه، لأنّه لم يكن معصوماً». فعند دراسة وتحليل ما نُشر من مؤلّفات وكتابات الكتّاب الغزيري الإنتاج خلال الأعوام الثلاثة والثلاثين الأخيرة بعد انتصار الثورة فسنلاحظ كيف أنّهم

---

(١) راجع **قبض وبسط تئوريك شريعت** (الانكماش والانبساط النظريّ في الشريعة)، ص٢٨٧و ٣٩٤ (بالفارسيّة).

يستدلّون بالآيات والأحاديث ويستعملونها كأدوات لتحقيق مآربهم. وبالإضافة إلى الكتب فإنّهم يطرحون بحوثهم أحياناً من خلال محاضرات أو حتّى دروس تنظَّم تحت شعار تفسير نهج البلاغة.

٢. كلام العلماء المتشابه

يقوم هؤلاء في البداية بتصنيف القيم ضمن إطار الأُمور الاعتباريّة؛ ممّا يعني تجريد حسن الأشياء وقبحها عن الواقعيّة. فيقولون: «ليس لدينا في الخارج شيء باسم الحُسن أو القبح، بل إنّ الحَسَن والقبيح هو حالة نفسانيّة تنشأ في أنفسنا تجاه تصرّف أو شيء فنبني ـ من خلال أحاسيسنا وسابق ما تراكم في أذهاننا ووفقاً للآداب والأعراف والسنن ـ على أنّ الشيء الفلانيّ هو حسن مثلاً. ولعلّنا نعود إلى نفس الشيء بعد مدّة لنقرّر بأنّه قد صار قبيحاً. وهو ما يدلّ على أنّه ليس للحُسن والقبح مرتكز عقلانيّ». ثمّ يعمد هؤلاء إلى الاستناد إلى كلام بعض كبار العلماء ـ ممّن عَدّ هذه المفاهيم القيميّة اعتباريّة وأنّها غير قابلة للبرهان ـ فيوحون بموافقة هؤلاء العلماء لآرائهم ويبادرون إلى القول: تعالوا وانظروا فإنّ علّامتكم الفلانيّ أو عالمكم الكذائيّ يحمل نفس هذا الرأي! ولا يعير أمثال هؤلاء أهمّية لما قاله هذا العلّامة، وفي أيّ مقام قال ما قال، وما الذي قصد من وراء رأيه هذا؛ لأنّه عندما يكون الغرض هو التمسّك بالمتشابهات، فلا تعود هناك حاجة إلى فهم ما يطرحه العلماء! بل المهمّ هو القول: إنّ القيم التي تطرحونها من قبيل الحجاب، وولاية الفقيه، والحرّية، وغيرها من المفاهيم إنّما تندرج في إطار الاعتباريّات وهي ليست ممّا يقبل البرهنة، ولا يسعكم أن تفتّشوا عن أدلّة عليها. ولعمري فإنّه بإثبات هذا المبحث يُنسف أصل الدين ولا يبقى منه شيء.

٣. اختلاف السلوكيّات والآداب باختلاف المناطق

يضيف هؤلاء: «حتّى القيم الموجودة في المجتمع ـ ومهما كان الطريق لإثباتها ـ فهي أُمور متغيّرة ونسبيّة؛ بمعنى أنّها قد تكون بالنسبة للبعض وفي زمان معيّن حسنة، بينما تكون للبعض الآخر أو في زمان آخر قبيحة. ويمكن إثبات هذا المدّعى بأدلّة مقبولة لدى العرف. فعلى سبيل المثال، الرجال في المدن الجنوبيّة، لاسيّما الساحليّة منها (كبوشهر وبندر عبّاس) لا يرتدون في فصل الصيف سروالاً بل يربطون على خصرهم مئزراً. إذن فلبس المئزر هناك أمر حسن؛ لأنّ ارتداءهم للسروال يؤدّي إلى التعرّق الشديد. أمّا في مدينة قمّ فمن المستقبَح أن يسير المرء في الشارع مرتدياً مئزراً. فكيف يتنزّه هذا الشيء عن القبح هناك، بينما يكون قبيحاً هنا؟ إذن يُعلم من ذلك أنّ القيم هي أُمور متغيّرة ونسبيّة. وكذا الحال في المسبح أو حمّام السوق، فالناس يخلعون ملابسهم إلّا ما يستر العورة. لكن هل من اللائق أن يسير المرء في الشارع أو يدخل المجالس العامّة والجامعات والمدارس بالهيئة التي يكون عليها في حمّام السوق؟ فيتبيّن من أمثال ذلك أنّ الحُسن والقبح أمران نسبيّان، وأنّ الأُمور قد تكون حسنة في محلّ وقبيحة في محلّ آخر».

هؤلاء يحكمون على كافّة الأُمور القيميّة بهذه الكيفيّة. فالكثير ممّن يمسك اليوم بزمام الأُمور في بلدان العالم المختلفة من زعماء ورؤساء وزراء ووزراء ونوّاب وغيرهم ممّن يتولّى مناصب حسّاسة في بلدان تصنَّف ضمن دول الطراز الأوّل في العالم يرى ـ بكلّ وقاحة ـ أنّ الشذوذ الجنسيّ أمر حسن، وإنّ أحد إشكالاتهم على الجمهوريّة الإسلاميّة هي تحريمها للمثليّة[1]، لاعتقادهم بأنّ

---

(١) الميل الجنسيّ إلى الجنس المشابه أو ممارسة الجنس معه أو الزواج به، وهي ما يصطلح عليها أيضاً بالشذوذ الجنسيّ.

الحرّية هي حقّ لجميع البشر. فهم يقولون: «لماذا تعارض الجمهوريّة الإسلاميّة الشواذّ جنسيّاً ولا تعترف رسميّاً بحقوقهم؟! والغريب أنّ نفس هؤلاء الأشخاص وفي نفس هذه البلدان كانوا إلى نصف قرن مضى من الزمن يعدّون ممارسة الجنس مع المثل من أقبح القبائح، أمّا الآن وفي البلدان نفسها فهاهم يعترفون رسميّاً بالشواذّ جنسيّاً حتّى خُصّص لهم علَم وشعار وأندية»(1).

فالذين يبتغون الفتنة يتّخذون من هذه الأُمور ومثيلاتها دليلاً على نسبيّة الحسن والقبح داعين إلى عدم التزمّت في مثل هذه القضايا! فهم يقولون: «النساء في مدينة قمّ المقدّسة كنّ في زمن من الأزمنة يسترن وجوههنّ بالبرقع، بل وكانت المتديّنات والمحتاطات منهنّ يضعن برقعين. أمّا اليوم فقد يسخر بعض المسلمين من أهالي نفس المدينة من التي تضع البرقع؛ وهذا دليل على نسبيّة هذه القيم». ثمّ يتمادون في هذا السبيل فيقولون: «إذا كان الفعل أو الشيء حسناً لدى البعض وقبيحاً لدى البعض الآخر فإنّ كلا الرأيين محترمان؛ فليس من حقّ الطائفة الأُولى أن تتّهم الثانية بالخطأ، كما وليس من حقّ الطائفة الثانية أن تنسب الخطأ للأُولى؛ فلابدّ من مراعاة الأدب في هذا الجانب، لكن ليس هناك ما يسمّى حقيقةً». أو يقولون: «أليس لمختلف المفسّرين أقوال شتّى في تفسير آية واحدة؟ ألا يطرح المفسّر الواحد أحياناً احتمالات عدّة في تفسير نفس الآية؟ ألا يقوّي مفسّر رأياً تفسيريّاً بينما يضعِف آخر نظريّة أُخرى؟ إذن فجميع المسائل الدينيّة هي على هذه الشاكلة؛ حتّى الاعتقاد بالله. فأنتم لديكم تفسير لله،

---

(١) شاهدت مرّة في فينّا عاصمة النمسا بناية ورديّة اللون جميلة رُفع عليها علم فسألت أعضاء السفارة فيما إذا كان لهذه البناية من خصوصيّة مّا، فقالوا: أجل، فهي بناية خاصّة بذوي الشذوذ الجنسيّ (وهم المثليّون) ويرتادها كبار شخصيّات البلاد من تجّار، وأثرياء، وسياسيّين، ومسؤولين!

وعُبّاد الأصنام لديهم تفسير آخر له. وليس من المعلوم أنّ تفسيركم لله أفضل من تفسيرهم! فهم أيضاً يقولون بمبدأ: «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»[1]؛ فلكلّ إنسان طريق خاصّ به إلى الله تعالى، وإنّ للآخر طريقاً آخر أيضاً. والنتيجة هي أنّه ليس هناك من صراط مستقيم واحد، بل هي متعدّدة، فمَن ذا يقول: إنّ هناك صراطاً واحداً ليس غير؟!

٤. الاختلاف والتغيير في فتاوى مراجع الدين

من جملة مغالطات هؤلاء هي مواجهتهم لمقلّدي المراجع بالقول: «لقد كنتم في حياة المرجع السابق تعملون بالفتوى الفلانيّة حيث إنّ عملكم بخلافها كان من شأنه أن يبطل عبادتكم، أمّا الآن فإنّكم تعملون طبق حكم آخر حسب رأي المرجع الجديد، إذن فإنّ الدين أمر نسبيّ». ويقولون أيضاً: «بل والأدهى من ذلك أنّ المجتهد نفسه قد يغيّر فتواه أحياناً؛ ففتوى المجتهد الفلانيّ في المسألة الكذائيّة كان هكذا أمّا الآن فقد تغيّر رأيه في نفس هذه المسألة. يُعلم من ذلك أنّ أحكام الدين ليست وحيّاً مُنزَلاً ولا هي أزليّة وأبديّة، بل هي نسبيّة وقابلة للتغيير». بل وقد يجرؤ أهل الزيغ أحياناً على القول: «نفس الإمام الخمينيّ﵀ كان يفتي بدايةً بعدم جواز لعب الشطرنج لكنّه أفتى لاحقاً بجوازه، فصار محلّلاً! إذن فمن الممكن أن يصبح الخمر المحرّم محلّلاً ذات يوم»!

هذه بعض المتشابهات التي يستغلّها أهل الزيغ. بالطبع نحن نعلم بوجود الاختلاف بين الفقهاء وليس في ذلك أيّ إشكال. فكلّ مَن يعمل بفتوى المرجع الذي يقلّده يُثاب على عمله وهو معذور. وكذا المجتهد فهو ـ وإنْ لم يصب الحقّ

(١) راجع **بحار الأنوار**، ج٦٤، ص١٣٧؛ كما ويقال أحياناً: «الطرق إلى الله بعدد نفوس الخلائق».

وأخطأ في الفتوى بلا قصد ـ فإنّه لا يُحرَم من الأجر أيضاً؛ حيث يكون: «للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد». لكنّ السؤال هنا هو: هل هذا الكلام دليل على كون القيم نسبيّة؟ وهل انّه ليس لدينا قيمٌ ثابتة؟ فالجواب على هذين السؤالين ليس بالأمر الهيّن جدّاً. فهؤلاء إنّما يبثّون أمثال هذه الأُمور لإغواء الآخرين. فالمثل (الفارسيّ) المعروف يقول: إذا ألقى المجنون حجراً في البئر فلن يستطيع مائة عاقل إخراجه منها. إذ من السهل إلقاء الحجر أو بثّ الشبهة لكن من الصعب حلّ هذه الشبهة.

فالطرق المعدّة لإلقاء الشبهات والتي تمهّد السبيل أمام أهل الفتنة كثيرة ومتعدّدة جدّاً خصوصاً إذا كان المعلّم والداعم هو إبليس، لكنّ محاربة هذه الشبهات والردّ عليها صعب للغاية لاسيّما إذا لم يشعر أُولئك الذين يتحتّم عليهم الإجابة على هذه الشبهات بالمسؤوليّة، حيث سيخلو ميدان النزال حينئذ أمام العاملين على بثّ الشبهات وأصحاب الفتنة وسيصولون صولتهم ويأتون على كلّ شيء. ولابدّ أن نعترف، بكلّ أسى ومرارة، بوجود أمثال هذه الأُمور.

ضرورة التأهّب لمواجهة الشبهات

الشبهات الفلسفيّة التي سبقت الإشارة إلى بعضها لا تخطر حتّى ببال بعض كبار العلماء. فهناك من كبار العلماء من أهل العلم والفضل والفقاهة والتقوى والتديّن الكثير ونحن نكنّ لهم كلّ المودّة والاحترام، لكن ينقصهم الاستعداد للإجابة على هذه الشبهات لكونها فلسفيّة وهم غرباء عن هذا الوادي.

منذ أكثر من عشرين عاماً وقد طُرحت مسألة «انكماش الشريعة وانبساطها» وقد كُتبت في هذا المجال المقالات وصُنّفت الكتب. لكن كم من الحاضرين مَن

يملك تصوّراً واضحاً عن مفهوم «انكماش الشريعة وانبساطها» إذا سُئل عنه؟ للأسف فهناك مَن لا يعلم شيئاً عن أصل الموضوع فضلاً عن قدرته على الإجابة عليه! هناك أمثلة كثيرة على هذا النمط من المسائل والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الدروس الرسميّة للحوزة العلميّة ـ على الرغم من ضرورتها وكونها محطّ احترام ـ غير كافية للردّ على مثل هذه الشبهات ولابدّ من رفدها بدروس أُخرى.

فبأيّ وسيلة يمكن لمن لا يعرف شيئاً عن الفلسفة أن يردّ على مثل هذه الشبهات؟ هل يجيب وفق مبدأ البراءة والاستصحاب؟ فهو أيضاً فنّ من الفنون يتطلّب استدلالاً وجواباً يتناسب معه. فإذا كان الردّ على أمثال هذه الشبهات ضروريّاً كانت مقدّماته ضروريّة أيضاً[1]. إذ يتعيّن الالتفات إلى كيفيّة نشوء الفتنة وإلى المواطن والمجالات التي تنشط وتنمو فيها. فلا نتصورنّ أنّ جميع طلبة الجامعات ـ الذين يتّصفون بالصلاح والتديّن ـ مطّلعون على المسائل الشرعيّة والفقهيّة والكلاميّة بنفس مستوى طلّاب الحوزات العلميّة. فطلّاب العلوم الدينيّة قد أفنوا أعمارهم في الحوزات العلميّة في طلب هذه العلوم حتّى أنِسوا هذه البحوث وتعاطوا معها. فإذا كانت معرفة الأخيرين بالعلوم الدينيّة ضحلة هي الأُخرى، حالهم حال طلبة الجامعات، صاروا أسرع تأثّراً بالشبهات وانزلاقاً في مهاويها؛ إذ عندما تكون الشبهة متقَنة فإنّها تؤثّر على الدارسين

---

(١) فلو افترضنا أنّ الذهاب إلى ساحة القتال واجب فإنّ التدريب العسكريّ يكون واجباً بالتبع. فما الذي باستطاعة الشخص غير المدرّب على السلاح وفنون القتال أن يصنع في ساحة الحرب؟ إذن فبدليل كون الجهاد واجباً، يكون التدريب العسكريّ واجباً أيضاً؛ مع أنّه واجب كفائيّ. لكن متى ما صار الجهاد واجباً عينيّاً، أصبح التدريب العسكريّ واجباً عينيّاً هو الآخر.

والمتعلّمين أيضاً، فضلاً عن الآخرين من غير المتعلّمين. فمَن هو المسؤول إذن عن الردّ على الشبهات؟ جاء في الخبر عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «**ما أخذ الله على الجُهّال أن يتعلّموا حتّى أخذ على العلماء أن يعلّموا**»[1]؛ أي إنّ الله لم يوجب طلب العلم على المتعلّمين إلّا عندما أوجب على العلماء تعليم العلم.

فعلى العلماء أن يبذلوا غاية الجهد في طلب العلم وتعلّمه وتعليمه للآخرين أو وضع خلاصة ما تعلّموه في متناول أيديهم[2]. أمّا إذا لم يحرّك علماء الدين ساكناً، فمَن سيكون المسؤول عن هذا الأمر يا ترى؟

٥. إثارة أصحاب الفتنة للفُرقة وجنيهم الثمار من تبعاتها

إنّ من جملة السبل التي ينتهجها أصحاب الفتنة والتي يمتدّ تاريخها إلى أمد بعيد هي استغلال بيئات الفُرقة والخلاف بين أفراد المجتمع. بل إنّهم يسعون ـ في حال عدم وجود بوادر الفرقة ـ إلى زرعها بين الناس كي يضْعِفوا قدرة الأُمّة على مواجهتهم. فإذا تفرّقت القوى والطاقات التي يمتلكها المجتمع ـ سواء منها الفكريّة، أو العاطفيّة، أو العلميّة، أو غيرها ـ وتشتّتت واستُفيد من كلّ واحدة منها باتّجاه مغاير للأُخرى فسوف يتمكّن العدوّ من التسلّط على هذا المجتمع بكلّ سهولة. أمّا إذا توحّدت الطاقات واستُغِلّت جميعها باتّجاه واحد فسيُصبح التسلّط على هذه القوّة المتلاحمة أمراً صعباً للغاية.

من هذا المنطلق، يبذل العدوّ كلّ ما بوسعه في سبيل بثّ الفرقة بين الناس.

---

(١) **بحار الأنوار**، ج٢، ص٧٨.

(٢) كما يقول حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ قراءتي: لابدّ من تلخيص البحوث العلميّة ووضعها كالساندويج في متناول مَن لا يملك الوقت الكافي لطلبها.

وليس ثمّة حاجة في هذا المجال للاستدلال على ضرورة الوحدة والائتلاف[١]. وقد أُشير في آيات الذكر الحكيم إلى هذا المعنى أيضاً؛ منها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...﴾[٢]، أو: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٣]؛ فعندما تصبحون في مواجهة بعضكم البعض وتنشغلون في النزاع والصراعات فستفشلون وتذهب كرامتكم ويُراق ماء وجوهكم فتخور في النهاية قوّتكم وتتلاشى هيبتكم. فالقرآن الكريم يذمّ الخلاف بين الناس ويعدّه من موجبات السقوط. ولم يخل **نهج البلاغة** من نظائر هذه المعاني أيضاً، بل إنّها من أوضح الواضحات في جميع المصادر الإسلاميّة عموماً وليست بحاجة إلى مزيد من التوضيح. فإنّ ما يهمّنا هنا هو فهم كيفيّة نشوء الاختلاف واستغلال العدوّ لهذه الظاهرة كي نتمكّن من الوقاية منها، وأن نعرف ـ إذا حصلت حالة الخلاف ـ السبيلَ للخروج منها والحدّ من تفشّيها.

سرّ ظهور الاختلاف

المقصود من الاختلاف هو الاختلاف في الأفكار والسلوكيّات؛ وإلّا

---

(١) وقصّة ذلك الأب معروفة حيث جمع أولاده عندما حضره الموت وأعطى كلّ واحد منهم عوداً وقال لهم: اكسروه، فكسر كلّ واحد منهم عوده. ثمّ حزم مجموعة أعواد مع بعضها وطلب من أولاده كسرها فلم يتمكّنوا من ذلك. فقال لهم الأب: فعلت هذا لتعلموا أنّكم إن تفرّقتم عن بعضكم غلبكم العدوّ. أمّا إذا اتحدتم فستكونون كحزمة الأعواد هذه لا يمكن كسرها بسهولة. لقد مرّت علينا هذه الأمثال في كتب الدراسة الابتدائيّة وقد أنسنا في حينها بأشعار «سعدي» وغيره من الشعراء في هذا المضمار التي كانت تشير إلى أنّ الوحدة والائتلاف يؤتيان ثماراً جمّة، أمّا الفُرقة والاختلاف فليس من ورائهما غير إتلاف الفرص والتخريب.

(٢) **سورة الأنعام**، الآية ١٥٩.

(٣) **سورة الأنفال**، الآية ٤٦.

فالاختلاف في الشكل والهيئة وأمثالها هي من لوازم الخلقة. لكن هل من الممكن أن يفكّر جميع أفراد المجتمع على نسق واحد وأن يتماثلوا في الأذواق والتصرّفات؟ لعلّ من المحال في الظروف العاديّة أن لا يكون لأفراد المجتمع ـ مهما كان صغيراً ـ أيّ اختلاف في الرأي حول قضيّة معيّنة، والتجربة تدلّ على ذلك أيضاً. بل حتّى أعضاء الأُسرة الواحدة المتكوّنة من أب وأُمّ وبضعة أولاد فإنّهم ليسوا سواسية في التفكير والذوق. ولا يمكن في الحالات العاديّة تجنّب هذه الاختلافات. ولو افترضنا إمكانيّة اجتنابها بشكل من الأشكال فقد لا يكون مثل هذا الأمر مستساغاً؛ ذلك أنّ نضج الثقافة الاجتماعيّة ونموّ الحضارة البشريّة إنّما يتحقّق في ظلّ النشاطات المتنوّعة التي تؤثّر الواحدة في الأُخرى ممّا يترتّب عليه نضج فكريّ وصناعيّ ورفاهيّ واقتصاديّ وعلميّ للبشر. فلو تشابه الجميع في التفكير والذوق واتّجهوا جميعاً إلى مهنة واحدة لظلّت باقي المهن شاغرة ولم يعمد أحد إلى تولّيها. إذن فاتّحادٌ من هذا القبيل هو غير مرغوب فيه.

فإذا لم يكن بالإمكان الوقوف في وجه جميع الاختلافات، فهل يصحّ يا ترى ترك جميع أفراد المجتمع أحراراً في اختيار مسير حياتهم وتقدّمهم وعدم محاولة خلق أيّ حالة من التوحّد الفكريّ والسلوكيّ بينهم؟

إنّ وجود الاختلاف هو أمر طبيعيّ ولا مناص للمختلفين في الرأي من أن يختلفوا ـ شيئاً فشيئاً ـ في السلوك والمعتقدات والدين، بل وقد يصل بهم الأمر إلى حدّ النزاع أيضاً؛ وهذا أمر طبيعيّ. لكنّ السؤال هو: أليس من الواجب السعي باتّجاه تقليص الفواصل ورفع الاختلافات، أم لابدّ من إطلاق العنان للخلافات للوصول إلى نقطة هي على طرف النقيض من الفرض الأوّل؟ فالفرض الأوّل هو محاولة عدم بروز أيّ خلاف، وقد ثبت استحالته. فهل من المستساغ ـ بالمقابل ـ

ترك الخلافات على حالها وأن لا نعمد إلى منع أيّ شكل من أشكالها؟

يعلم العقلاء أنّ بعض الخلافات إذا ظهرت وتُركت وشأنها ولم تُتَّخذ أيّ خطوة لتفاديها فإنّه لن يبقى أثر لمجتمع أو حضارة أو أخلاق؛ ذلك أنّه إذا بُني على أن يتصرّف كلّ امرئ كما يحلو له من دون ضابطة يقبلها الطرفان فسيؤول حال المجتمع إلى الهرج والمرج والفساد والتشرذم. إذن فترك الاختلافات على هذا النحو ليس صحيحاً. ناهيك عن أنّ لكلّ مجتمع عدوّاً من الممكن أن يستغلّ هذه الخلافات في السعي للقضاء على هذا المجتمع. ومن هنا فلابدّ من العثور على سبيل للحدّ من هذه الخلافات لتحصين المجتمع من نفوذ العدوّ. ومن هذا المنطلق يتعيّن العكوف على دراسة عوامل الاختلاف، ومعرفة المجالات التي لا مفرّ فيها من الخلاف، وتشخيص الأُمور التي لابدّ فيها من الوحدة، والمسائل التي يكون الخلاف فيها مستساغاً، وما هو السرّ من وراء ظهور الاختلاف في أفكار الناس وسلوكيّاتهم وسجاياهم.

الضروريّات ومحور الوحدة

من المهمّ في هذا السياق أن لا يكون الخلاف حول الأُمور الأساسيّة؛ بمعنى أن لا يكون حول محور الحقائق والمعتقدات والسلوكيّات الحقّة الضروريّة لسعادة البشر. إذ يتحتّم بذل كلّ جهد في سبيل أن يعرف الجميع الحقّ، ويلتزموا به، ولا يختلفوا عليه. أمّا حصول الخلاف حول أُمور أُخرى فإنّه لا يشكّل خطراً فادحاً، بل ولا يمكن ـ عموماً ـ تجنّبه. من هذا المنطلق فإنّ الحيّز الذي يتحتّم إعفاؤه من الخلافات هو حيّز الدين الحقّ الذي يشمل الحقائق والمعتقدات والقيم الحقّة التي يتعيّن التمسّك بها. ولّما كان الدين الحقّ ـ وفقاً لاعتقادنا ـ واحداً دائماً، فإذا حصل

الخلاف ضمن نطاق الدين فإمّا أن يكون أحد طرفي النزاع والاختلاف باطلاً والآخر حقّاً، وإمّا أن يكون الطرفان على باطل. وتأسيساً على ذلك فلا يمكن لدين الحقّ أن يتعدّد، ويستحيل أن يوجد حقّ في مقابل الدين نفسه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[1]، فإذا كان لدينا حقّ، فليس من شيء بعده إلّا الضلال.

في زماننا هذا ـ الذي يطلق عليه البعض جاهليّة القرن العشرين أو الحادي والعشرين ـ يميل البعض إلى الاعتقاد بأنّ الحقّ والباطل إنّما هو وليد أذواق الناس ومطالبهم. وبناءً عليه فلا وجود لدين حقّ، بل إنّ جميع الأديان حسنة ومقبولة. بل وقد ظهر حتّى من بين المسلمين ودعاة الدفاع عن الإسلام مَن يعتقد بأنّ الصراط المستقيم متعدّد وليس واحداً ولا يرى من اختلاف فاحش بين مذهب وآخر أو بين دين وآخر. فهؤلاء يزعمون أنّ الأمر سيّان، سواء أتديّن المرء بالنصرانيّة أو باليهوديّة أو بالإسلام أو بأيّ ديانة أُخرى فجميعها سواء، وقد سمّوا ذلك بالتعدّديّة الدينيّة وقرّروا صحّة جميع الأديان على هذا الأساس.

هذا الموضوع يتطلّب بحثاً مستقلاً وقد تناولتُه وتناوله الآخرون في محلّه. لكنّ الفرض الذي أسّسنا عليه بحثنا هذا هو أنّ الدين الحقّ واحد، وإذا اختلف الآخرون معنا في هذا المجال فليبحثوا ذلك في موضع آخر. فما نصرّ ونؤكّد عليه نحن بشدّة هو أنّ الدين الحقّ واحد وليس من خلاف حول هذه القضيّة. فالاختلاف في الأذواق والسلوكيّات لا يشكّل خطراً كبيراً، بل وقد يكون مفيداً أحياناً. أمّا الاختلاف في الدين فإنّ من شأنه أن يجرّ الإنسان إلى عذاب أبديّ

---

(١) سورة يونس، الآية ٣٢.

ويسلبه سعادة الدارين. فالدين يتضمّن مجموعة من المسائل الأساسيّة تُعدّ أركاناً له وهو قائم بها، ولا يجوز التنازع حولها. لكنّه من الممكن أن يحصل الخلاف حول المسائل الفرعيّة والجزئيّة للدين وقد لا يتوفّر حلّ لرفع هذا الخلاف بالكامل؛ كاختلاف فتاوى المراجع حول التسبيحات الأربع في الصلاة فهل يجب قراءتها ثلاث مرّات أم إنّ قراءتها مرّة واحدة مجزية؟ ألف عام مضت والفقهاء يبحثون في هذه القضيّة ولا زال بعضهم يفتي بوجوب تكرارها ثلاث مرّات، بينما يفتي آخرون بإجزاء المرّة الواحدة.

فلا مفرّ إذن من أمثال هذه الخلافات وإنّ السرّ الرئيسيّ من ورائها هو عدم إمكانيّة الوصول إلى المعصوم عليه السلام. أمّا في يقينيّات الدين وضروريّاته فلا ينبغي التنازع؛ لأنّ الذي ينكرها سيخرج عن هذا الدين. لكن لماذا يحصل النزاع حول ضروريّات الدين أساساً[1]؟ لقد ورد في القرآن الكريم الجواب على هذا السؤال بالنسبة للمتديّنين بدين معيّن. وهناك آيات جمّة في هذا الوادي نذكر منها قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[2]. وقد بُيّن مفهوم هذه الجملة: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ في القرآن مراراً وتكراراً. فإنّ من جملة التعاليم القرآنيّة المتعلّقة بعلم النفس هي أنّ الاختلاف في الدين ينبع حصراً من روح الاستعلاء والأنانية والتجاوز على

(١) هنا لابدّ من طرح هذه القضيّة على طاولة بحث علميّ يشترك فيه علماء النفس الاجتماعيّون وعلماء الاجتماع.

(٢) **سورة آل عمران**، الآيتان ١٨ و ١٩.

حقوق الآخرين؛ أي إنّ الاختلاف والتنازع في الدين إنّما هو نتيجة سوء تصرّف الظَّلَمة، وإلّا فإنّ الله قد أرسل رسله وأتمّ الحجّة على خلقه. إذن فأساس الاختلاف في الدين ليس نابعاً من جهل هؤلاء، بل إنّهم هم الذين يشعلون نار الاختلاف. فمن ناحيتهم هم أهل علم، لكنّهم ـ وعلى خلفيّة تكبّرهم واستعلائهم على الآخرين واعتبارهم لأنفسهم شأناً ومقاماً وجاهاً ومحاولتهم التكسّب والارتزاق من مكانتهم ـ فإنّهم يعمدون إلى اختلاق الفِرَق والمذاهب والأديان. فلولا الدافع المذكور في الآية: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ لم يكن لينشب اختلافٌ في الدين بحسب هذه المعادلات. ولابدّ هنا من الإشارة إلى أنّ حافز الاستعلاء لا يختصّ بالمسائل الدينيّة، بل إنّ هذه الغريزة الشيطانيّة مودَعة في كيان ابن آدم وهي إن لم تروَّض نمَت وترعرعت وجرّت إلى أشكال من الفساد شتّى. فهذه الغريزة تشاهَد حتّى عند الأطفال عندما يرغب أحدهم بالاستعلاء على أقرانه؛ كأن يرغب بالاستئثار بالألعاب وأن لا تكون لغيره مثلها، أو الرغبة في حيازة اللعبة الأفضل لنفسه. فالطفل ـ بشكل طبيعيّ ـ لا يعطي ألعابه لغيره إلّا إذا تربّى في بيئة يُنظر فيها إلى هذه الصفة كقيمة؛ وإلّا فهو ينحّي اللعَب الأُخرى جانباً وينتقي الأفضل له، بل ويحاول الاستحواذ عليها جميعاً. فروحيّة الاستعلاء هذه تشكّل الحجر الأساس لمفاسد جمّة. يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗا﴾[1]؛ فالسعادة الأبديّة إنّما هي من نصيب أُولئك الذين لا يسعون للاستعلاء على الآخرين. فروح الاستعلاء تجرّ صاحبها إلى عذاب أبديّ وتؤدّي به إلى

(١) سورة القصص، الآية ٨٣.

انحرافات في الدين وإلى الفساد والكفر والشرك. وقد تعرّض القرآن الكريم في آية أُخرى لروح الاستعلاء لدى فرعون معتبراً إيّاها منشأ ما ابتُلي به من أنماط الفساد الأُخرى؛ أي إنّ ما جعل من فرعون فرعونَ وحرّضه على الوقوف بوجه موسى عليه السلام ودعاه إلى ادّعاء الربوبيّة كانت تلك الروح: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وقد حذّرت أحاديث أهل البيت عليهم السلام الواردة في ذيل هذه الآية بشدّة من الاستعلاء على الناس إلى درجة ذهاب أحدها إلى القول: إنّ مَن أحبّ أن يكون رباط نعله أفضل من رباط نعل غيره فهو يشكو مرتبةً من مراتب العلوّ[2]. أي: لماذا تميل إلى الاستعلاء عندما تقارن نفسك مع الآخرين؟ فاسع في تلبية حاجاتك وسِر نحو الكمال فليس من نزاع في هذا المجال على الإطلاق، فمهما تقدّمتَ في هذا الطريق فإنّك لن تضايق الآخرين. فلماذا يراقب الإنسانُ الناسَ في الأُمور التافهة الجزئيّة ويحاول دوماً أن يكون أفضل منهم؟ سواء في اللباس، أو الكتاب، أو البيت، أو السيّارة، حتّى يصل الأمر إلى الرئاسة والمنصب والجاه. فكلّما تقدّم المرء أكثر في مسيرته تبدأ الفتن بالظهور. فروح العلوّ مودَعة في كيان الإنسان غريزيّاً ولابدّ من ترويضها وإصلاحها بالعقل والتدبير الدينيّ. وهي غالباً ما تكون مقرونة بالحسد. فإذا وقّر الناس ـ على سبيل المثال ـ عالِماً واحترموه، ينظر منافسه إلى احترام الناس الزائد لهذا العالم فيسأل نفسه: لماذا لا يبجّلونني ويوقّرونني كما يفعلون معه؟ ومن هنا فمن

---

(١) **سورة القصص**، الآية ٤.

(٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّ الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل في هذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الآية**». (**مجمع البيان**، ج٧، ص٤٢٠).

الممكن أن يلجأ إلى البغي ويفعل ما يجعله أرفع شأناً من ذلك العالِم ليزداد توقير الناس واحترامهم له؛ بمعنى أنّه ينزعج من احترام الناس الزائد لندّه.

فلنتمعّن في قصّة نبيّ الله يوسف عليه السلام مرّة أُخرى ونفتّش عن الداعي وراء رمي إخوة يوسف لأخيهم في البئر، بل واقتراح أحدهم قتله أيضاً! سنجد أنّ السبب هو: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾(1)، إذن ماذا عسانا أن نفعل؟ ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾(2). كان هؤلاء أولاد نبيّ من أنبياء الله ولم يكونوا أُناساً عاديّين، لكنّهم عندما لاحظوا أنّ حبّ أبيهم لاثنين من إخوتهم أكثر من حبّه لهم عملوا بكلّ سهولة على إقصائه عن ناظر أبيه.

هذه الظاهرة لا تختصّ بإخوة يوسف عليه السلام بل هي موجودة في كيان كلّ واحد منّا؛ فنحن نحبّ أن نكون أفضل من أقراننا أو زملائنا في الدرس أو في العمل وأن نحظى باهتمام أكبر من الآخرين، اللهمّ إلّا أن يمدّ الله جلّ وعلا لنا يد العون فنهذّب أنفسنا ونصلحها في مدرسة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام. وإلّا فابن آدم مطبوع على هذه السجيّة. والقرآن الكريم يُرجع الاختلاف في الدين إلى اختلاف علماء الدين عندما يكونون في صدد التفاضل والاستعلاء على أقرانهم. ولا تختصّ هذه الصفة بعلماء الدين، بل إنّ شرائح المجتمع الأُخرى هي أيضاً على هذه الشاكلة في مسألة العلوّ والاستعلاء؛ كأن يتنافس التاجر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ مع قرينه ويرغب في جني ما جناه التاجر الآخر من أرباح ومكاسب. فما هو الغرض من الإعلانات التي تروّج للسلع التجاريّة يا ترى؟ الغاية منها رفع

(1) سورة يوسف، الآية ٨.

(2) سورة يوسف، الآية ٩.

مستوى مبيعات هذا المصنع أو المحلّ التجاريّ وثني الناس عن شراء سلع المنافس كي يخسر ويُفلس! فالتاجر غالباً مّا يفكّر بجني الربح لنفسه ولا يفكّر بالآخرين، وإنّ الذي يشغل ذهنه منهم بمنافسه ولا يرضى بخسارته فهو نادر جدّاً. فالإنسان ذاتاً لا يفكّر بغيره. ولقد تفشّت الأنانيّة لاسيّما في عصرنا الحاليّ مع وجود «الفلسفة الفرديّة»[1] فلا نرى مَن يفكّر بالآخر. حتّى الابن تراه لا يفكّر بأبيه ولا يتفقّد أحواله في كِبر سنّه بل ويرسله إلى دار العجزة!

إذن فمنشأ الاختلاف في الدين ومبادرة بني البشر كلّ يوم إلى تأسيس فرقة جديدة ودين جديد ونحت تمثال وصنم جديد إنّما هو عائد إلى كسب الأرباح الماديّة والاستعلاء. لكن قد لا يكون هؤلاء العلماء هم المؤسّسين للفتنة أحياناً، بل يصبحون وسيلة بيد أصحاب الفتنة لتمرير خططهم؛ وذلك عن طريق استغلال الخلافات الموجودة أصلاً بينهم فيمعنون في تعميقها وتضخيمها. فأهل الفتنة يسعون إلى وضع الناس في مواجهة بعضهم البعض والإيقاع بينهم ليحصلوا هم على النتيجة المرجوّة.

إذن هناك طائفتان من الناس يسعون وراء الاختلافات وجني الثمار منها: أصحاب الطائفة الأُولى يعملون بأنفسهم على إثارة الخلافات جرّاء ما يتّصفون به من روح الاستعلاء والأنانيّة وحبّ الجاه والتسلّط ممّا يدفعهم إلى التعالي على الآخرين والعمل على إلغائهم.أمّا أصحاب الطائفة الثانية فليسوا هم من أهل الاختلاف لكنّهم يستغلّون الاختلاف الموجود بين العلماء والأقوام والطوائف

---

(١) «*Individualism*» مذهب يقول بأنّ مصالح الفرد هي ـ من الناحية الأخلاقيّة ـ فوق كلّ اعتبار أو لابدّ أن تكون كذلك.

المختلفة ليعملوا على تعميق هذه الخلافات وإنهاك طاقات الطرفين المتناحرين وإيصال محصّلة نتاجاتها إلى الصفر بسبب الصراع والمواجهة. وحتّى لو كان أحد الطرفين أشدّ بأساً من الآخر واحتمال غلبته أكبر لكنّ نتيجة الاختلاف تكون في النهاية لصالح العدوّ. فإذا كانت هذه هي حقيقة الاختلاف فما هو واجبنا تجاهها وما الذي ينبغي علينا صنعه؟

يتعيّن علينا أوّلاً أن نبذل قصارى جهدنا لئلّا نكون عاملاً من عوامل الاختلاف، الأمر الذي يتطلّب منّا العمل على اجتثاث سجيّة الاستعلاء والحسد من كياننا. فما دامت هذه الآفة موجودة في نفوسنا فإنّها ستظهر في موطن من المواطن؛ فإن لم تجد مجالاً للظهور اليوم فستظهر حالما يُفسح لها المجال، حتّى وإن كان ذلك في الثمانينات من العمر أو ما بعده. إذن لابدّ من العمل على إزالة هذه الصفة الشيطانيّة كي لا نتحوّل إلى عامل من عوامل الفساد (أو الفرقة)؛ ذلك أنّ مصدر معظم حالات الفساد وإراقة الدماء والانحرافات الدينيّة والخُلُقيّة ـ كما أسلفنا ـ هو الحسد.

ثانياً يجب أن نسعى لحلّ الخلافات وتفادي تحوّلها إلى خصومة ونزاع. فالاختلاف ـ ضعيفه أو شديده ـ حاصل لا محالة، شئنا أم أبينا. لكنّه ينبغي لمن ليس من دأبه زرع الخلافات ومن يسعى في سبيل الإصلاح أن يفتّش عن الحلول الكفيلة برفع هذه الخلافات للحيلولة دون اتّساعها وتجذّرها. ولابدّ ـ على وجه الخصوص ـ من الحيلولة دون حدوث الاختلاف في الأُصول والمبادئ. فقد علّمَتنا تجارب السنين الماضية أنّ مثيري الاختلاف في بعض المسائل الأُصوليّة في الدين هم من نفس العاملين ببعض التكاليف الشرعيّة!

جاء نفر من الناس يوماً إلى أحد كبار العلماء ليخبروه بشأن أحد أركان الفتنة

والفساد وأنّ فلاناً يتبنّى عقائد فاسدة وهو يقول كذا وكذا في الوحي والنبوّة. فأجابهم قائلاً: ما هذا الكلام؟! هذا الرجل حضر عندي منذ بضعة أيّام لتسديد خُمس أمواله. وقيل لعالم آخر: هذا الرجل يقول كذا وكذا. فأجاب: كلّا، يستحيل أن يصدر مثل هذا الكلام منه؛ فأبوه كان شخصاً محترماً جدّاً في محلّتنا إلى درجة أنّ الناس كانوا يحلفون برأسه! فهل يمكن أن يكون ابنه فاسداً إلى هذا الحدّ؟ هذه هي معاييرنا في تقييم الأشخاص ومعرفة الحقّ والباطل! فأيّ تلازم يا ترى بين صلاح الأب أو طلاحه وبين تصرّفات ولده؟ فهل يتعيّن أن يكون ابن الأب الصالح صالحاً بالضرورة؟ أم إنّ الابن سينشأ طالحاً لا محالة إذا كان أبوه كذلك؟ وهل إنّ دفع شخص للخمس أو الزكاة أو أمثال ذلك هو إشعار بسلامة أفكاره وعقائده ونيّاته ودوافعه؟ فإنّ إحدى طرق النفاق والتحايل هي أن يتظاهر الشخص بالتديّن أمام أحد العلماء عن طريق دفع الحقوق الشرعيّة له؛ إذ ليس للعالِم أن يعلم إن كان هذا الرجل ملتزماً بصلاة الليل مثلاً، وحتّى لو ادّعى ذلك فإنّه لن يقبل منه، أمّا إذا دفع له الخمس فسيتصوّر العالم ـ انطلاقاً من طهارة نفسه وحسن نيّته ـ أنّه مخلِص طاهرٌ وغير مُراءٍ فينخدع به.

إذن من الضروريّ أوّلاً أن نعرف الأشخاص أنفسهم، لا أن نتعرّف عليهم من خلال آبائهم أو أقربائهم؛ وثانياً أن نعرف ما هم عليه الآن. فقد يكون الشخص كافراً في السابق لكنّه اعتنق الإسلام فيما بعد؛ كبعض الصحابة الذين كانوا في زمرة الكفّار ثمّ آمنوا بالنبيّ الكريم صلى الله عليه وآله فيما بعد. فهل بوسعنا القول: إنّهم كفّار حتّى بعد إيمانهم؟! فالمناط في الأشخاص إذن هو حالهم الآن، ولابدّ من معرفة إن كان المرء مؤمناً أم كافراً في الوقت الحاضر. وكذا الحال بالنسبة لمن كان مسلماً في السابق؛ إذ لا يمكن عدّه مسلماً باستمرار والقول: بما أنّه كان مسلماً في العام المنصرم فلابدّ أنّه ما زال يحمل

عقائد حقّة وصحيحة. بل يتحتّم أن نجعل من عقائده الحاليّة ميزاناً لتقييمه.

ومن هنا فإنّ السبيل الأوّل للقضاء على الاختلاف هو إصلاح أنفسنا، والسبيل الثاني هو محاولة الوقوف على حقيقة الأشخاص وعدم الانخداع بحسن ظواهرهم. فلا ينبغي التسرّع في الحكم من دون مبرّر ونعت الناس بالصلاح أو الطلاح اعتماداً على ماضيهم، بل يتعيّن أن يكون الملاك لنا هو وضعهم الحاليّ، فلا ندلي برأي أو نصدر حكماً أو ما إلى ذلك من دون تفحّص أو تحقيق.

السبيل لتقليص الخلافات

ماذا نفعل في سبيل تقليص الخلافات؟ إنّ معظم الاختلافات التافهة يثيرها الشيطان في بداية الأمر نتيجة سوءِ ظنّ. فقد تتسبّب رواية خاطئة في جعل شخص يسيء الظنّ بصاحبه وتبقى علاقته به باردة حتّى آخر عمره لمجرّد سماعه بأنّه قال قولاً غير سليم أو تصرّف تصرّفاً خاطئاً. إذن علينا أن نبذل كلّ ما بوسعنا في أن لا نثق بمثل هذه المنقولات. يقول القرآن الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[1]. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً: «**أما إنّه ليس بين الحقّ والباطل إلاّ أربع أصابع**»[2]. إذن علينا أن نقبل بما رأينا، لكن لا ينبغي أن نصدّق بما سمعنا، حتّى نتحقّق من الأمر. فعندما يقال: الكلّ يقول ذلك! علينا أن

---

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.

(٢) «**أما إنّه ليس بين الحقّ والباطل إلاّ أربع أصابع**». فسُئل عليه السلام عن معنى قوله هذا فجمع أصابعه ووضعها بين أُذنه وعينه ثمّ قال: «**الباطل أنْ تقول سمعتُ والحقّ أنْ تقول رأيت**» (**نهج البلاغة**، الخطبة ١٤١).

نسأل: من هم هؤلاء الكلّ؟ قد لا يكونون أكثر من شخصين أو ثلاثة أشخاص. وهذان الشخصان أو الثلاثة أيضاً لم يروا ما نقلوه بأنفسهم بل سمعوه، وقد يعود كلّ الكلام إلى رواية شخص واحد، وقد يكون هذا الشخص مخطئاً فيما سمعه. كلّ ذلك على فرض عدم وجود سوء نيّة في المسألة. بناءً عليه لا ينبغي اتّهام شخص من دون مبرّر. فهذه المنقولات الخاطئة قد تؤدّي أحياناً إلى خلافات شديدة بين الناس. هذا ناهيك عن أنّه قد يساء فهم الكثير من الكلام؛ فقد يقول شخص شيئاً في مكان معيّن وبمناسبة خاصّة قاصداً منه أمراً فيساء تفسير كلامه. إذن لا بدّ من التحقيق فيما قصد المرء من كلامه.

فما دامت هذه الاختلافات جزئيّة وتافهة فهي قابلة للحلّ بهذه الطرق. وعليه ينبغي السعي باتّجاه حفظ الوحدة وتقريب الأشخاص من بعضهم، اللهمّ إلّا أن يكون الاختلاف في أساس الدين.

دور القائد في حلّ الخلافات

إذا عرفنا يقيناً بأنّ خلاف بعض الأشخاص محوره أساس الدين فلا ينبغي التهاون في الأمر بل يتعيّن التعامل مع القضيّة بحزم، أمّا في المسائل التي عادةً ما ينشأ الخلاف فيها بشكل طبيعيّ فلا ينبغي المبالغة وتجاوز الحدّ في تفاديها والحدّ منها. ففي اختلاف الأذواق والسلوكيّات الاجتماعيّة لا يكون الخطأ والصواب فيها جليّاً تماماً بحيث يمكن لأيّ امرئ أن يفهم أنّ هذا التصرّف أو ذاك هو الحقّ وما دونه هو الباطل. فقد يختلف في الرأي مسؤولان كلاهما صادق ومتديّن وملتزم؛ كاختلاف آراء الطبيبين المتخصّصين حول مرض واحد. فهذه أُمور طبيعيّة ولا ينبغي الوقوف بوجه كلّ شخص قد تصرّف بما يمليه عليه ذوقه ما لم يكن ذلك

ضروريّاً. أمّا إذا تضارب أمر مع تصرّفاتنا بحيث يتعيّن علينا اتّخاذ موقف وإبداء رأي فيه من دون أن ندري كيف نتصرّف وماذا علينا صنعه، هذا على فرض حدوث كلّ ذلك ضمن حيّز مرتبط بالدين، فعندها لابدّ من اللجوء إلى القيادة الدينيّة. وهنا يتّضح دور القائد في المجتمع الإسلاميّ. فوحدة المجتمع الإسلاميّ إنّما تتحقّق حول محور قائده. فلو أراد الجميع بكلّ ما يحملون من خلافات (ولا نقصد بالخلاف هنا معنى الخيانة، بل هو الاختلاف في الإدراك والفهم) أن ينفّذوا ما تمليه عليهم وجهات نظرهم فستضيع مصالح المجتمع الإسلاميّ. فلابدّ في مثل هذه المواطن من وحدة في المنهج ومحور لهذه الوحدة. يتعيّن التفتيش عن معيار للسلوكيّات الاجتماعيّة التي لها بُعد اجتماعيّ وبُعد دينيّ في آن واحد. ولا ننسى هنا الفرض القائم بأنّ كلّ هذه البحوث هي حول الاختلاف في الدين أو في المسائل المتّصلة به. وبناءً عليه فإنّ الحلّ الوحيد الذي من شأنه هداية الأُمّة إلى الصلاح وإنقاذها من الخلافات الهدّامة والمخرّبة هو الاتّحاد حول محور القيادة. هذا على الرغم من أنّ مسألة معرفة القائد وانتخابه هي مسألة بالغة الأهمّية في محلّها. فالفرض القائم هنا هو أنّ قائد الأُمّة هو أصلح شخص فيها وهو قد اصطُفي وانتُخب لهذه المسؤوليّة. فإنّنا إذا فصلنا أنفسنا عنه وخالفناه في المنهج والسلوك، فهل سيكون ذلك في صالح المجتمع الإسلاميّ؟! فما هو الدليل على أنّ فهم الآخرين للأُمور أفضل منه؟ فعندما يكون للشخص باعٌ طويل في المسائل السياسيّة والاجتماعيّة، وهو يفوق الآخرين قاطبة في الاطّلاع على قضايا المجتمع بكلّ أبعادها، ويتفوّق على الباقين في الذكاء والفراسة، ويحتلّ موقع الصدارة في تدبير الأُمور والتجارب العمليّة، وقد أثبت عمليّاً على أرض الواقع أنّه أقلّ من الآخرين خطأً، فإنّ اللجوء إلى غيره ـ مع كلّ ما ذكرنا ـ لا يؤمّن مصالح المجتمع

الإسلاميّ. تأسيساً على ذلك فإنّ الشيطان يحاول جاهداً أن يبثّ بيننا بذور الفُرقة والاختلاف والتشتّت كي يعين العدوّ على التسلّط على رقابنا.

ومن هذا المنطلق فإنّ إحدى سبل الأعداء في خلق الفتنة هي تعميق هوّة الخلافات الموجودة. وما علينا في هذا المجال إلّا السعي، بكلّ ما أُوتينا من قوّة وبأيّ وسيلة متاحة، من أجل الوقوف أمام هذه الخلافات. وفي المواطن التي لابدّ فيها من حصول الاختلاف، شئنا ذلك أم أبيناه ويتعيّن ـ في الوقت نفسه ـ اختيار طريق معيّن، يتحتّم أن يكون معيارنا هو القائد الذي قد أُحرِزت لنا صلاحيّته مسبقاً.

ذمّ مثيري الفُرقة في القرآن

لقد ذمّ الباري عزّ وجلّ في كتابه العزيز مثيري الفُرقة والاختلاف في الدين بشكل لاذع جدّاً في بضع آيات قرآنيّة؛ حتّى قال في إحداها: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ ...﴾[١]. ولا يعني الشرك في هذه الآية الشرك في الخالقيّة، بل الشرك في الربوبيّة التشريعيّة، أي الشرك في سنّ القانون. فالذين يسنّون قانوناً في مقابل القانون الإلهيّ إنّما يعملون على حرف دين الله عزّ وجلّ عن مسيرته. فهم مشركون في الربوبيّة التشريعيّة. ومن هذا المنطلق جاء في الحديث: «**فإذا حكَم بحُكْمنا فلم يَقبَله منه فإنّما استخفَّ بحُكم الله وعلينا ردّ، والرادّ علينا الرادُّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله**»[٢] (والضمير المستتر للفعل «حَكَم» تقديره العلماء ورواة أحاديث أهل البيت عليهم السلام). فالمشركون في التشريع هم الذين يبثّون الفُرقة في الدين ويختلقون البدع ويُنقصون من الدين ما

(١) **سورة الروم**، الآيتان ٣١ و ٣٢.

(٢) **الكافي**، ج١، ص٦٧.

يشاءون. ومن ناحية أُخرى فإنّ الله عزّ وجلّ يمنّ على المسلمين عندما يقول: لقد أقمنا بينكم الوحدة والألُفة، وهي نعمة لا يمكن قياسها بشيء على الإطلاق. ففي آية من الذكر الحكيم يقول عزّ من قائل لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. ولعلّ التأييد المذكور هنا هو مصداق للإمدادات الغيبيّة. فالإمداد بالمؤمنين لا يتحقّق إلّا عندما يتوحّدون فيما بينهم وتأتلف قلوبهم. ثمّ يقول الله في الآية: إنّ الله هو الذي بثّ هذه الألُفة بين قلوبهم. ويعقبه بالقول: لو أنّك أنفقت ما في الأرض من أموال وإمكانات للتأليف بين قلوب المسلمين لما استطعت إلى ذلك سبيلاً. فهي لنعمة إلهيّة أن يمنّ الله على المؤمنين ـ إلى جانب نعمة الإيمان بالله وبالرسول ـ بنعمة التأليف بين القلوب وجعلهم رحماء فيما بينهم. وما كان لهذه الرحمة أن تتحقّق من خلال أيّ عامل آخر. ويقول تعالى في آية أُخرى أيضاً: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[2]. فإنّ من جملة سبل تفادي الخلافات ـ وبالنتيجة اجتناب الفتن التي يختلقها شياطين الإنس والجنّ ـ هي الوحدة والتضامن والمحبّة والألُفة بين المؤمنين. ومن الناحية الأُخرى لابدّ من تجنّب كلّ ما يسبّب برودة العلاقات وما يثير الأحقاد والضغائن بين المؤمنين، فلا يحتاج هذا المبحث إلى كثير من الدراسة والتوضيح.

---

(١) **سورة الأنفال**، الآيتان ٦٢ و ٦٣.

(٢) **سورة آل عمران**، الآية ١٠٣.

لكن ثمّة آيات في القرآن الكريم لا تجيز الوحدة والائتلاف مع الجميع؛ بمعنى أنّه في الوقت الذي يعُدّ القرآن الوحدة نعمة عظيمة، فإنّه يتعاطى معها في بعض المواطن بشدّة وقسوة، وإنّ الإنسان ليقف فاغر الفم مندهشاً من توجيه الله الرحمٰن الرحيم مثل هذه الأوامر الشديدة والقاسية لنبيّه الرؤوفﷺ. فقد جاء في سورة «التوبة» أنّه بعد نزول الأمر بالجهاد تذرّعت جماعة من المسلمين بالقول: الحرّ شديد هذه الأيّام، وإنّ ذهابنا إلى الحرب في هذا الفصل ستكون نتيجته الهزيمة حتماً. فلنصبر حتّى تخفّ وطأة الحرّ قليلاً: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾. فأتاهم الردّ الإلهيّ على الفور: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا﴾[1]؛ قل لهم يا محمّدﷺ: إن كنتم تخافون من الحرّ فحرّ نار جهنّم أشدّ من هذا الحرّ بكثير. ثمّ تشير الآيات بعد ذلك إلى أنّ هؤلاء لم يأتوا في نهاية الأمر ولم يشاركوا في الجهاد متذرّعين بذرائع واهية، لكن قد تأتي طائفة من هؤلاء بعد حين ليستأذنوك بمرافقتك إلى الجهاد: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ ...﴾[2]. ولنحاول هنا تصوّر هذا المشهد بدقّة: ففي الفترة التي كان النبيّ الأكرمﷺ يواجه في المدينة كلّ تلك الشدائد والصعوبات وكان أحوج ما يكون إلى أُناس يجاهدون إلى جانبه، يتذرّع جماعة من المسلمين ويتقاعسون عن الذهاب إلى ساحة الحرب. وهنا يستبِق الله سبحانه وتعالى الأحداث وينبّه نبيّهﷺ إلى أنّه قد يأتي إليك غداً نفر من هؤلاء معتذرين ويستأذنونك حتّى لا يشاركوا في الجهاد. ثمّ يأتي الردّ المقترَح من الباري تعالى في نفس الآية: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾؛ فقد اختلقتم الذرائع

---

(١) **سورة التوبة**، الآية ٨١.

(٢) **سورة التوبة**، الآية ٨٣.

في بداية الأمر، فاذهبوا الآن لحال سبيلكم، فلا حاجة لنا بكم! ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾(١). وهذا النمط من التعامل في إطار السياسة وإدارة نظام المجتمع يدعو إلى الدهشة حقّاً؛ وهو أنّ الذين تقاعسوا أوّل مرّة ولم يشاركوا في الحرب مختلقين بعض الذرائع لابدّ من منعهم من المشاركة فيما بعد! ولا تنتهي القضيّة إلى هذا الحدّ، بل إنّ الأمر القرآنيّ يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يقول: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾(٢)؛ أي إذا مات أحد المتخلّفين عن الجهاد فلا تُصَلّ عليه صلاة الميّت ولا تقم على قبره طالباً الرحمة والمغفرة له من الله. ومع أنّ هؤلاء لم يكونوا كفّاراً، وقد جاءوا بعد ذلك طالبين الإذن في المشاركة في الجهاد، لكنّ الباري تعالى يقول: ارفض هؤلاء فهم ليسوا بصادقين. ثمّ يقول: قد يأتي هؤلاء بعد ذلك معترفين بخطئهم طالبين العفو والصفح، لكن ما هو اقتراحه تعالى لنبيّه في حقّهم: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾(٣). ونحن نعلم أنّ الصلاة على الميت واجب كفائيّ على كلّ مسلم. فأقلّ ما يجب عمله للمسلم إذا مات هو الصلاة على جنازته. ومع ذلك يقول الباري عزّ وجلّ لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله: «**لا تُصَلّ على موتى هؤلاء**». ثمّ يقول: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٤)؛ أي: لم يتسلّل السوء إلى نيّاتنا، وقد أخطأنا ونحن معتذرون. لكنّ الله يشهد إنّهم كاذبون؛ أي إنّ اعتذارهم لا يعدو كونه اعتذاراً ظاهريّاً وليس نتيجة للندم.

---

(١) **سورة التوبة**، الآية ٨٣.

(٢) **سورة التوبة**، الآية ٨٤.

(٣) **سورة التوبة**، الآية ٩٤.

(٤) **سورة التوبة**، الآية ١٠٧.

إذن فما هو المراد من كلّ تلك الأوامر بالوحدة والأُلفة والتلاحم والصفح والتجاوز؟ ألا يحثّنا الباري عزّ وجلّ على قبول عذر الآخرين إذا جاءوا معتذرين بعد خطئهم؟ ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]. فما باله سبحانه يصرّح هنا قائلاً: إذا اعتذر هؤلاء فلا ينبغي أن تقبلوا عذرهم، بل قل لهم: إنّكم لن تكونوا مؤهّلين للجهاد أبداً. بل إنّني لن أُصلّي على جنائزكم بعد موتكم ولن أحضر قبوركم. كيف يتسنّى الجمع بين هذا الأمر وبين روح الرحمة والعفو والتسامح التي يتّصف بها الإسلام؟ لاسيّما وأنّ النبيّ الأعظمﷺ هو المظهر الأتمّ للرحمة والرأفة، بل لعلّه لم ولن يُخلق إنسان في هذا العالم يحمل كلّ هذا المقدار من المحبّة والرأفة والشفقة. ومع كلّ ذلك فإنّ الله جلّ شأنه يذهب إلى حدّ أمره بعدم الصلاة على جنازة ميّتهم بسبب تخلّفهم عن المشاركة في الجهاد!

يستشفّ المرء من ذلك أنّه يوجد بين جماعة المسلمين ـ الذين وإن تظاهروا بأداء الصلاة أو كانت صلاتهم عن تكاسل: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[2] ـ أشخاص طردهم القرآن الكريم ولم يعُدّهم من الأُمّة الإسلاميّة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[3]؛ فالذين يسعون لشقّ عصا المسلمين عن طريق بثّ الخلافات في الدين وتفريقهم إلى فِرَق وطوائف وأحزاب لا تربطك معهم أيّ صلة.

---

(١) **سورة النور**، الآية ٢٢.

(٢) **سورة التوبة**، الآية ٥٤.

(٣) **سورة الأنعام**، الآية ١٥٩.

مؤسّسو مسجد ضِرار

الطائفة الأُخرى التي يتعامل القرآن الكريم معها بشدّة وقسوة هم بُناة مسجد ضرار: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾(1). فبعض المنافقين كانوا قد كوّنوا خارج المدينة علاقات سرّية مع بعض أعداء الإسلام. وبغية زرع الفرقة في الأُمّة الإسلاميّة وبذريعة بُعد المسافة عن مسجد الرسولﷺ وعدم تمكّنهم من الحضور للصلاة في وقتها فقد عمدوا إلى بناء مسجد في منطقتهم وقد دعوا النبيّﷺ لافتتاحه. ولو حصل مثل ذلك في عالمنا المعاصر في مجتمع كمجتمع مدينة قمّ أو طهران أو غيرها من المدن، على سبيل المثال، فعمد نفرٌ من المسلمين ممّن تظهر عليهم أمارات الصلاح والتديّن إلى شراء أرض بأموالهم وبناء مسجد عليها لَقابَلهم الجميع بالمديح والثناء. لكنّ الله سبحانه وتعالى يقول في هذا المسجد الذي نقلنا قصّته: إنّه مسجد أُسّس للإضرار بالمسلمين. و«ضِرار» هو الإضرار بالآخرين، وإنّما وُصف هذا المسجد بـ «ضِرار» لأن غايتهم من تشييده كانت ضرب مركزيّة الإسلام؛ أي إيجاد مركز آخر للإسلام من أجل القضاء على وحدة المسلمين وتشتيتهم. فعندما يشرعون غداً بالصلاة في مسجدهم فإنّهم سوف لن يأتوا إلى مسجد الرسولﷺ بعد ذلك وسينفردون باتّخاذ قرارات خاصّة بهم. لكنّ الله جلّ وعلا كشف النقاب عن مخطّطاتهم بقوله: إنّهم لم يؤسّسوا هذا المسجد إلّا للإضرار بالمسلمين. وهو عمل إنّما ينبع من كفرهم وعدم إيمانهم الحقيقيّ بالنبيّﷺ، ولذا فهم يفتّشون عن ذريعة للتفلّت من

---

(1) سورة التوبة، الآية ١٠٧.

طاعتهﷺ وتشكيل كيان خاصّ بهم للعمل على إشاعة الفُرقة والخلاف بين المسلمين، وتوفير قاعدة لكلّ من سبق وحارب الله ورسوله. والآية المذكورة تشير إلى أُولئك الذين حاربوا رسول اللهﷺ فيما مضى وانهزموا أمامه. فهم اليوم ليسوا في صدد شنّ الحرب لكنّهم كانوا سابقاً من أهلها، ففشلوا وانهزموا وضاع ما كان لهم من هيبة ومكانة. إذن هدف بُناة هذا المسجد هو جعله قاعدة ومنطلقاً لأعداء النبيّ الأعظمﷺ. فـ«الإرصاد» يعني الرصد وبناء كمين لاجتذاب مَن حارب الله ورسوله من قبل. يقول الباري عزّ وجلّ بعد ذلك لنبيّه الكريمﷺ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1]. فأمَر رسول اللهﷺ بهدم المسجد.

السؤال هنا: أيّ حكم كنّا سنصدره على تصرّف الرسولﷺ هذا لو كنّا في ذلك العصر؟ لعلّنا كنّا سنقول: أوَيُهدم بيت الله؟! فالقوم قد بنوا مسجداً للصلاة فيه، ولو كنّا في حينها لقابلناهم باحترام لأنّهم بنوا المسجد من أموالهم الخاصّة. لكنّ الله تعالى يقول لنبيّه بكلّ صراحة: قم بتخريب هذا المسجد ولا تقم فيه أبداً! فالمسجد الذي أُسّس من أوّل يوم على دعائم التقوى أحقّ أن تقوم فيه، لا المسجد الذي أُسّس لشقّ عصا المسلمين وضرب مركزيّة الإسلام.

فقد ينبري بعض الساسة إلى القول: كان الأجدر بالنبيّﷺ أن يذهب فيصلّي في ذلك المسجد ويتفقّد أحوال القوم وينظر في شؤونهم ثمّ يعيّن فيه مَن يمثّله ويكون محطّ ثقته. فما الداعي لتخريب المسجد يا ترى؟! فهل يتناسب هذا

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

الفعل مع ما يتّصف به النبيّ ﷺ من روح الرأفة؟! ما السرّ وراء هذا التصرّف؟

القضيّة هي أنّه من الممكن في الأحوال الطبيعيّة أن تحصل نزاعات بين الناس، وقد يعمل الشيطان على تعميق هذه النزاعات أحياناً. والنزاعات القوميّة والعرقيّة وتلك التي تحصل بين أهالي المدن والمحافظات المختلفة هي نموذج على ذلك. فقد يظهر [في إيران مثلاً] من ينادي بالوحدة حول محور القوميّة العربيّة أو التركيّة أو ما شابههما من دون أن تتعدّى هذه النداءات حدّ النزاعات والميول البسيطة أو التطوّر إلى التخطيط للنيل من الحكومة المركزيّة وإضعافها، بل تنحصر ضمن أخطاء يمكن العمل على هداية الدعاة إليها وحثّهم على تجنّب الأحقاد والعداوات والتعاطي مع الآخرين من منطلق المحبّة والمودّة. لكنّه قد يكون لدى البعض أحياناً خطّة أو مؤامرة تُحاك عن علم وعمد منهم لإضعاف الدولة الإسلاميّة أو الإطاحة بها. فما الذي يتعيّن صنعه لمواجهة هؤلاء؟

نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد طرد أُولئك الذين تقاعسوا وتكاسلوا عن الجهاد وقابلهم بكلمات وتعابير خشنة على الرغم من أنّهم لم يكونوا يبيّتون النيّة للإطاحة بالدولة الإسلاميّة. فما بالك بالمتآمر الذي يتعامل مع أشخاص خارج حدود البلاد سعياً منه لإضعاف الدولة المركزيّة أو الإطاحة بالنظام الإسلاميّ وثمّة قرائن وشواهد على أنّه يقصد ما يفعل؟ فالتسوية والتطبيع مع أشخاص من هذا القبيل لا يصبّ في إطار المحبّة بل هو حماقة وبَلَه! فهل من المنطق التعامل برأفة وأُخوّة مع مَن بلغ في عداوته حدّ السعي لإسقاط الدولة، وبذل غاية جهده في هذا السبيل، وتواطأ مع ما وَسِعه من الدول الأجنبيّة المستكبرة لتحقيق هذا الغرض، واستلم منهم الأموال، وأحاطوه ـ هم بدورهم ـ

بالدعاية، لكنّه فشل في نهاية المطاف؟ فهذا الذي يطالب بالتعامل بأُخوّة ورأفة مع هؤلاء أين كان إحساسه بالأُخوّة عندما استُهدف المشاركون في عزاء سيّد الشهداء عليه السلام في الشوارع وضُرب ـ بل وقُتل ـ المصلّون في يوم عاشوراء دونما ذنب[1]؟! فعندما يجد هؤلاء أنفسهم في مأزق والطرق كلّها مسدودة أمامهم لا يمكن أن يفسَّر كلامهم حول الأُخوّة إلّا بالتحايل والخداع.

فصحيح أنّ الإسلام قد دعا إلى الوحدة وأكّد عليها تأكيداً مبرماً، لكن الوحدة مع مَن؟ مع الذين يقرّون بأساس الإسلام والنظام الإسلاميّ. فحتّى لو أخطأ هؤلاء فإنّه يتعيّن التجاوز عنهم والتغاضي عن أخطائهم حفاظاً على وحدة المجتمع الإسلاميّ من أن تُخدش، وصيانةً لاقتدار البلد الإسلاميّ وعزّته، ودرءاً لطمع الأعداء فينا بسبب تنازعنا. فهذا هو محلّ حفظ الوحدة، وتأليف القلوب، والتسامح، والمحبّة. أمّا الذي كان قد شهَر سيفه علانية لكنّه وقع في مأزق كبير لا مخرج منه وهو متردّد بين أمرين: بين السقوط المحض والخروج من الميدان يجرّ أذيال الخيبة، أو الاعتذار من المجتمع ليفتّش من خلال اعتذاره عن حيلة للبقاء في الساحة! فهل يمكن القبول بهذا النمط من الاعتذار؟ فأُولئك الذين جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يختلقون الأعذار قائلين: ﴿إِنَّ

---

(١) في إشارة إلى أحداث طهران الأليمة التي حصلت في يوم عاشوراء (العاشر من محرّم الحرام) من عام ١٤٣١هـ الموافق للسابع والعشرين من كانون الأوّل من عام ٢٠٠٩م والتي اندرجت ضمن سلسلة الأحداث التي تلت الدورة العاشرة للانتخابات الرئاسيّة في الجمهوريّة الإسلاميّة؛ عندما نزل شرذمة من الأراذل والمفسدين إلى الشوارع وعاثوا في الأرض فساداً وتجاوزوا حدود الشرف والأخلاق بالمشين من الأفعال وأحرقوا المباني والمساجد وضربوا المارّة والمشاركين في المواكب الحسينيّة وقتلوا بعضاً منهم مستبيحين بذلك حرمة هذا اليوم الأليم.

أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (إنّنا لم نقصد سوءاً، كلّما قلناه: إنّ الحرب في الجوّ البارد أفضل وأسرع للنصر) جاءهم الردّ الإلهيّ فوراً: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1] فليس مراد هؤلاء تقوية الدولة الإسلاميّة، فما بالك بهؤلاء الذين أبرموا مع أعداء الإسلام العقود والمواثيق ولم يألوا جهداً في سبيل إسقاط النظام الإسلاميّ!

وهنا يتبيّن كيف أنّ الله يحبّ أن يتحلّى عباده المؤمنون بالفراسة والفطنة. فلا يحبّ الله عزّ وجلّ أن يكون عبده المؤمن من الحمقاء البلهاء سريعي الانخداع إذا قابلهم العدوّ ببشاشة وجه وابتسامة طالباً منهم العفو.

فهل من المعقول أن يُفسح المجال مرّة أُخرى ليمارس أهل الفتنة فتنتهم من جديد؟! ومَن الذي سيكون مسؤولاً في هذه الحالة؟ لقد جاء في الخبر أنّ المؤمن إذا لُسع من جحر حشرة أو أفعىً مرّة فإنّه لن يغفل عن هذا الجحر أبداً ويستحيل أن يشكّل له تهديداً في المستقبل: «**لا يُلسع المؤمن من جُحر مرّتين**»[2]. فلسعة واحدة كافية لأن تلقّن المؤمن درساً. فكم مرّة لُسعنا منذ بداية الثورة الإسلاميّة إلى يومنا هذا؟ أفنفسح المجال لهم من جديد ليقولوا لنا: لم نكن نقصد سوءاً، وعلينا أن نفتح صفحة الأُخوّة من جديد؟ فهل للكفر والإيمان أن يتآخيا يا ترى؟ فلقد استخدم القرآن الكريم تعبير الكفر حتّى في حقّ أُولئك المصلّين عندما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]؛ أي إنّ عملهم هذا ينمّ عن كفر. فالله يأمر نبيّهﷺ بالاتّحاد مع المؤمنين، لا مع الكفّار ومن ينتهج الكفر منهجاً له. إذن علينا في مثل هذه

---

(١) **سورة التوبة**، الآية ١٠٧.

(٢) **من لا يحضره الفقيه**، ج٤، ص٣٧٨.

(٣) **سورة التوبة**، الآية ١٠٧.

الظروف أن نكون في منتهى الحذر ونناى بأنفسنا عن الحماقة كي لا تنطلي علينا الخدعة للمرّة الثانية والثالثة. فلو تسلّط هؤلاء على رقابنا ثانية لأعادونا إلى نفس تلك الأوضاع بتجربة أعمق واستعداد أكبر.

إذن لا ينبغي الخلط بين هاتين القضيّتين. فحفظ الوحدة والحيلولة دون التفرّق في الدين هو أمر طالما أكّد عليه القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[1]. فأغلب مثيري الخلافات والنزاعات يستهدفون الدين فيعمدون إلى تقليص نطاقه واختلاق البدع فيه؛ فيقلّلون من شأن جانب منه بالقول: هذا الحكم غير قابل للتنفيذ في الوقت الحاضر فتاريخه يعود إلى ما قبل ألف عام من الزمان! أو يشكّكون في مفاهيم الدين فيقولون: هذه قراءة، ولنا قراءة أُخرى أيضاً! فإن نحن غضضنا الطرف عن الحقيقة مع كلّ ما تعرّضنا له من الامتحانات وقلنا: فلنتعامل بمقتضى الصفح والتسامح، فلن يكون عملنا مستساغاً؛ ذلك أنّ هذا ليس من الصفح في شيء، بل هو حُمق وعدم شعور. إذ على المؤمن أن يكون فطناً، ولا يتسامح في قبول العدوّ بعد أن عرفه وشخّصه. فالباري عزّ وجلّ لا يقول لنبيّه الكريمﷺ: «إذا صلح أمرهم فأقم الصلاة في مسجدهم»، بل يقول: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[2]. ليس هذا فحسب، بل إنّ الله يقول بخصوص القاعدين عن الجهاد ممّن لم يكذّبوا بالله ولا برسوله ولا بالصلاة أيضاً: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[3]. فلا تقولنّ: إنّه قد مات، ولا يصحّ منّا أن نعادي الميت؛ فلنذهب للصلاة عليه

(١) سورة الشورى، الآية ١٣.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٨.

(٣) سورة التوبة، الآية ٨٤.

والاستغفار له! فالله لا يرضى حتّى على هذا التصرّف. ولعلّ الحكمة من هذا النهي هو أن يعتبر الآخرون ويفهموا أنّ الذين يجابهون المسلمين بالعداوة لن يصفح المسلمون عنهم، بل ولن يترحّموا عليهم بعد موتهم.

فنحن كثيراً ما نخلط بين هذه المفاهيم؛ فالوحدة، والرحمة، والرأفة، تختلف عن اليقظة والفراسة والبصيرة. إذ على المؤمن أن يكون بصيراً وواعياً: «**المؤمن كَيِّس فطِن حَذِر**»(١). فلا ينبغي الاستسلام بسهولة في مقابل من يحمل سجايا الشياطين ويفكّر دائماً في التحايل على الآخرين وخداعهم ولا يجوز الاعتراف لهم بالأحقّية؛ بل لابدّ من الوقوف بوجههم بحزم والقول: نحن لن نعترف بكم ولن نكوّن علاقات معكم بأيّ حال من الأحوال؛ يقول تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾(٢)؛ أي: ليس لهؤلاء أيّ علاقة معك، فهم أجانب وغرباء بكلّ ما للكلمة من معنى. فالغرض من هذا النمط من التعامل هو قطع السبيل أمام ممارسة هؤلاء للفتنة من جديد، وتلقين الآخرين درساً لئلّا يحذوا حذوهم. فإنّ مقابلتهم بالصفح من شأنها أن تدفع المعارضين والمخالفين إلى القول: ما دام الأمر كذلك فلنمض نحن لتحقيق أهدافنا ولنسع على طريق إضعاف النظام وإسقاطه؛ فإن نجحنا، نكون قد نلنا ما أمّلنا، وإن فشلنا، بادرنا إلى الاعتذار! إذن فإبداء كلّ هذه الشدّة ينطوي على بُعد الردع. فعدم القبول بعذر هذه الزمرة ورفض تكوين أيّ علاقة معها سيردع الآخرين من الطمع فينا.

---

(١) **بحار الأنوار**، ج٦٤، ص٣٠٧.

(٢) **سورة الأنعام**، الآية ١٥٩.

تناغم الجهود المتواصلة للمناوئين للثورة

إذا وضعنا الحوادث التي وقعت منذ انتصار الثورة الإسلاميّة ولحدّ الآن إلى جانب بعضها البعض فسنكتشف أنّها جميعاً تشترك في هدف واحد وتشكّل في الحقيقة أجزاءً مختلفة لفتنة واحدة. فالمتيقَّن هو أنّ مصدر أصل الفتنة هو إبليس اللعين وأنّ الغاية منها هي إضلال الناس ومحاربة الإسلام. وبنصّ القرآن الصريح فإنّ تلامذة إبليس هم أعداء دين الناس، وليسوا أعداء أرواحهم وأموالهم فحسب: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾[2]؛ فقتالهم معكم لن ينتهي في يوم أو يومين، بل إنّهم مستمرّون في قتالكم، وإنّ هدفهم هو ردّكم عن دينكم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. إذن فليس من المدهش أن يعمدوا إلى التخطيط لمشاريعهم الرامية لإضلال الجماهير وحثّهم على التخلّي عن الثورة الإسلاميّة. فليس من المهمّ على الإطلاق أن يكون المشروع قصير الأمد أو طويله؛ لأنّه عندما يكون هدف أعداء الإسلام هو إبادة النظام الإسلاميّ، وهو هدف على جانب عظيم من الضرورة والأهمّية بالنسبة لهم، فلا يهمّ حتّى لو امتدّت التحضيرات له عشرات السنين. فهم يرون ضرورة في تهيئة المقدّمات لذلك ودفع أثمانها حتّى وإن بلغت مليارات الدولارات.

والآن فلنستعرض الأحداث المختلفة التي تلت انتصار الثورة ونتصوّرها كقطع متعدّدة لأُحجيّة واحدة. فقد سعى الأعداء منذ البداية إلى إشاعة «فلسفة

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٧.

الشكّ» في الجامعات وقالوا: لا يتسنّى للمرء أصلاً بلوغ المعرفة اليقينيّة. وعلى الرغم من اعتقادنا بضرورة اكتساب المعرفة اليقينيّة حول الله تعالى والنبيّ الأكرمﷺ وعالم الآخرة، الأمر الذي يؤكّد عليه القرآن الكريم أيضاً بقوله: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[2] حيث يشكّل اليقين محور هذه الآيات، يقول هؤلاء ضاربين كلّ هذه الحقائق عرض الحائط: «هذه خيالات ليس إلّا؛ وهل يمكن لأحد أن يتيقّن بشيء أساساً؟ هذا مستحيل». لقد عملوا بشكل مكثّف جدّاً على إشاعة هذا الموضوع في مقالاتهم وخطاباتهم وبحوثهم ومحاضراتهم الجامعيّة وأنشأوا جيلاً من طلبة الجامعات يفتخرون بفلسفة الشكّ. فمن جملة ما كانوا يزعمونه: إنّه لا يكمل عقل الإنسان إلّا عندما يصل إلى قناعة بأنّه لا يمكنه التيقّن من شيء، بل ما دام يحدّث نفسه بإمكانيّة الوصول إلى يقين من شيء، فإنّه لا زال قابعاً في جهله ولم يفقه من الفلسفة شيئاً. فهذا البحث يمثّل قطعة من مجموعة متكاملة.

أمّا الموضوع الآخر الذي طرحوه فهو يتعلّق بمعرفة الدين. فإنّ من فروع المعرفة هي معرفة الدين وهي تشمل السؤال التالي: كيف يُعرف الدين؟ ولو وُجّه هذا السؤال إلى من هم من أمثالي لقُلت: بعض مسائل الدين يتعيّن معرفتها بالعقل، وبعضها الآخر من خلال الوحي. فالله والنبيّ مثلاً لابدّ من معرفتهما بالعقل. فإذا ثبت لدينا وجود الله تعالى والنبيّﷺ وكلام الله سبحانه، فنستمسّك بالوحي. وهذا سبيل بسيط نعلمه جميعاً. هؤلاء المغرضون بدأوا من

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٢٠.

هذه النقطة فقالوا: «هل من الممكن إثبات وجود الله»؟ ثمّ عمدوا إلى مناقشة براهين التوحيد وخلصوا إلى القول: «لا يُعَدّ أيّ واحد من هذه البراهين برهاناً تاماً، بل لا يمكن ـ أساساً ـ إقامة دليل عقليّ على وجود الله». كما أنّهم قالوا فيما قالوا: «هذه البراهين لا تعدو كونها ظنّيات نسجها الفلاسفة بخيالهم. فليس لبرهان الصدّيقين ولا لأيّ من أمثاله أساس متقن، وحتّى لو فرضنا جدلاً ثبوت وجود الله، فما شأننا والله! فليمارس هو ربوبيّته لنفسه في السماوات والعرش، أمّا نحن فعلينا التفكير بأنفسنا! فلا يصحّ أن نقول: علينا تلقّي الدين والأحكام وتعلُّمها من الله؛ ذلك أنّ الله قد خلقنا وأعطانا العقل كي نعمل بما تمليه علينا عقولنا. فالله أساساً لم يقل للناس شيئاً، ولدينا دليل عقليّ أيضاً على أنّه من المحال أن يلقي الله كلاماً على بشر. فالوحي ليس إلّا تخيّلاً عرفانيّاً، ولا يعدو كونه حالات تنتاب ابن آدم يتخيّل فيها أنّ الله يكلّمه. فلا حقيقة لكلّ هذه الأُمور. إذن يستحيل أن يكون القرآن كلام الله». وهذه الأُمور هي جزء آخر من هذه المجموعة (المخطَّط) ولابدّ أن توضع إلى جانب أجزائها الأُخرى. ويقول هؤلاء أيضاً: «حتّى لو افترضنا أنّ القرآن هو كلام الله، لكن هل إنّ كلّ ما يقوله الله هو عين الصواب؟ فليس في أيدينا دليل على أنّ كلّ ما يقوله الله هو صحيح كما أنّ الاستدلال العقليّ على كون الله صادقاً ليس تامّاً. نستنتج من ذلك أنّ هذه المسألة تندرج ضمن مسائل الحُسن والقبح العقليّين وهي من القضايا المشهورة والآراء المحمودة التي لا تقبل البرهنة أساساً. وبناءً عليه فليس لدينا أيّ دليل على صدق كلام الله؛ هذا مضافاً إلى أنّنا أنفسنا نقول أيضاً: لا عيب في الكذب إذا قيل لمصلحة. فلعلّ الله قد كذب علينا من باب المصلحة أيضاً»!

هذا الكلام ليس من وحي الخيال، بل هناك وثائق تثبت أنّه منذ الأيّام الأُولى

لانتصار الثورة هناك بعض أساتذة الجامعات قد طرحوا هذه الأُمور في محاضراتهم الدراسيّة في كلّية الإلهيّات وأنكروا إلى جانب ذلك عصمة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام. فالعصمة كما يعتقد هؤلاء هي كذبة من صنيعة بعض الشيعة. فمَن قال إنّ هناك إنساناً معصوماً؟! فكلّ إنسان ـ سواء أكان نبيّاً أو غير نبيّ ـ هو معرّض للخطأ. وقد استند أمثال هؤلاء من أجل إثبات عدم عصمة الأنبياء إلى الأدلّة العقليّة والنقليّة؛ ومن جملتها أنّ الله ـ بنصّ القرآن الكريم ـ يأمر النبيّ بالاستغفار. فمِمّ كان هذا الاستغفار يا ترى؟ إذن نفهم من ذلك أنّ النبيّ غير معصوم! وهذا المبحث هو جزء آخر من أجزاء هذه المؤامرة.

ارتباط الشبهات فيما بينها

ينبغي لكلّ ما نريد قوله عن الإسلام وأحكامه أن ينتهي إلى هذه النقطة؛ وهي قولنا: يقول الله عزّ وجلّ، أو يقول رسول الله صلى الله عليه وآله. فإذا نُقل القول عن الله سبحانه وتعالى فإنّ أوّل إشكال يطرحه هؤلاء هو: إنّ الله لا يتكلّم! والإشكال الثاني: وحتّى إذا كان الله يتكلّم فليس من المعلوم أنّه يقول الصواب. ويقولون أيضاً: حتّى النبيّ صلى الله عليه وآله فهو ليس بمعصوم، ولا يُعلم ما إذا كان قوله صحيحاً وعارياً من الخطأ.. وعلى الإسلام السلام! فما الذي سيبقى من الإسلام مع وجود هذه الشبهات القليلة! فإن قلت: يجب العمل بفتاوى من نقلّدهم من مراجع الدين، بادروك بالقول: «إذا كان نفس النبيّ والأئمّة غير معصومين وأنّ هناك سبيلاً للخطأ إلى أفكارهم وآرائهم، فما بالك بالآخرين؟ فهم من الأولى أن يكونوا كذلك وأن لا تكون لكلامهم أيّ حجّة». وعلى هذا المنوال لا تبقى من الدين باقية. وكلّما تمادوا أكثر في هذا الطريق ازداد التزعزع في دعائم الثورة

والإسلام والنظام الإسلاميّ. فهم في كلّ يوم يتحفوننا بالمئات، بل الآلاف، من أمثال هذه الأراجيف عبر محاضراتهم ومقالاتهم وما توصّلوا إليه من ابتكارات علميّة وفلسفيّة وما ينشرونه في صحفهم ومواقعهم الالكترونيّة وفضائيّاتهم.

وإلى جانب عمليّة بثّ الشبهات حول معتقدات الناس، فإنّ جانباً آخر من مساعي أصحاب الفتنة يتمثّل في شنّ الهجوم على المُثُل والقيم التي تحظى بالقبول. فالكثير من هذه القيم تُعدّ من ضروريّات الإسلام، بل إنّ بعضها يُعدّ من ضروريّات العقل البشريّ أيضاً. ومن أجل إضعاف هذه القيم أو محوها بالكامل سعى هؤلاء لإحلال قيم بديلة كاذبة محلّها؛ وبغية أن يشيع الكلام الباطل في المجتمع الإسلاميّ ويحظى بالقبول لدى الناس فإنّهم يطرحونه بصبغة دينيّة، ويزيّنونه بالمصطلحات الدينيّة، وهم يستدلّون عليه بالآيات والأحاديث وكلام العظماء كي يوجس الناس منه خيفة.

فمن أوائل القيم التي طرحها هؤلاء هي: «أنّ شعوب العالم تتديّن بأديان مختلفة وأنّ كلّ شعب يعيش حياته الخاصّة. فإذا سعينا إلى طرح دين واحد وإبطال غيره من الأديان، فلن يكون تصرّفنا هذا عمليّاً أو ممكناً». وممّا يقولونه أيضاً: «انظروا كيف أنّ أفراداً من طائفتي الشيعة والسنّة يعيشون لسنين طويلة إلى جانب بعضهم في قرية أو مدينة من دون أن يستطيع أفراد أيّ منهما أن يثبتوا لأتباع الطائفة الأُخرى أنّ مذهبهم ـ دون غيره ـ هو المذهب الحقّ. وهذه الحقيقة تدلّ على أنّ الله لا يريد أن يكون لجميع البشر دين واحد أو مذهب واحد». ثمّ يستدلّون بهذه المقولة: «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»[1]

(١) راجع **بحار الأنوار**، ج٦٤، ص١٣٧؛ كما ويقال أحياناً: «الطرق إلى الله بعدد نفوس الخلائق».

قائلين: «فلقد قال العرفاء: إنّ هناك طرقاً إلى الله بعدد أنفاس، أو بعدد نفوس، الخلائق؛ فواحد شيعيّ والثاني سنّي، وواحد يهوديّ والآخر مسيحيّ، وهي جميعها طرق إلى الله». وعلى الأساس نفسه فقد ظهرت إلى الوجود فلسفة جديدة في حقل المسائل السياسيّة المختلفة لتستولي بعدها على القضايا الدينيّة أيضاً. فهم يتناولون عين هذا المبحث فيما يسمّى بالتعدّدية الدينيّة. فقد كتب أحد المنحرفين فكريّاً مقالة في هذا الباب تحت عنوان «أنواع الصراط المستقيم»[1] خلُص فيها إلى نتيجة مفادها: «ليس لدينا صراط مستقيم واحد، بل ثمّة أنواع شتّى من الصراط المستقيم». ومن أجل أن لا ينشب القتال والصراع بين أتباع الأديان المختلفة ويتمكّنوا من التعايش السلميّ إلى جانب بعضهم البعض فقد طرح أمثال هؤلاء قيمة التسامح (*Tolerance*) وقالوا: «لا تتشدّدوا في مسألة كون الأشخاص يهوداً أو نصارى أو مسلمين، بل هلمّوا للعيش مع بعضنا بسلام». فإنّ ما يسيء إلى هذا الفكر ويضرّ به هو الغضب والتعصّب الدينيّ؛ فالذين يُظهرون تديّناً أكثر من غيرهم ويفوقونهم في الحميّة على دينهم والتعصّب له والذين يستاءون إذا أُسيء إلى أئمّة وعظماء دينهم إلى درجة استعدادهم لبذل أرواحهم للحيلولة دون النيل من مقدّساتهم الدينيّة، فهؤلاء أشخاص غيورون وإنّ غيرتهم وحميّتهم على الدين لا تتناغم مع مآرب أهل الفتنة. فمن أجل مناوأة الحميّة طرح هؤلاء قيمة زائفة باسم «التسامح».

أذكر ـ بعد استلام الإصلاحيّين للسلطة[2] ـ أنّني دُعيت للسفر إلى إحدى

---

(١) «صراطهاى مستقيم»، وهي بالفارسيّة.

(٢) أي عند انتخاب السيّد محمّد خاتمي لمنصب رئاسة الجمهوريّة في عام ١٩٩٧م.

دول أمريكا اللاتينيّة هي كولومبيا. وقد تقارن مع أوّل سفر لوزير الثقافة في تلك الحكومة (حكومة الإصلاحيّين) إلى الخارج إلى كولومبيا أيضاً، وقد شارك في مؤتمر حضره ممثّلون من العديد من دول العالم كان قد عُقد تحت شعار التسامح (*Tolerance*). ويمكن أن نفسّر كلمة (*Tolerance*) بالعربيّة الدارجة بمعنى انعدام الحميّة والغيرة وعدم إبداء أيّ حساسيّة في التعاطي مع الأُمور، وهو أمر يقع تماماً على النقيض ممّا قام به الإمام الخمينيّ ضدّ سلمان رشدي الكافر[1]؛ فلقد أهدر دم هذا الكاتب المرتدّ في مقابل إهانة الأخير للنبيّ ﷺ والإسلام وأبدى كلّ هذه الحساسيّة والتحفّظ تجاه هذه القضيّة. وقد تصدّت في ذلك الحين بعض المؤسّسات الرسميّة في البلاد لاغتيال رشدي ورصدت لذلك الأموال ومن جملتها «مؤسّسة الخامس عشر من خرداد»[2] وهم يصرّحون بذلك بين الفينة والأُخرى لحدّ الآن. فعندما شاهد الأعداء أنّهم لا

---

(١) وهذا نصّ بيان الإمام الخمينيّ في حقّ سلمان رشدي: بسمه تعالى.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. أودّ أن أُطلع المسلمين الغيارى في كلّ بقعة من بقاع الأرض أنّ مؤلّف كتاب «الآيات الشيطانيّة» ـ الذي أُلّف وطُبع ونُشر نكايةً بالإسلام والنبيّ والقرآن ـ وكذا الأمر بالنسبة إلى ناشريه من المطّلعين على محتواه محكومون بالإعدام. وإنّني أُناشد المسلمين الغيارى أن يبادروا فوراً إلى قتل هؤلاء أينما عثروا عليهم كي لا يجرؤ بعد الحين امرؤ على إهانة مقدّسات المسلمين، وإنّ مَن يُقتل في هذا السبيل فهو شهيد إن شاء الله. هذا وإذا عثر أحدهم على مؤلّف الكتاب ولم يجد في نفسه القدرة على تنفيذ حكم الإعدام في حقّه فليبادر إلى الوشاية به للناس كي ينال [المؤلّف] جزاء عمله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. روح الله الموسويّ الخمينيّ. (**صحيفهٔ نور** (صحيفة النور)، ج٢١، ص٢٦٣ / وهي بالفارسيّة).

(٢) راجع صحيفة جمهوري إسلامي، بتاريخ ١٣٧٧/٧/٢٠هـ .ش (١٩٩٨/١٠/١٢م) في لقاء مع حجّة الإسلام والمسلمين حسن صانعي.

يستطيعون فعل شيء إذا تمّ التعاطي مع كلّ متجاسر على الدين بهذه الكيفيّة، عقدوا العزم على النيل من هذه الحميّة عند الناس وغرس حالة اللامبالاة وعدم الاكتراث في نفوسهم؛ فعمدوا ـ استمراراً في مخطّطاتهم ـ إلى سياسة كيل الإهانات ورسم الكاريكاتورات والتجاسر على المقدّسات والتشكيك بها في جميع أنحاء العالم، وهي سياسة الغاية منها الحدّ من تحفّظ الجماهير المسلمة في تعاطيها مع أمثال هذه القضايا؛ فعندما يتمّ توجيه الشتائم مرّة أو مرّتين تُثار حفيظة الناس ويستاءون من ذلك، أمّا عندما تتكرّر هذه الشتائم على مسامعهم، فسيتعوّدون عليها وتضمحلّ حميّتهم على الدين شيئاً فشيئاً. فعندما أطلق سلمان رشدي أقاويله في ذلك الحين أُثيرت حفيظة جميع المسلمين وباتت دماؤهم تغلي لذلك، أمّا اليوم فإنّهم يتفوّهون بما هو أسوأ من ذلك والناس يمرّون أمامها مرور الكرام لكثرة ما طرق مسامعهم من ذلك. وهذا جزء من تلك المؤامرة. وإنّ ممّا يثير العجب أنّ هذه المساعي تُبذل استناداً إلى المصادر الدينيّة[1].

إلى جانب هذه المسألة فقد طرحوا «الفلسفة الإنسانيّة» (*Humanism*) التي يعود ظهورها إلى ما يناهز خمسة أو ستّة قرون ماضية من الزمن. وقد شاعت هذه الفلسفة ولا تزال شائعة في أُوربّا منذ ذلك الحين تاركة بصماتها الملحوظة والعميقة على ثقافة الأُوربّيين وسلوكيّاتهم وهاهي أمواجها تصلنا في

(١) عندما كنتُ في كولومبيا (في السفرة التي ذكرتُ سلفاً) طالعتُ وأنا في سفارة الجمهوريّة الإسلاميّة تلك الكلمة التي ألقاها وزير الثقافة والإرشاد الإسلاميّ في ذلك المؤتمر، وإذا به يستدلّ بالحديث النبويّ الشريف: «**بعثني [الله] بالحنيفيّة السهلة السمحة**» (**الكافي**، ج٥، ص٤٩٤)؛ أي بالشريعة السهلة السمحة، وأنّ «السهلة السمحة» مشتقّة من نفس مادّة «التساهل والتسامح»، إذن (يقول صاحب المحاضرة) فالنبيّ ﷺ نفسه كان يقول: نحن أهل تساهل وتسامح!

العصر الراهن. ويعود أساس القصّة إلى أنّه بعد فترة انتشار النصرانيّة، التي أُطلق عليها «عهد القرون الوسطى»، تبادرت إلى أذهان المثقّفين الاوربّيين فكرة إحلال «الإنسان» محلّ «الله». وقد روّجوا لهذه الفكرة في أدبهم (الشعريّ، والمسرحيّ، والروائيّ) وكتبهم الفلسفيّة قائلين: عوضاً عن تكرار قولنا: إنّ الله في السماوات وهو يفعل كذا وكذا وعلينا الالتفات والتوجّه إليه، يتعيّن علينا الالتفات إلى الإنسان والتفكير بأصالته. فالإنسانيّة تعني «محوريّة الإنسان». وليس من الممكن أن يروَّج لمعتقَد كهذا علانية في بلد مسلم ويقال: نحّوا الله جانباً وضعوا الإنسان محلّه. وبناءً عليه فقد بادروا إلى القول: إنّ المراد من كرامة الإنسان المذكورة في القرآن الكريم هي محوريّة الإنسان. فالقرآن نفسه يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]؛ إذن فهو أيضاً يرى أنّ للإنسان كرامةً وهذا يعني أنّه لا ينبغي على الإطلاق إهانة أيّ إنسان أو التقليل من شأنه. و«الكرامة» هي من التكريم والاحترام، ومن هنا فإنّه لابدّ من إلغاء أيّ قانون لا ينسجم مع كرامة الإنسان. فإعدام ابن آدم وقتله هو لون من ألوان الإهانة وعدم الاحترام له، لذا يتعيّن إلغاء عقوبة الإعدام بالكامل. وكذا الحال مع عقوبات من قبيل الضرب بالسياط، وقطع اليد، وأمثالها فهي غير مقبولة أيضاً؛ ولذا يتعيّن إلغاء قوانين الإسلام الجزائيّة بالكامل. وهذا ما حصل في أوائل عهد انتصار الثورة عندما قُدّم مشروع قانون القصاص وضرورة تطبيق القصاص في الجمهوريّة الإسلاميّة، حيث انبرت حينها «الجبهة الوطنيّة»[2] مدعومة بمجموعة من

---

(١) **سورة الإسراء**، الآية ٧٠.

(٢) جبهه‌ى ملى.

الحقوقيّين المرتبطين بها و«نهضة الحرّية»[١] معلنة في بيان لها أنّ مشروع قانون القصاص هذا غير إنسانيّ وأنّ علينا مراعاة كرامة الإنسان وحقوقه.

على هذا فإنّ «الفلسفة الإنسانيّة» والكرامة البشريّة وحقوق الإنسان وأمثالها إنّما هي مفاهيم رُوّج لها لتكون في مقابل الإسلام. وقد كان الكثيرون في ذلك الحين في غفلة، أمّا الإمام الراحل رحمه الله فقد فهم أبعاد القضيّة وقال: «الجبهة الوطنيّة محكومة بالارتداد من هذه الساعة»[٢]. وهذا الحكم يعني (من الناحية الشرعيّة) أنّ أزواج أعضاء هذه الجبهة حرمت عليهم وأنّ ممتلكاتهم ستؤول إلى المسلمين من ورثتهم.

بعد سماع صرخة إمام الأُمّة الراحل قدس سره تراجع الحقوقيّون الذين أصدروا بياناً ضدّ مشروع قرار القصاص وفرّ معظمهم إلى فرنسا، وانجلترا، وأمريكا ولم يعودوا حتّى هذه الساعة. لكنّ خطّتهم كانت بهذا النحو وقد استمرّت فيما بعد أيضاً على نحو أقلّ بريقاً. ولو تمعنّا في الأمر للاحظنا أنّه حتّى بعض المعمّمين أو الذين ينتسبون إلى بيوت بعض المراجع قد شكّكوا في الأحكام الجزائيّة للإسلام، وإنّ أحسنهم حالاً قد اكتفى بالقول: إنّ هذه الأحكام غير قابلة للتنفيذ اليوم. أمّا بعضهم الآخر فقد كتب رسميّاً: أنّ القوانين الجزائيّة تقتصر على التأثير الردعيّ، وأنّنا إذا عملنا على منع السرقة فلن نعود بحاجة إلى قطع يد السارق. فأكثر ما يدفع السرّاق إلى السرقة هو الفقر والفاقة، فإذا أُمِّنت معيشتهم فستُحلّ هذه القضيّة.

---

(١) نهضت آزادى.

(٢) **صحيفهٔ نور** (صحيفة النور)، ج١٤، ص٤٦٢ (وهي بالفارسيّة).

وليس هذا إلّا جزءاً من العمليّة ككُلّ ولابدّ من وضعه إلى جانب باقي أجزائها لتتهيّأ الأرضيّة لهم يوماً ليصبح من السهل عليهم إنكار وجود صاحب الزمان عجّل الله فرجه، والتفوّه بالكلام على سيّد الشهداء عليه السلام والاعتداء على المشاركين في عزائه. وهي مقدّمات لا تتهيّأ بسهولة، بل يتحتّم التخطيط لها على مدى ثلاثين سنة بشكل تدريجيّ وبصوَر شتّى ويُعمَل على التوفيق بينها لتؤتي أُكلها في مرحلة من المراحل.

فبذريعة الانتخابات حاول هؤلاء بلوغ ما كانوا يصبون إليه. فقد كان الشعار الانتخابيّ الذي رفعه بعضهم تغيير الدستور وحذف مجلس صيانة الدستور؛ أي حذف الجهة التي تضمن إسلاميّة القوانين. ثمّ طرحوا بعد حين شعار «الجمهوريّة الإيرانيّة» محلّ «الجمهورية الإسلاميّة» متذرّعين بأنّ أفراد الشعب الإيرانيّ ليسوا جميعاً من المسلمين؛ فهناك اليهوديّ والنصرانيّ وإنّنا مسؤولون تجاه الجميع، فلماذا نرفع شعاراً إسلاميّاً؟!.. فهذه قضيّة لا تنتهي. فقد تشابكت مسائل جمّة مع بعضها وحصلت تأثيرات متبادلة بين الأفكار والقيم. فإذا ضممنا كلاً من شيوع مظاهر الفساد؛ كالفساد الإداريّ، والفساد الأخلاقيّ، والفساد الجنسيّ، واستيراد السلع المستهجَنة والدعائيّة وغيرها إلى بعضها البعض فسيكون من الملائم أن نحتمل، بل أن نتيقّن، من أنّ الشيطان، أو أنّ مجموعة من الشياطين، قد خطّطت لكلّ ذلك. فلو لم يكن شياطين الإنس هم الذين رسموا هذه الخطة فلابدّ أن يكون شياطين الجنّ هم من فعل ذلك وقد تولّى كلّ واحد منهم قسماً من العمليّة وجانباً من المشروع. فكما قد أسلفنا فإنّ المشاريع الضخمة تُقسّم إلى مشاريع أصغر ويتولّى كلّ شخص مسؤوليّة معيّنة فيها. ثمّ يتمّ ربط الأجزاء المختلفة من أجل بلوغ الهدف النهائيّ. وممّا لا شكّ

فيه أنّ إبليس هو المتولّي لمثل هذا المشروع، وهناك شواهد وأدلّة تشير إلى أنّ ثمّة من الناس مَن يقوم بدور إبليس على أتمّ وجه.

إذن يجب أن نصدّق بأنّ هناك في حياة الإنسان الاجتماعيّة، لاسيّما بعد نهضة الإمام الخمينيّ ﷺ وانتصار الثورة الإسلاميّة، أعداءً يسعون لخلق مثل هذه الفتن في سبيل محو الإسلام وإزالته من الوجود. فلا يتصوّرنّ أحد أنّ المؤامرة ستتبدّد ولا يعود لها وجود بإخماد مرحلة من مراحل الفتنة: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1]. فالفتن ليس أنّها لا تخمد ولا تزول فحسب، بل إنّها تتعقّد يوماً بعد آخر؛ فلا إبليس قد مات، ولا شياطين الإنس والجنّ قد هلكوا. فالمتشابهة قلوبهم موجودون على الدوام، ومن المحتمل أن تستمرّ الفتن في المستقبل، بل أن تظهر فتن أصعب وأعقد ممّا يصعب علينا اليوم تخيّله. ومن هنا فلابدّ أن يكون الهدف من مطالعة الفتن والاطّلاع عليها هو استلهام العبر منها والوقاية من الوقوع في أشراك أصحابها.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٢.

الفصل الخامس

واجب المؤمنين تجاه الفتن الاجتماعية

مقدّمة

يمكننا تقسيم الفتن بشكل عام إلى قسمين: الأوّل يشمل الفتن التي تتّخذ منحىً دينيّاً؛ كأن ترفع شعارات الدفاع عن الدين والقيم الدينيّة وعن سبيل الحقّ والعدالة، لكنّها شعارات زائفة وخادعة وتستبطن أُموراً أُخرى. في حين يشمل القسم الثاني الفتن التي تقترن منذ البداية بالشعارات المادّية والدنيويّة. وإنّ التحايل على الناس في هذا الصنف من الفتن يكون عبر تقديم الوعود لهم بتأمين مصالحهم المادّية وأسباب معيشتهم ورفاهيّتهم، أو في رفع شعار الدفاع عن حقوق الأشخاص، أو الفئات، أو المرأة، أو الشباب. إذن فالفتن ـ من هذا الجانب ـ تنقسم إلى قسمين؛ هذا على الرغم من أنّ الشعارات ـ في معظم الأمثلة ـ تكون مختلطة فيؤخَذ من هذا ضغث ومن ذاك ضغث ليعين كلّ منهما الآخر. وإنّ محاربة كلّ قسم من أقسام الفتن يتطلّب أساليب وطُرقاً خاصّة، ففي كلّ قسم من أقسامها هناك أشخاص يصنَّفون كعناصر أساسيّة في عمليّة إثارة الفتنة وهم أقطاب لها.

استعصاء أصحاب الفتنة على الهداية

في مقام تشخيص التكليف في عمليّة محاربة عناصر الفتنة قد يبدو لنا للوهلة الأُولى أنّه من المستحسن جدّاً أن نحاول هداية أمثال هؤلاء وحثّهم على الكفّ

عن ممارستهم للفتنة، غير أنّ فكرة كهذه لا تعدو كونها احتمالاً وفرضاً وإنّ تحقّقها في الخارج هو شبه محال. فالتجارب العمليّة والآيات والروايات الكثيرة تثبت أنّ المجتمع يحتوى دائماً على أُناس يدعون الناس عن علم وعمد منهم إلى الخطأ والزيغ وهم عصيّون على الهداية. وهو بحث إذا طُرح في موضع من المواضع بشكله المجرّد من دون أي رتوش فستتبادر إلى أذهان الكثيرين شبهة الجبر؛ لكنّه في الحقيقة ليس جبراً، بل كما يقول القرآن الكريم: إنّ الذين يسيرون عمداً في سبل الضلال فإنّهم سيكونون يوماً بعد آخر أقرب إلى الفساد حتّى يصلوا إلى مرحلة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[1]، أو: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2]. ولنتأمّل في بداية سورة «يٰس» كنموذج على ذلك حيث يقول الباري جلّ شأنه: لقد أرسلناك يا محمّد ﷺ لتنذر أُولئك الذين لم يسبق لهم أن أُنذروا أو هُدوا إلى سواء السبيل: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[3]. ثمّ يقول تعالى: لكن هناك من الناس مَن لا يمكن هدايته على الإطلاق، معبّراً عن ذلك بتعابير عجيبة أتى بها الواحدة تلو الأُخرى، فيقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[4]. ففي قديم الزمان كان يوضع حول عنق السجين نَير وغِلّ كي لا يستطيع التحرّك إلّا بمشقّة. وهذا ما قصده تعالى من قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾. وقوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يعني أنّ هذه الأغلال هي من الضخامة بحيث لا تغطّي الرقبة فحسب، بل

---

(١) **سورة البقرة**، الآية ٧.

(٢) **سورة التوبة**، الآية ٩٣.

(٣) **سورة يس**، الآية ٦.

(٤) **سورة يس**، الآية ٨.

تصل إلى أذقانهم. ثمّ يقول عزّ من قائل: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[١]؛ فقد جعلنا حولهم في الطريق التي يسلكونها حُجُباً وسُتُراً كي لا يبصروا طريقهم. فقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ... وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي من أمامهم ومن خلفهم؛ كناية عن عدم القدرة حتّى على الرجوع إلى الوراء إن أرادوا ذلك. ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾؛ فجعلناهم في غشاء مُعتم أطبقت عتمته عليهم فلم يعودوا يبصرون سبيلهم. ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٢]. وهو كلام ينمّ عن حقيقة. فهناك من البشر من هو عصيّ على الهداية. إذن فأنّى لهؤلاء أن يهتدوا والقرآن الكريم يخبر عن أحوالهم بهذه الصورة؟! ولدينا آيات كثيرة في هذا المجال، ولا ينحصر طرح هذا الموضوع على سورة «يٰس». ففي موضع آخر يطلق القرآن عليهم اسم «شياطين الإنس»؛ أي إنّ ظاهرهم آدميّ ولهم أعين وآذان حالهم في ذلك حال غيرهم من البشر لكنّهم شياطين: ﴿...شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾[٣]. فهم ينتشرون بين الناس لكنّهم يعملون على إضلال الآخرين وحرفهم عن جادّة الصواب. فمن حسن الظنّ والسذاجة أن نتصوّر أنّ كلّ مَن يسير على قدمين وله عينان وليس في رأسه قرن فهو إنسان طاهر وصالح وذو نيّات سليمة، وهو تصوّر ليس في محلّه بالمرّة. فاستناداً إلى صريح القرآن الكريم هناك بين أفراد المجتمع شياطين من هذا القبيل، بل وأدهى من ذلك؛ فالقرآن الكريم يقول في نفس الآية السابقة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾. فليس ثمّة من شبهة

(١) سورة يس، الآية ٩.

(٢) سورة يس، الآية ١٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١١٢.

حول وجود مثل هذه الأُمور، وهؤلاء أنفسهم هم العناصر الرئيسيّة في إثارة الفتنة. فأنّى لهؤلاء أن يهتدوا يا ترى؟ يقول الباري تعالى لنبيّه الكريمﷺ: حتّى أنت لا تستطيع هدايتهم فهم عصيّون على الهداية.

إذن وفقاً لظواهر الأمور فنحن غير مكلّفين بهداية أقطاب الفتنة؛ فلا ينبغي إرسال رسالة إلى الرئيس الأمريكيّ أو الفرنسيّ أو رئيس وزراء انجلترا ودعوتهم إلى العدل والرضا بحقوقهم وأن نأمل ترتّب الأثر على تلك الرسائل؛ فهي تخيّلات غير قابلة للتحقّق، وليس في أعناقنا تكليف في هذا الصدد. أمّا فيما يتعلّق بالمجموعتين الأُخريين من أصحاب الفتنة، فنحن مكلّفون تجاههم وهناك أمل في التأثير عليهم.

إمكانيّة هداية العناصر المتوسّطة في الفتنة

الطبقة الثانية من عناصر الفتنة تتألّف من ضعاف النفوس وعُبّاد الدنيا الذين يلهثون وراء مصالحهم. ولا نقصد هنا المصالح الطويلة الأمد التي يطول تخطيطهم لها، بل المصالح العابرة التي لا تتعدّى الأُجرة التي يتقاضونها في مقابل ما يطلقونه من صرخات ويثيرونه من ضجّة وصخب كالسفلة من القوم والأوباش الذين يمكن العثور على نماذج منهم في كلّ مكان. فإذا كان أمثال هؤلاء ما زالوا في أوائل الطريق ولم يتمّ خداعهم بشكل كامل، فمن الممكن أن تؤثّر فيهم الموعظة والإرشاد والنصيحة فيهتدوا إلى سواء السبيل. وقد يكون ما يعانونه من مشاكل مادّية وضنك في العيش أحياناً هو الداعي لمضيّهم في إثر أهل الفتنة، فلعلّهم إذا وجدوا مَن يتفقّد أحوالهم ويلبّي حاجاتهم فسيكفّون عن أعمالهم السيّئة وتصرّفاتهم القبيحة. أمّا إذا بلغوا حدّ امتهان هذا العمل وصارت

مهنتهم الرئيسيّة تقاضي الأتاوات ومضايقة الآخرين ولم يبتغوا كسب الرزق الحلال، بل صاروا يسعون وراء المال الحرام كي ينعشوا به آلة مرحهم ومجونهم، فلا يعود حينئذ لوعظ هؤلاء وإرشادهم أيّ جدوى.

ضرورة توعية السذّج من مُشِيعي الفتنة

أمّا المحور الرئيسيّ للعمل على عناصر الفتنة فيختصّ بالطبقة الثالثة، ومن ثمّ بالمتضرّرين بالفتنة أو أُولئك المعرّضين لها. ولقد أشرنا سابقاً إلى أنّ أفراد الطبقة الثالثة لا يضمرون سوءاً في النيّات، لكنّهم يفتقرون إلى البصيرة ولا يفهمون ما هو الموضوع الذي عليهم طرحه وأين ومتى ينبغي طرحه؛ فهم يتخيّلون أنّهم قد شخّصوا ما عليهم من تكليف (دينيّ أو اجتماعيّ أو أخلاقيّ) ثمّ ـ انطلاقاً من تشخيصهم ـ يتفوّهون بكلام أو يعمدون إلى القيام بأمر يصبّ في نهاية المطاف في صالح أهل الفتنة والكفّار والمنافقين. بل ومن الممكن أيضاً أن يقوموا، من باب العمل بالتكليف والواجب الشرعيّ، بعمل حَسَن في الظاهر، لكن من دون الالتفات إلى لوازمه أو ما إذا كان سيصبّ في صالح العدوّ أم لا. فأمثال هؤلاء يخطئون في تحليلهم للأُمور وكذا في تحديد المورد وزمن الإقدام على الفعل. يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في **نهج البلاغة** بخصوص هذا الصنف من الناس: «... **فليس مَن طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه**»[1]؛ أي إنّ مَن طلب الحقّ فأخطأه ليس كمن ثار عمداً بوجه الحقّ. لكنّ ضرر هؤلاء ـ إن علموا أو لم يعلموا ـ لا يختلف عن ضرر أُولئك الذين يناوئون الحقّ عن

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٦١.

إصرار وعمد؛ ذلك أنّهم سيوجّهون ـ في نهاية الأمر ـ ضربة إلى مصالح الإسلام والأُمّة الإسلاميّة، حتّى وإن حسبوا أنّهم يُحسنون صنعاً؛ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]. فهم يتصوّرون أنّهم يعملون بتكليفهم الشرعيّ ولا يعلمون أنّهم إنّما ينهالون على أُصول الإسلام بمعاولهم. وإنّ تكليفنا ـ نحن الحوزويّين خصوصاً ـ تجاه أمثال هؤلاء يفوق تكليف غيرنا في الخطورة بكثير فعلينا إرشادهم إلى جادّة الصواب بلسان ليّن وكلام مستدَلّ ولفت انتباههم إلى خطأ ما يقومون به. ومع أنّ مقدار تأثير هذا الوعظ والإرشاد يرتبط بعوامل شتّى، لكنّ الأمل أكبر في أن يُعثَر في هذه الشريحة على أُناس يهتدون إلى سواء السبيل ويكفّون عن ممارسة الخباثات والعمل لصالح العدوّ. فهم لا يشبهون أفراد الطبقة الثانية الذين لا يؤمَل التأثير فيهم إلّا قليلاً.

المهمّ في القضيّة هو أنّنا قد نقف أحياناً على أطراف حلبة الفتنة متفرّجين غافلين عن واجبنا، ومعتقدين بأنّه يتعيّن على شخص ثالث أن يهرع إلى تنبيهنا! أو متصوّرين أنّها من فتن آخر الزمان وأنّها واقعة لا محالة، شئنا أم أبينا، وليس في أعناقنا أيّ تكليف تجاهها. أو أن نحدّث أنفسنا بالقول: هؤلاء يعملون وفقاً لما توصّلوا إليه من تشخيص للأمور. وتشتدّ القضيّة صعوبة إذا كان هؤلاء يحملون عناوين ومناصب حيث سنقول عندها: ليس باستطاعتنا أن نحدّد لهؤلاء تكليفهم الشرعيّ ونعلّمهم ما ينبغي صنعه. فأنّى للجاهل أن يجاري العالِم؛ في حين أنّهم ـ على الأقلّ في هذه القضيّة ـ هم الجاهلون وأنّنا نحن العالِمون ولابدّ من إفهامهم هذا الأمر؛ لأنّ الفرض الذي افترضناه هنا هو أنّهم

---

(١) **سورة الكهف**، الآية ١٠٤.

مخطئون ولا يعلمون. بالطبع من الممكن أن يكونوا متبحّرين في علوم خاصّة نجهلها نحن، لكنّ الفرض هنا هو أنّنا ـ في هذه المسألة تحديداً ـ قد شخّصنا سبيل الحقّ وعرفناه وأنّهم قد أخطأوه. إذن فواجبنا تجاههم ـ بشكل عامّ ـ هو أن نعمد بأيّ وسيلة مناسبة ومؤثّرة إلى إرشادهم وتوجيههم.

ضرورة وقاية الناس من الافتتان وإنقاذ المفتونين

الفئة الأُخرى التي تشكّل السواد الأعظم من مخاطَبينا تتألّف من أُناس ليسوا هم من أهل الفتنة وليس لهم أيّ دور في تبلورها ولا في ترسيخها، لكنّهم في معرض الضلال والاغترار من قبل أصحاب الفتنة الأمر الذي يعود في نهاية المطاف بالضرر على الإسلام والمجتمع الإسلاميّ. من هذا المنطلق فما دام هؤلاء عرضة للسقوط في حبائل الفتنة وأنّهم لم يسقطوا فيها إلى الآن أو أنّهم زلّوا وهناك أمل في إغاثتهم فإنّ في أعناقنا واجباً ثقيلاً تجاههم. كلّ ذلك بمعزل عن تكليفنا الرئيسيّ، ألا وهو وقاية أنفسنا من الوقوع في أشراك جماعة الفتنة وأهلها!

ولقد سبق أن ذكرنا بأنّه لا طائل من إرشاد وهداية عناصر الطبقة الأُولى الذين يسعون لإثارة الفتن عن علم ووعي كامل، سواء مَن كان منهم في الخارج أو مَن هم في الداخل، وأنّه لا أمل في إصلاحهم، حتّى أنّ الله عزّ وجلّ قد أمرنا بالكفّ عن هدايتهم. ليس هذا فحسب بل إنّ مهمّة النبيّ صلى الله عليه وآله كانت تقتصر على وقاية الآخرين من السقوط في الفخّ الذي ينصبه أصحاب هذه الجماعة؛ اللهمّ إلّا إذا حمل عناصر الفتنة السلاحَ وأقدموا على حركة عسكريّة معرِّضين أرواح الناس وممتلكاتهم للخطر، ففي حالة كهذه يتعيّن على المسلمين، ولاسيّما

الحكومة الإسلاميّة، الوقوف بوجههم. وهو تكليف يقع بشكل رئيسيّ على عاتق الحكومة الإسلاميّة، لكنّها إذا كانت غير قادرة على مجابهتهم فإنّه يتحتّم على الرعيّة أن يهبّوا لنجدتها ومدّ يَد العون لها. أمّا فيما يتعلّق بأداء التكليف تجاه الطبقات الأُخرى فلابدّ من تحصيل المعلومات الكافية بخصوص الدوافع والمشاكل مضافاً إلى الوقوف على كلّ ما يحوكه الشياطين من مخطّطات ومؤامرات.

الجهل والنزوات؛ من أهمّ عوامل الافتتان

يمكننا القول ـ بشكل عامّ ـ بأنّ منشأ انحراف أُولئك الذين يمدّون أصحاب الفتنة بالدعم والمساعدة أو الذين سقطوا في الفخّ الذي نصبوه لهم (وهم عناصر الدرجة الثانية أو الثالثة من أهل الفتنة) عنصران. وهذان العنصران يكونان عادةً بصورة القضيّة مانعة الخلوّ، كما ويمكن أن يوجَد كلاهما في آنٍ واحد.

العنصر الأوّل: يمثّل ما هو من قبيل الإدراك والفهم والشعور والتشخيص والعلم والمعرفة. بمعنى أنّ الحقيقة لا تكون واضحة وجليّة للناس كما ينبغي فتغلب عليهم حالة الجهل والغفلة. إذن فمن الممكن أن يُقدم البعض على أعمال خطيرة، أو يصبحوا أداة من أدوات الفتنة ويقعوا في فخّ أصحابها جرّاء عدم التحلّي بما يكفي من العلم وما يلزم من المعرفة الصحيحة.

العنصر الثاني: النزوات النفسانيّة. فبعض الأشخاص يكونون أُسارى أهوائهم؛ فمع علمهم بخطأ ما يهوُون وقناعتهم بعدم إمكانيّة توفيره عبر الطرق المباحة فإنّهم يُقبلون على الفتنة. إذن فهم أُسراء أنفسهم وشياطينهم.

التوعية وكشف الحقائق

بشكل طبيعيّ فإنّ السبيل لمواجهة العنصر الأوّل هو التوعية والتبيين وكشف الحقائق كي ينجلي الغبار عن الحقّ وينكشف أمام الملأ ولا يُشتبَه بينه وبين الباطل. وهذه هي المهمّة الرئيسيّة والأصليّة لجميع الأنبياء عليهم السلام؛ فالقرآن الكريم يستخدم عنواناً كلّياً وجامعاً لجميع الأنبياء عليهم السلام وهو «النذير»؛ نحو قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[1]. إذ أنّ المهمّة الأُولى التي يتعيّن على كلّ من يتبنّى نشاطاً اجتماعيّاً أن يضطلع بها هي الإنذار. فأوّل ما يتحتّم صنعه مع من تُرتجى هدايتهم ـ مهما ضعف الرجاء ـ هو إنذارهم. وهو مبدأ معترَف به حتّى في الحركات الجهاديّة والدفاعيّة؛ إذ أنّ من آداب الجهاد هو أن يعمد المجاهد أو المدافع كخطوة أُولى إلى إتمام الحجّة والإرشاد والإنذار والعمل ـ مهما أمكن ـ على وعظ الطرف المقابل. فعندما أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام لإخماد فتنة في اليمن أوصاه بجملة من الوصايا كان من أهمّها هذه الوصيّة العميقة في معناها والدقيقة في مدلولها: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعتْ عليه الشمسُ**»[2]. فمقتضى المقام كان إرساله صلى الله عليه وآله لقائد عسكريّ على رأس كتيبة من المجاهدين من أجل إخماد فتنة عسكريّة؛ لكنّه يقول لعليّ عليه السلام قائد هذه الكتيبة: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعتْ عليه الشمسُ**»؛ وهو ما يوحي بأنّه من آداب الجهاد في الإسلام أن يبدأ المسلمون أوّلاً بمحاولة هداية الخصم، حتّى إذا كان لأفراد الجبهة المقابلة كلام أو شبهة بادروا إلى حلّها والردّ

---

(١) **سورة الملك**، الآية ٨.

(٢) **بحار الأنوار**، ج٣٢، ص٤٤٧.

عليها كي تتمّ الحجّة عليهم. فلا ينبغي الاستخفاف بعمليّة إرشاد الآخرين ودعوتهم إلى سواء السبيل. ولا يجوز اتّخاذ المقولة الخاطئة: «عيسى مسؤول عن دينه وموسى مسؤول عن دينه» معياراً لتحرّكنا. وليس بالمستساغ منّا ـ نحن الذين نعتقد بأنّ الزلل في الأُمور الدينيّة يؤدّي بالإنسان إلى جهنّم ويورِثه عذاب الآخرة وأنّه غير قابل للقياس بمشقّات الحياة الدنيا ومآسيها ـ أن نُخلِي كاهلنا من هذه المسؤوليّة. فكيف لنا أن نشفق على فقير لا يجد قوت يومه، أو على مريض لم تستقبله المستشفى لعلاجه، من دون أن نحرّك ساكناً بالنسبة للشخص المشرف على السقوط في جهنّم؟! إذن علينا أن نضع مهمّة الهداية في صدارة مسؤوليّاتنا وأن نحاول جهدنا هداية الآخرين ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. ولبلوغ هذا الهدف علينا بادئ ذي بدء أن نبحث نحن عن الحقّ ونعرفه حقّ معرفته كي يكون بوسعنا طَرْق أبواب الآخرين ومحاولة إرشادهم.

التربية الدينيّة وتهذيب النفوس

القضيّة الثانية هي محاربة الهوى والرغبات الدنيويّة. وهنا يزداد الأمر صعوبة، لكنّ هذه الطريق ليست مسدودة. فالبرامج القصيرة الأمد هنا لا تجدي كثير نفع؛ بل لابدّ للأجهزة التربويّة الإرشاديّة الضخمة؛ من قبيل مؤسّسة الإذاعة والتلفزيون الوطنيّة، والصحف، والأجهزة الأُخرى من تبنّي برامج طويلة الأمد هدفها النهوض بالمنهج التربويّ السليم في المجتمع والحيلولة دون انتعاش الرغبات الدنيئة والحيوانيّة والشيطانيّة فيه. وهو أمر لا يخلو من صعوبة لكنّه ممكن. ولا تنتهي القضيّة بإجراء مقابلة أو التحدّث ببضع كلمات وأمثال ذلك؛ بل على مُعِدّي الخطط والمناهج الثقافيّة في البلاد إطالة

التفكير في هذا الأمر، وأن يُعتنَى بقضايا المجتمع المعنويّة والفكريّة والثقافيّة بقدر ما يُعتنَى بقضاياه الاقتصاديّة والمعاشيّة.

إنّه لواجب جدّ ثقيل وهو مثمر في التأثير في عناصر الفتنة طالما لم يبلغوا حدّ الاحتراف والامتهان؛ أمّا إذا سقطوا في حبائل الأهواء المادّية وانغمسوا فيها إلى حدّ انشغالهم بها عن التفكير بأيّ شيء آخر، فحتّى هذا البرنامج لن يجدي نفعاً؛ ذلك أنّ الباري عزّ وجلّ يقول في وصفه لهؤلاء: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[1]. فمحاولة هداية أُولئك الذين لا يفكّرون إلّا باللذّات الدنيويّة غير مجدية؛ اللهمّ إلّا أن يُعمل على إضعاف الميول والنزوات التي تنمّ عن حبّ الدنيا فيهم إلى درجة إصغائهم إلى كلام الحقّ وتأمّلهم فيه، وإلّا فطالما لم يفكّر المرء إلّا بحاجاته ولذائذه فإنّه لا يكون على استعداد لأن يصغي إلى ما يذكّره بالآخرة والله والقيامة وما إلى ذلك. وهؤلاء هم مصاديق شياطين الجنّ والإنس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا... * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ...﴾[2]. فديدن هؤلاء الشياطين هو الإيحاء إلى بعضهم البعض، وتبادل «رسائل الجوّال»، وتلقين بعضهم البعض الكلام المعسول والمنمّق. فالكلام الجميل ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ هو الأداة التي يستعملونها في عملهم، فكلّ واحد منهم يعلّم الآخر زخرف القول كي تهفوا إليه قلوب من لا يؤمنون بالآخرة. بمعنى أنّه إذا لم تُحلّ مسألة الدنيا والآخرة في ذهن امرئ ولم

---

(١) **سورة النجم**، الآيتان ٢٩ و ٣٠.

(٢) **سورة الأنعام**، الآيتان ١١٢ و ١١٣.

يصدّق بيوم القيامة فسيكون عرضة لمثل هذا الانحراف، وإذ أنّه ليس على استعداد للإصغاء إلى كلام الحقّ فستميل نفسه إلى كلام هؤلاء الشياطين!

واجب الحوزة العلميّة في تنشئة علماء يتصدّون للردّ على الشبهات

إذن فالواجب الرئيسيّ الذي يقع على عواتقنا هو التوعية والإنذار. أمّا الواجب الثاني فهو الحيلولة ـ عبر السبل الإسلاميّة المعقولة ومراعاة الأحكام الشرعيّة ـ دون قيام هؤلاء بما يؤدّي إلى كلّ هذا الفساد والفتن.

أمّا أوجب الواجبات في هذا المضمار فهو العمل الإيجابيّ؛ وهو أن نعقد ـ في مقابل الشبهات التي يلقونها ـ مجالس بحث ومناقشة حرّة، الأمر الذي سيتمخّض عن ردود على هذه الشبهات وتنشئة أُناس يمتلكون القدرة على دحض الشبهات والإجابة عليها. بمعنى أنّ مقدّمة عملنا بهذا الواجب تتلخّص في تنشئة أشخاص يستطيعون الردّ على كلّ شبهة، ومن ثمّ إرسالهم إلى المراكز الثقافيّة للإجابة على الشبهات وإتمام الحجّة على ملقيها. وهذه المهمّة تقع بشكل رئيسيّ على عاتق الحوزة العلميّة. فأمثال هذه المشاكل لا تُحلّ بالبحث حول غُسالة المتنجّس وماء الاستنجاء وأمثالها؛ إذ على الحوزة العلميّة أن تحيط علماً بسلسلة من المسائل كي تستطيع فهم الشبهات المطروحة في الساحة وكيفيّة الردّ عليها ردّاً يكون مقنعاً لأمثال هؤلاء وفي مستوى فهمهم، واجتناب استخدام الألفاظ الغريبة والمفردات المعقّدة وطرح المسائل العصيّة على الفهم. وهذه المهمّة تمثّل واجباً وهي ليست مجرّد مهنة. فلابدّ من أن نمتلك لمجابهة شياطين الإنس والجنّ جهاز دعوة وتبليغ قويّ وفعّال يتصدّى فيه أشخاص صالحون للإجابة على الشبهات. وبالطبع لابدّ إلى جانب ذلك من وجود قوّات شرطة

لتلقّن كلّ مَن تسوّل له نفسه اللجوء إلى الاحتكاك البدنيّ أو التعرّض لأرواح الناس وممتلكاتهم وأعراضهم درساً عمليّاً إذا تطلّب الأمر ذلك في بعض الأحيان.

فهذه خطوات عامّة؛ أوّلها التوعية، وثانيها تهذيب المطالبات والغرائز وتوجيهها بالاتّجاه الصحيح والمعقول وانتهاج التربية الصحيحة؛ وبعبارة أُخرى التربية والتعليم، أي أن نقوم بما من شأنه أن يجعل الطرف المقابل يفهم المبحث، ومن ثمّ يطالب به في الخطوة التالية.

نظرة إلى أعظم فتنة في الإسلام وما كان يبدو على عناصرها من الوجاهة

يمكننا ـ عبر الرجوع إلى النماذج البارزة للفتن التي حصلت في تاريخ الإسلام ـ أن نشخّص ما هو مبهم وصعب من الفتن المعاصرة. ومن أجل تفسير المشاكل الصعبة والمعضلات العويصة علينا استلهام الدروس من حوادث صدر الإسلام.

فإنّ أعظم فتنة حدثت في العالم الإسلاميّ هي تلك التي انتهت بشهادة السيّدة الزهراء عليها السلام والتي جرّت فيما بعد إلى واقعة كربلاء واستشهاد سيّد الشهداء وولده عليهما السلام. فعناصر هذه الفتنة لم يكونوا من الكفّار والمشركين ولم يأتوا من وراء تخوم العالم الإسلاميّ؛ فقد كانوا من المصلّين الصائمين، بل ـ والأدهى من ذلك ـ كان عناصرها الرئيسيّون من الذين جلسوا لسنوات تحت منبر النبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله وقاتلوا بين يديه في حروب صدر الإسلام، حتّى أنّ بعضهم كان قد أُصيب في تلك الحروب وصار في عداد معوّقي الحرب. فإنّ بعض مَن قاتل الإمام الحسين عليه السلام في صفوف جيش الكوفة كانوا ممّن ضرب بالسيف ـ قبل

بضع سنين فقط ـ مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام ضدّ معاوية في حرب صفّين، لكن لم تمض إلّا برهة حتّى آلت بهم الأُمور إلى قتل سيّد الشهداء عليه السلام!

والمراد من قولنا: «العناصر الرئيسيّة للفتنة» هو أنّ هؤلاء كانوا قد غرقوا في الفساد عن علم ودراية، ولا يعني ذلك بالضرورة أنّهم كانوا من الأساس بلا دين أو منكرين لكلّ شيء. فالإنسان قد خُلق على شاكلة بحيث قد يكون ذا إيمان في بداية الأمر ويأتي بالصالحات إلى درجة الجهاد وبذل المال في سبيل الله تعالى، لكنّه ينقاد شيئاً فشيئاً إلى ارتكاب الذنوب وحبّ الدنيا وحبّ الجاه حتّى يبلغ حدّاً يبدو وكأنّه لم يؤمن بمبدأ ولا بمعاد. ولعلّه يجيب مَن يسأله عن دينه بالقول: أنا مؤمن ولا زلت أُقيم الصلاة. ألم يُصَلّ عمر بن سعد الصبح في يوم عاشوراء؟! حتّى أنّ أصحاب عمر بن سعد كانوا قد ائتمّوا به وصلّوا خلفه صلاة الصبح جماعةً، أمّا التعقيبات التي تلت صلاتهم فكانت قتل سيّد الشهداء عليه السلام!

نسيان المعاد يقود إلى ارتكاب المعاصي

إذن فعندما نقول: «الرعيل الأوّل من أصحاب الفتنة» فإنّنا نقصد بهم أُولئك الذين يعملون ضدّ الإسلام عن علم ووعي؛ أي الذين لا يأبهون بتبعات هذه الخطيئة عندما يُقبلون على اقترافها.

فعندما عُرضت على عمر بن سعد فكرة الذهاب إلى كربلاء وقتال سيّد الشهداء عليه السلام قضى ليله حتّى الصباح غارقاً في أفكاره، يذرع المكان جيئةً وذهاباً حتّى وافق في نهاية المطاف. إذن فليس كلّ الذين يفسدون عن علم هم في نفس المستوى، وليس جميعهم كفّاراً مشركين معاندين. فانطلاقاً من وجهة نظر القرآن

الكريم فإنّ العامل لارتكاب المرء للمعصية هو نسيانه يوم الحساب والقيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[1]. وبناءً عليه فليس بالضرورة أن ينبع ارتكاب هؤلاء للذنب وممارستهم للفتنة من إنكارهم ليوم القيامة، بل من نسيانهم له فلا يعود عملهم يختلف عن عمل من لا يعتقد بالمعاد أساساً. إذ أنّ الباري عزّ وجلّ يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾[2]. فالنتيجة الحاصلة من اقتراف المرء للذنوب هي تفريطه بدينه وإيمانه؛ فهو يشكّ في بداية الأمر لكنّ شكّه هذا يتعاظم حتّى يصل تدريجيّاً إلى حدّ الإنكار. ومن هنا نفهم أنّه ليس للطبقة الأُولى من عناصر الفتنة حدّ معيّن كي نقول: لابدّ أن يكونوا غاية في الكفر والعناد؛ بل إنّ لهم مراتبَ ودرجاتٍ شتّى. وكذا الفتن فإنّها متنوّعة. فالعناصر الرئيسيّون في الفتنة يُقدمون عليها عن وعي كامل الأمر الذي يؤدّي إلى عمى أبصارهم الباطنيّة من شدّة المعصية فيُحرَمون من نور البصيرة ولا يعودون يرون الحقيقة، ويكونون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[3].

حبّ النفس مدعاة لعمى القلب

يقول القرآن الكريم: هناك من الناس من يتّخذ من هواه معبوداً له. والإله والمعبود هو كلّ ما يستسلم له المرء وينقاد ويمتثل لكافّة مطالبه. واتّخاذ البعض هواه معبوداً له يعني أنّه أصبح عابداً لقلبه منصاعاً لكلّ ما يهواه قلبه ويميل

---

(١) سورة ص، الآية ٢٦.

(٢) سورة الروم، الآية ١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية ٧.

إليه. وهو قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾[1]. فإذا أضحى المرء على هذا النحو وبنى أمره على الانصياع لكلّ ما يرومه قلبه، صار وكأنّ ربّه هو الذي أمره بذلك. بل وقد يبلغ مبلغاً بحيث يكون تابعاً لهواه بصورة لا يمكن لأيّ شيء آخر أن يقف بوجهه. وليس من نتيجة لهذه الحالة إلّا أن يضلّه الله على علم: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي إنّ الله جلّ شأنه يضلّ هذا الشخص على الرغم ممّا يحمله من علم وقدرة على التمييز بين الخطأ والصواب. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾. ولفظ: «الختم» شائع في اللغة العربيّة وإن لم يكن متداولاً بعينه في اللغة الفارسيّة. فالرسائل في قديم الزمان كانت عندما تُكتب تُلَفّ ويُختم غلافها بمادّة لاصقة كي لا يفتحها إلّا مَن وُجِّهت إليه؛ كما يُفعل في زماننا عندما يُختم على الأُمور السرّية أو صناديق الاقتراع بختم كي لا تُفتح من قبل الغرباء. وكذا حال القلوب والسمع فقد يختم الله عليها بحيث لا ينفذ إليها أيّ أمرٍ حقّ؛ أي لا يمكن فتحها وإلقاء المباحث فيها وإفهامها. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾؛ فعندما نضع أيدينا مقابل أعيننا فإنّنا لا نعود قادرين على رؤية ما وراء أيدينا، فما بالك لو أُلقي ستار قاتم وغشاء غليظ عليها فمن الأولى أن لا نستطيع الرؤية. يقول عزّ وجلّ هنا: مَن ذا الذي يستطيع أن يهدي مَن أضلّه الله بهذه الكيفيّة: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[2]. فالنقاش مع من يصل إلى مثل هذه المرحلة يصبح ضرباً من اللغو والعبث؛ والباري عزّ وجلّ يقول: أفيمكن لأمثال هؤلاء أن يهتدوا؟

(١) **سورة الجاثية**، الآية ٢٣.

(٢) **سورة الروم**، الآية ٢٩.

وما كان قولنا بأنّ أفراد الطبقة الأُولى من عناصر الفتنة، الذين أقدموا على إذاعة الفساد وممارسة الفتنة عن وعي كامل، ليسوا هم قابلين للهداية وأنّ بذل الجهود وصرف الوقت من أجل هدايتهم هو عبث لا طائل تحته، إلّا انطلاقاً من هذا الأساس. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو تكليف أقلّ مصلحة تُصاب به هي إتمام الحجّة. ثمّ يأتي دور إرشاد الآخرين وهو الآخر تكليف يحتفظ بمكانته إذا يُرجي من القيام به تحقيق النتائج وتحقّق الآثار. أمّا أن يهدر المرء وقته في هداية من تجتمع فيه ما ذكرنا من الصفات فهو أمر غير مُجدٍ؛ هذا وإن كان إتمام الحجّة عليه ضروريّاً وهو أمر يتحقّق بتنبيهه مرّة واحدة ليس أكثر.

إذن فانطلاقاً من قلّة كوادرنا وإمكانيّاتنا وأنّنا في مواجهة فتنة تشترك في إشعالها ثلاث طبقات من الناس، فإنّ كوادرنا غير كافية حتّى لهداية طبقة واحدة منهم. فإنّنا لو ابتدأنا من نقطة الصفر وبذلنا الغالي والنفيس وأمضينا نهارنا وليلنا في التماس وهداية الطبقة الأُولى من عناصر الفتنة الذين يمارسونها عن وعي كامل مستنفدين لأجل ذلك كلّ الطرق والوسائل فلا فائدة من ذلك؛ لأنّ أمثال هؤلاء قد فعلوا فعلتهم وأضلّوا أو قتلوا بفتنهم الآلاف من البشر، فهيهات لنا أن ننجح في هدايتهم. وقد سبق أن قلنا إنّ عملنا هذا هو أشبه بمحاولتنا لهداية الرئيس الأمريكيّ أو رئيس وزراء انجلترا على سبيل المثال.

تعريف أوضح بالطبقة الثالثة لعناصر الفتنة

لقد سبق القول بأنّ الطبقة الثالثة من عناصر الفتنة تتألّف من أشخاص هم ـ من ناحية ـ طلّاب علم وأهل خطابة وفضيلة أو حتّى اجتهاد، ومن ناحية أُخرى أهل عبادة وورع وصلاة ليل ونوافل ومستحبّات وزيارة عاشوراء

لكنّهم ـ وانطلاقاً من قلّة وعيهم ـ يتفوّهون بكلام أو يقومون بأفعال تصبّ في صالح الأعداء متخيّلين بأنّهم بمخالفتهم ومعارضتهم هذه إنّما يمارسون عبادة مهمّة. فإنّ الواجب الأكبر الذي يقع على عواتقنا نحن طلّاب العلوم الدينيّة هو بذل كلّ ما بوسعنا لإرشاد هذه الطائفة، وإلّا فلن تكون محاولاتنا مجدية في ردع الغارقين في دوّامة الفساد والمنغمسين في الذنوب والمعاصي أو الذين لا يعرفون من دنياهم سوى المال واللذّات المادّية ـ في ردعهم عن التوغّل في هذه الطريق وهدايتهم إلى جادّة الصواب. نعم قد يهتدي من كلّ بضعة آلاف منهم شخصٌ إلى الصراط المستقيم، لكن لا يسعنا القول بأنّ واجبنا هو هداية هاتين الطائفتين.

لقد تعرّفنا طيلة السنوات الثلاثين بعد انتصار الثورة الإسلاميّة على أنماط شتّى من أمثال هؤلاء. فهل يتحتّم علينا يا ترى أن نبذل الجهود في هداية أفراد كالبلطجيّة وفارضي الأتاوات؟ وحتّى لو افترضنا بأنّ عملاً كهذا يُعدّ واجباً، لكنّ الأوجب منه هو السعي لإرشاد وهداية من هم أكثر تأثيراً وقابليّة للهداية؛ فأمثال هؤلاء يحملون الدافع لطاعة الله من جهة، ووعياً دينيّاً من جهة أُخرى لكنّهم ـ وبسبب ما يعانونه من جهل أو غفلة أو جرّاء ما ألقت الشياطين في أذهانهم من شبهات ـ يتفوّهون بأُمور لا يلتفتون إلى تبعاتها ولا يعلمون بأنّ نتائجها ستصبّ في صالح الأعداء. فيتعيّن لفت انتباههم إلى هذه المسائل بكلّ أدب واحترام وتوعيتهم بأيّ وسيلة متاحة كي لا يقوموا بما ينسجم مع مصالح العدوّ.

ولعلّ أهمّ عناصر الفتنة وأكثرهم تأثيراً في صدر الإسلام كانوا أصحاب الطبقة الثالثة؛ وهم إمّا من الأشخاص المعروفين المتديّنين العاملين بالقرآن والمطّلعين على تفسيره، وإمّا من أصحاب العبادة الغزيرة الذين يحظون باحترام

بالغ بين الناس. فعامّة الناس يعاملون أصحاب هاتين الطائفتين ـ نقصد العلماء من جهة، وأهل التقوى والزهد من جهة ثانية ـ باهتمام بالغ ويمنحونهم ثقتهم، لاسيّما إذا نُقلت عنهم الكرامات وعُرف منهم استجابة الدعاء، الأمر الذي يدعو الآخرين إلى القبول بكلّ ما يقولونه من دون أدنى مناقشة.

سرّ ضرورة التعاطي مع الطبقة الثالثة من عناصر الفتنة

يتعيّن علينا توظيف جلّ طاقاتنا الرامية لمواجهة أصحاب الفتنة في التعاطي مع الطبقة الثالثة منهم؛ أي مع أُولئك الذين يتصوّرون بأنّهم يؤدّون ما عليهم من تكليف لكنّهم ـ وجرّاء جهلهم ـ يقومون بما ينفع الأعداء. ولربّما تكون أفعالهم أو يكون كلامهم صحيحاً وسليماً في حدّ ذاته، لكنّهم يقولون ما يقولون أو يفعلون ما يفعلون في موطن معيّن وبصورة خاصّة بحيث يكون محطّاً لاستغلال العدوّ. ولتوضيح هذا المبحث لابدّ من مقدّمة هي كالآتي:

وفقاً لما يُستشفّ من التاريخ ـ سواء منه التاريخ الذي كتبته يد البشر أو ذلك الذي جاء عن طريق الوحي (القرآن الكريم) ـ فإنّه ليس من أُمّة، منذ أن خُلق الإنسان إلى يومنا هذا، بقيت بمنأى عن الفساد أو خلت من المستغلّين والذين يلبسون الحقّ بالباطل ويمارسون الظلم والتعسّف بحقّ الناس. فقبل أن يُخلق آدمعليه السلام قال الملائكة لربّهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ... قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١)؛ إذن هم كانوا يعلمون بأنّ هذا الكائن لابدّ أن يكون أهلاً للفساد وإراقة الدماء. كما أنّ الله جلّ وعلا لم يقل لهم: «كلّا، البشر ـ ليسوا

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

كذلك»، بل قال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. أي من المعلوم أنّ حياة ابـن آدم في الأرض ستكون مقرونة بالفساد وسفك الدماء والظلم. فلم يُبعث كـلّ هـؤلاء الأنبياء ولم يتجشّموا كلّ ذلك العناء والمعاناة إلّا من أجل هداية البشر وقد نجح بعضهم ـ في الجملة ـ في إقامة حكومة بالفعل؛ لعلّ أهمّها تلك التي أقامها نبـيّ الله سليمان عليه السلام. لكنّ التاريخ لم يحدّثنا عن ظهور مجتمع مثاليّ يخلو مـن أيّ فسـاد أو جور، وإنّنا نأمل إن شاء الله أن يتحقّق مثل هذا المجتمع المثاليّ في زمان ظهور صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه الشريف؛ هذا وإن لم نعلم كيفيّة حصول ذلك. ولعلّ القدر المتيقّن من ذلك هو أنّ الظالم في ذلك المجتمع لن يُفلت من العقـاب، لكـن قـد لا يُضـمن ـ حتّى في مجتمع كهذا ـ أن لا تُرتكب أيّ خطيئة ولا يُقترف أيّ ظلم. ففي ذلك الزمان ستشيع العدالة ويزداد الناس الصالحون الذين يعملون بإخلاص.

بناءً على ذلك فالتاريخ يطلعنا والقرآن الكريم يحدّثنا بأنّ هناك أقواماً من البشر قد تعاقبت وأُرسل إليهم الأنبياء لكنّهم تمرّدوا فاستوجبوا لذلك العذاب. فالله عزّ وجلّ يسرد في سورة «الشعراء» قصص الأُمم الواحدة تلو الأُخرى ويقول عقب كلّ قصّة: وقد نزل عليهم العذاب وأُهلكوا، ثمّ يقول: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1]. فلا نتنظرنّ ـ بعد أخذ تلك الوقائع بنظر الاعتبار ـ أن لا يحصل أيّ ظلم أو مخالفة عند ظهور النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وتحقّق حكومته أو حكومة أمير المؤمنين عليه السلام وهما مظهر العدالة من بين جميع البشر على مرّ التاريخ. وهذه سيرة عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ماثلة أمامنا فلنطالعها. فهو عليه السلام كان يعرف الذين ينتخبهم كولاة وقضاة حقّ المعرفة ولا ريب أنّه كان ينتخب الأصلح من

(١) **سورة الشعراء**، الآية ٨، وقد تكرّرت هذه العبارة في سبع آيات أُخرى من نفس السورة.

بينهم لتولّي هذه المناصب. لكن هل كان هؤلاء من النزاهة بحيث لم يرتكبوا أيّ مخالفة؟ إذن لأيّ شيء كانت تلك الكتب التي أرسلها أمير المؤمنين عليه السلام إلى عمّاله يعزل بها بعضهم ويوبّخ البعض الآخر؟! بل إنّ أحد أقربائه المقرّبين ممّن كان يتولّى منصباً قد أقدم على مدّ يده إلى أموال بيت المال، فطالبه عليّ عليه السلام بردّها إلى محلّها[1]، لكنّه أبى وفضّل الفرار على البقاء!

ومن هنا فمن غير المنطقيّ التوقّع أنّه ما دام عليّ عليه السلام يترأّس الحكومة فإنّه لن يرتكب أحد خطأً أو معصية. فهل لنا أن نتوقّع من الإمام[2] الذي كان يَعُدّ نفسه فداءً للتراب الذي تحت أقدام الإمام المعصوم عليه السلام، بل ويفتخر بذلك، ونحن أيضاً نفتخر بأنّه كان لنا إمام كان جُلّ فخره أن يكون فداءً للتراب الذي يدوس عليه الإمام المعصوم ـ هل نتوقّع من دولته، التي أقامها بعد انتظار دام مئات السنين، أن لا تحصل فيها أيّ مخالفة ولا يُرتكّب فيها أيّ خطأ؟ فهل عدالته كانت تفوق عدالة عليّ عليه السلام يا ترى؟! وهل قدرته على إدارة البلاد كانت تفوق قدرة النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام؟!

فقد يتبادر إلى أذهان البعض بل وقد توحي الشياطين إليهم أنّ هذه الحكومة[3] هي حكومة غير شرعيّة أو غير إسلاميّة؛ ذلك أنّ الخطأ الفلانيّ أو المخالفة الكذائيّة قد حصلت في المكان الفلانيّ. أفيمكن أن يُحال دون وقوع أيّ إشكال في أيّ مكان إذا تسلّم أحد معيّن مقاليد الحكم في بلاد ما؟ فهذا توقّع ليس في محلّه بالمرّة وهو مؤشّر على عدم معرفتنا بطبيعة ابن آدم، أو محاولتنا خداع

---

(١) راجع **نهج البلاغة**، الرسالة ٤١.

(٢) يقصد الإمام الخمينيّ الراحل قدس سره.

(٣) يقصد الحكومة الإسلاميّة التي أُسّست في إيران بعد الثورة.

أنفسنا. فهذا هو دأب المجتمع البشريّ وإنّ غاية ما يستطيع الحاكم الصالح فعله هو معاقبة الظالم وفقاً لأحكام الإسلام، هذا إذا أعانه أفراد شعبه وتوفّرت لديه الطاقات البشريّة الكافية لذلك. فليس بالمتيسّر ضمان عدم حصول أيّ تجاوز على القانون في أيّ موطن، ولا معاقبة كلّ متجاوز؛ فكيف تتسنّى السيطرة على شعب مؤلّف من سبعين مليون نسمة[1] ومنع أيّ فرد من أفراده من ارتكاب أيّ مخالفة؟! هذا مع وجود كلّ هؤلاء الأعداء الذين يبذلون ـ بمساعدة عملائهم في الداخل ـ كلّ ما بوسعهم لإشاعة الفساد كي يطيحوا بهذه الحكومة التي تأسّست باسم الإسلام بعد مضيّ ألف وبضع مئات من السنين.

أهمّية البصيرة في توقّي الفتنة وإنقاذ المفتونين

ممّا لا شكّ فيه أنّ العالِم الذي أفنى عمره في طلب فقه آل محمّد عليهم السلام قد نال من العلم النصيب الأوفر وعرف الإسلام أفضل من غيره، لكنّ حيازته الصلاحيّة لقيادة الأُمّة مشروطة بتمتّعه بقدر كاف من التقوى من جهة، وقدرته على تشخيص مصالح المجتمع الإسلاميّ من جهة أُخرى. فلو اختلف فريقان من العلماء في وجهات النظر يتمتّع الفريق الأوّل منهم بالتقوى والاطّلاع على القضايا السياسيّة والاجتماعيّة في حين يمتاز الفريق الثاني منهم بمعرفتهم بالدين، وبالتقوى، وبالبصيرة فإنّ الذي يكون كلامه حجّة علينا هو ذلك الذي يتمتّع بالصفات الثلاث الآنفة الذكر: العلم (المعرفة والإحاطة الجيّدة بالإسلام وقوانينه)، والتقوى (حيازته للدافع إلى العمل)، والبصيرة (إدراكه لأوضاع الزمان وتشخيصه الصحيح للمصالح).

---

(١) إشارة إلى الشعب الإيرانيّ.

لقد منّ الله سبحانه وتعالى علينا إذ رفع من بين العالمين شأن امرئ صار معروفاً بين الناس أجمعين حتّى في أقصى نقاط العالم، وقد أثبت طيلة سنيّ نشاطه السياسيّ ـ سواء عندما أشعل فتيل نهضته، أو عندما تولّى أعلى مسؤوليّة في إدارة البلاد ـ أثبت أنّه يفوق الجميع في الإحاطة بالمسائل السياسيّة. وقد أذعن حتّى السياسيّون المتمرّسون بتفوّقه في هذا المجال. وحتّى عندما كانوا يخالفونه الرأي، فقد كان ينكشف للملأ بعد حين مدى صحّة رأيه وسقم آراء مخالفيه.

إذن فواجبنا الأساسيّ هو التفتيش عن أمثال هؤلاء. بالطبع ينبغي لنا احترام كلّ صاحب علم وتقوى بسبب علمه وتقواه، بل وتقبيل يده أيضاً، لكنّ هذا لا يعني أن نتعلّم منه واجباتنا الاجتماعيّة أيضاً. وبناءً عليه فإنّ الشرط الثالث لفهم المسائل الاجتماعيّة والوقاية من وقوع الفتنة أو إنقاذ المفتونين هو البصيرة.

تأكيد القرآن والسنّة على ضرورة التبصّر في الدين

إنّ تأكيد قائد الثورة المعظّم (أيّده الله تعالى) المستمرّ والمبرم على مسألة البصيرة يرجع إلى أهمّية هذا الشرط. وهو شرط ليس من مبتكراته هو (حفظه الله) بل هو محطّ تأكيد القرآن الكريم وقد أكّد عليه أمير المؤمنين عليه السلام في أقواله أيضاً. يقول تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1]. فالبصيرة مصطلح قرآنيّ قد روّج له القرآن الكريم حتّى صار جزءاً من ثقافة المسلمين العامّة[2]. فعليّ عليه السلام كان ينادي: «**إنّ معي لَبصيرتي ما لَبَّستُ على نفسي**

---

(١) **سورة يوسف**، الآية ١٠٨.

(٢) هذا وإن لم يتغلغل إلى الآن في ثقافة مجتمعنا المعاصر.

ولا لُبِّس عَلَيّ»[1]؛ أي إنّني متبصّر في ديني وأعلم ما الذي يجب عليّ صنعه؛ فلا أخدع نفسي وأجعل الأمر مشتبهاً عليّ، ولا أسمح لغيري أن يخدعني ويلبّس الأمر عليّ. فأنا مطّلع اطّلاعاً جيّداً على جميع التيّارات والقضايا وأعلم تكليفي تجاه أيّ واحدة منها. ولهذا السبب فقد كانوا يتّهمونه عليه السلام، بل وكانوا أحياناً يصرّحون بالقول: أنت غير قادر على إدارة الأُمّة وزعامتها، أمّا معاوية فإدارته أفضل وسياسته أنجع. فكان عليه السلام ينادي فيهم: أنا أدري ماذا أصنع وأعلم بتكليفي أكثر منكم ولا يساورني أدنى شكّ بأنّه ليس ثمّة من سبيل غير الذي أسلكه.

التعابير الواردة في نهج البلاغة في هذا الصدد لاذعة حقّاً. ففي أحد حروب الإمام عليه السلام، حيث انخرط بعض الأصحاب في إثارة القلاقل ومعارضة حكومة أمير المؤمنين عليه السلام مدّعين بأنّه غير مؤهّل لإدارة الأُمّة، بل غير عارف بشؤونها، يقول عليّ عليه السلام: «**وقد قلّبتُ هذا الأمر بطنَه وظهرَه حتّى منعني النوم فما وجدْتُني يسعُني إلاّ قتالُهم أو الجحود بما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله**»[2]. ولو كنتُ أنا ومن هم من أمثالي من أهل الركون إلى الدعة والراحة في زمان أمير المؤمنين عليه السلام فلعلّنا كنّا سنقترح عليه كما فعل البعض: «لِمَ لا تلجأ إلى شكل من أشكال التسوية مع معاوية ولا ينبغي أن تتشدّد في الأمر إلى هذا الحدّ. فطلحة معروف عند المسلمين بطلحة الخير، والزبير يلقَّب بسيف الإسلام ولطالما دعا النبيّ صلى الله عليه وآله لسيفه، وهذه المرأة هي زوج الرسول صلى الله عليه وآله! هؤلاء شخصيّات بارزة، فهلّا نظرت إلى مكانتهم

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٠.

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة ٥٤؛ وراجع الخطبة ٤٣ منه أيضاً: «**ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينَه وقلّبتُ ظهره وبطنه فلم أرَ لي فيه إلاّ القتال أو الكفر بما جاء به محمّد صلى الله عليه وآله**».

وشأنهم»؟ فما كان من عليّ عليه السلام إلّا أن قال: إنّ عدم قتالي لهم يعني جحودي لدين الإسلام! هذا المستوى من الفهم ليس من شأن أيّ أحد، بل إنّه يحتاج إلى امتلاك المرء لبصيرة ثاقبة في المسائل الاجتماعيّة تعينه على معرفة الحقّ كما هو وإدراك لوازم الأمر وما سيؤول إليه إن هو سكت أو قصّر فيه.

فلو كان الشعب [الإيرانيّ] قد سكت أو تسامح في مجريات فتنة عام ٢٠٠٩م فما الذي كان يمكن أن تكون عليه عاقبة هذه الثورة وما الذي كان سيحصل يا ترى؟ فلو ادّعى أحد أنّ القرار الحاسم الذي اتّخذه القائد(١) في حينه كان نموذجاً من ذلك القرار الحاسم الذي اتّخذه أمير المؤمنين عليه السلام في قتاله لأصحاب الجمل وغيرهم من الناكثين والقاسطين والمارقين، لم يكن ادّعاؤه عبثاً؛ فالبصيرة والفراسة التي يمتلكها هذا الرجل إلهيّة: «**اتّقوا فِراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله**»(٢).

عظمة نعمة القيادة

عندما يتمتّع الشخص بطاقات كبيرة موهوبة له من قبل الله تعالى وقد أبرم عمليّاً مع الله موثقاً أن يعمل بما يعلمه وما فيه رضا ربّه ثمّ التزم بموثقه هذا فإنّ الله لن يذره أبداً وسيمدّ له يد العون لا محالة.

إنّ علينا جميعاً أن نفكّر بعظمة نعمة القائد الذي منّ الله به علينا. فلو أنّنا قارنّاه بزعماء باقي أقطار العالم فما هو وجه المقارنة يا ترى؟ فكم بالمائة يملك غيره من الزعماء من الأهليّة التي يمتلكها؟ ولولا أنّني سأُتَّهم بالتعصّب

---

(١) يقصد الإمام الخامنئيّ أدام الله ظلّه.

(٢) **الكافي**، ج١، ص٢١٨.

لتكلّمت بصراحة أكبر، لكنّني أقول إجمالاً أنّه لا أحد من زعماء العالم ورؤسائه يمكن قياسه به. فلو أنّنا ـ لا سمح الله ـ حُرمنا من هذه النعمة لعلمنا حينها ما الذي نحن بحاجة إليه.

فمن أجل أن نعرف قدر أنعم الله علينا لابدّ من مقارنة أنفسنا مع الذين يفتقدون مثل هذه النعم. فإنّ المرء لا يلتفت إلى النعم إلّا إذا أدرك أيّ آلاء أسبغ الله عليه؛ فلعلّه لا يحمد الله على تمتّعه بنعمة البصر إلّا عندما يشاهد شخصاً ضريراً، وإلّا فهو لا يتذكّر عادة بأنّ البصر نعمة أيضاً.

فإذا قارنّا بلدنا [إيران] بأفغانستان مثلاً فإنّنا سنقف على عظمة ما نتمتّع به من نعمة. فقد حارب الشعب الأفغانيّ الكفّار لسنوات عديدة بعد أن كان الجيش السوفيتي الماركسيّ والنظام الأفغاني الماركسيّ العميل له مسيطراً على الحكم في أفغانستان. ثلاثون عاماً مضت على هذه الأحداث فما كانت النتيجة إلّا أن غزاهم العدوّ في عقر دارهم وسيطر على مقدّرات البلاد والعباد. أمّا نحن فقد قيّض لنا الله عزّ وجلّ قائداً فذّاً وأنزل علينا من النصر المؤزّر وحبانا من العزّة ما يغبطنا عليه كلّ أهل العالم. فما الفرق بيننا وبين أفغانستان؟ فمقارعة العديد من الجماعات الأفغانيّة للأعداء كانت أكثر وأشدّ منّا بكثير وقد تحمّلوا في هذا الطريق الكثير من الشدائد والمحن. فنحن غير مطّلعين على الكثير من هذه المشاكل ولا ندرك مقدار ما قاسوه من مصاعب وما بذلوه من مُهَج في هذا السبيل. فلماذا يا ترى يرزحون الآن، وهم في عقر دارهم، تحت نير عدوّ غاشم بعد كلّ ما تجرّعوه من البلايا والقتل والتخريب والتشريد والتخلّف؟!

الجواب هو أنّهم يفتقدون قائداً مثل الإمام الخمينيّ‌ﭬ. فبأيّ شيء يمكننا قياس هذه النعمة يا ترى؟ ومع كلّ ذلك يأتي بعض عديمي الوعي ليقولوا: ما

الذي فعله الإمام الخمينيّ غير إرسال عدد من أفراد الشعب إلى المهلَكة؟! لكن ما السبب الذي يجعل المرء كافراً بالنعمة إلى هذا الحدّ؟ فلو أنّ شرطيّاً ارتكب حماقة في نقطة من نقاط هذه البلاد أو أنّ بعض الذنوب لا زالت تشيع في بعض الأمكنة فهل معنى ذلك أنّ الأمام الخمينيّ﵀ لم يأتنا بجديد وأنّ الثورة كانت عديمة الجدوى؟!

وحتّى بعد الإمام الراحل فقد منّ الله علينا بخلف صالح له هو نسخة طبق الأصل منه. فلو انبرى أحدهم بالقول: ما الذي فعله لنا؟ فإنّه سيُصنَّف ضمن تلك الطبقة الثالثة من عديمي الوعي والبصيرة. إذ يتصوّر هؤلاء بأنّه إذا عُثر على بعض النسوة السيّئات الحجاب أو غير المحجّبات في مكان ما أو مُورست الرشوة في دائرةٍ أو مؤسّسةٍ مّا فإنّه ما من عمل إسلاميّ قد تمّ على الإطلاق! كيف ذلك وإنّ بعض هذه المفاسد كانت موجودة حتّى في زمان أمير المؤمنين﵇. فقد بعث﵇ يوماً إلى أحد عمّاله رجلاً يطالبه بردّ أموال بيت المال فلم يكن من هذا العامل إلّا أن لاذ بالفرار ـ عوضاً عن ردّ الأموال ـ ولجأ إلى معاوية أو هرب إلى مكان آخر. أفيكون وجود مثل هذه المخالفات دليلاً على عدم أهليّة أمير المؤمنين﵇ للخلافة؟! إذن علينا أن ننظر إلى المسألة من هذه الزاوية، وهي أنّه إذا لم يكن لدينا مثل هذا القائد فما الذي كان سيحصل؟ أو إذا مُسَّت ـ لا قدّر الله ـ منه شعرة فأيّ مصيبة ستحلّ بنا؟

واجب الحوزويّين تجاه أصحاب الفتنة

إنّ من تكاليفنا الخاصّة نحن طلبة العلوم الدينيّة تجاه أصحاب الفتنة والذي ينبغي أن نتعاطى معه بمزيد من الحساسيّة هو محاولة إنقاذ الطبقة الثالثة من

عناصر الفتنة مع مراعاة ما يلزم من أدب واحترام مع المخاطَب. إذ لا بدّ في هذا المجال من التعامل بعقلانيّة والتصرّف بطريقة تجعلهم ـ قدر الإمكان ـ يتنبّهون إلى خطأ ما قالوه أو فعلوه.

لكن علينا أن نعلم أنّه في هذا العالم، لاسيّما ضمن نطاق المسائل الإنسانيّة والاجتماعيّة التي لإرادة الأشخاص واختيارهم دور في تحقّقها، لا توجد هناك أيّ صيغة معيّنة من شأنها أن تحقّق النتائج المرجوّة مائة بالمائة. فلم يستطع أيّ نبيّ مرسل أن يهدي جميع أفراد قومه، ولم يتمكّن أيّ إمام من إصلاح أُمّته قاطبة. نعم لقد بذلوا كلّ ما بوسعهم: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[1]، لكنّهم في النهاية يتعاملون مع الإنسان الذي هو كائن مختار. فتدبير الإنسان ليس تدبيراً ميكانيكيّاً كما هو حال المصنع الذي تدخل المواد الأوّليّة فيه من جانب لتخرج شيئاً مصنوعاً من الجانب الآخر. فمهما بُذلت من جهود في قضيّة الدعوة فإنّ فكر المخاطب وإرادته هما المؤثّران في نهاية المطاف وإنّ مستوى ما يحمله من معرفة وإيمان ينهض بدور رئيسيّ في بلورة النتائج.

فمقارعة الفتنة ليست بالأمر الهيّن؛ لأنّ خطط الشياطين معقّدة، لاسيّما في عصرنا هذا بعد أن اكتسب إبليس وأعوانه (من الجنّ والإنس) من التجارب الكثير على مدى بضعة آلاف من السنين تراكمت يوماً بعد آخر منذ زمان أبينا آدم عليه السلام إلى يوم الناس هذا. فخططهم قد أضحت على جانب من التعقيد حتّى أنّ أشدّ الناس حنكة ودهاءً يسقطون في حبائلهم.

فما الذي ينبغي لنا صنعه في مواجهة الفتنة وما التكليف الذي في أعناقنا في

---

(١) سورة هود، الآية ٨٨.

هذا الصدد؟ هل ينبغي أن نستسلم للفتن؟ وقد اتّضح الجواب على هذا السؤال إجمالاً فيما مرّ من بحث. فنحن نمتلك ـ إلى حدّ ما ـ القدرة على طاعة الله ونستطيع مخالفة الشيطان الرجيم. إذن نحن نتحمّل مسؤوليّة ولا يجوز لنا مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى. ومسؤوليّتنا تتناسب مع ما لدينا من قدرة واستعداد. إذن فقولهم: «ستقع في آخر الزمان فتن لن يكون في ذمّتنا واجب أو تكليف حيالها» هو كلام عار عن الصواب. فالفتن ستقع لكنّها ستقع بأيديكم وباختياركم. وإذا قيل: سيبلغ بعض الناس في آخر الزمان الذروة في عدم الحياء، فلا يعني ذلك أنّ على البعض أن يكونوا عديمي الحياء بدعوى أنّه آخر الزمان ولابدّ من التجرّد عن الحياء! فأمثال هذه التنبّؤات هي أمور تكوينيّة ولا يُستشَفّ منها تكليف شرعيّ. فهذا القول هو إخبار بأنّ بعض الناس سيعصون أوامر الله باختيارهم ويدوسون على القيم الإسلاميّة بأرجلهم. إذ حتّى شباب اليوم يستطيعون أن يقارنوا وضعيّة الحياء في المجتمع قبل عشر سنوات خلت مع ما هي عليه اليوم ويقيّموا إلى أيّ مدى تغيّر وضع حياء النساء والرجال كلٌّ بحسب نطاق نشاطاته. فهناك جيل جديد من الشباب بات ينشأ داخل العوائل المتديّنة لا يرى في الحياء قيمة إسلاميّة ولا يراعيها إطلاقاً. فطاعة الأبوين واحترامهما قد طواهما النسيان. فقد جاء في الخبر أنّه من الأدب إسلاميّاً أن لا يجلس الابن قبل أبيه[1]. أمّا الآن فنحن نلاحظ أنّ الابن صار يعمد إلى تأديب أبيه بل ويصفعه أيضاً! هكذا إذن تغيّرت الثقافة في مجتمعاتنا. أفلا يوجد تكليف

---

(١) عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «**سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله: ما حقّ الوالد على وَلَده؟ قال: لا يسمّيه باسمه، ولا يمشي بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يَستَسِبُّ له**» (**الكافي**، ج٢، ص١٥٨ ـ ١٥٩).

والأوضاع على هذا النحو؟ بالطبع لقد تنبّأوا بأنّ أحوال المجتمع ستصل إلى هذا الحدّ في آخر الزمان لكنّهم لم يقولوا إنّ ذلك سيحصل جبراً. فالناس قد وصلوا إلى هذا الحدّ باختيار منهم وهم مسؤولون عمّا يفعلون. فمجرّد كون ظاهرة ما من المقدّرات لا يعني بالضرورة سلب التكليف تجاهها. فالتكاليف الشرعيّة محفوظة كلّ في محلّه، وإنّ الأشخاص مسؤولون عن تصرّفاتهم بمقدار ما يتمتّعون به من اختيار في ما يفعلونه.

بطبيعة الحال فإنّ العمل بما يمليه الواجب في بيئة كهذه هو أمر غاية في الصعوبة، ولذلك قيل: «**يأتي على الناس زمان الصابر منهم على دينه كالقابض على الجمر**»[1]. أمّا في المقابل فإنّ أجر الذين يشمّرون عن سواعدهم ويمسكون بهذا الجمر في أيديهم يفوق أجر غيرهم بمئات الأضعاف. فبنفس النسبة التي يكون فيها التكليف أشقّ تعلو قيمته ويزداد ثواب العمل به. فعندما يكون الامتحان صعباً تكون لِاجتيازه قيمة أكبر، وعلى العكس فإنّ الذي يخفق فيه يكون سقوطه أشدّ. فكثرة واشتداد الفتن والامتحانات في آخر الزمان يرجع إلى اتّساع أوعية البشر وازدياد طاقة تحمّلهم على خوض امتحانات واختبارات أشدّ وأصعب. فالفرق بين امتحانات آخر الزمان واختبارات الأزمنة السالفة هو كالفرق بين امتحان الصفّ الأوّل الابتدائيّ مع الامتحان النهائيّ للمرحلة الثانويّة؛ فالامتحان الأخير أصعب بكثير لكنّه يشير إلى مدى ترقّي الفرد وتكامله بحيث أصبح قادراً على خوض امتحان كهذا. فالامتحانات في آخر الزمان تصبح أشدّ، أمّا الوجه الآخر من العملة فهو أنّ الناس في آخر الزمان قد

---

(١) **الأمالي للطوسيّ**، ص٤٨٤ ـ ٤٨٥.

تكاملوا واتّسعت أوعيتهم. ففي العهود السابقة لم يكونوا يتمتّعون بهذا القدر من الأهليّة والاستعداد لخوض مثل هذه الامتحانات الصعبة. ولهذا نشاهد في زماننا أنّ طفلاً لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره بمقدوره قطع طريق طوله مائة عام. ولدينا في زمن الثورة الإسلاميّة أمثلة كثيرة من هذا القبيل حتّى أنّ بعضها قد عُرف وصار نموذجاً يُحتذى[1]؛ ولا شكّ أنّ المئات من النماذج المشابهة كانت ولا زالت موجودة هنا وهناك لكنّها بقيت مغيّبة لا يعلم أحد شيئاً عنها. لكنّ الله لا يفشي أسرار وأحوال عباده للآخرين. فلهؤلاء علاقة خاصّة مع ربّهم وإنّ الله يستر على أوليائه ولا يعلن أمرهم بسرعة. فيوجد في زماننا بين الناس من عباد الله ما قلّ نظيرهم في العصور الأُخرى، فهم اليوم كثيرون ويترقّون بسرعة بالغة. وممّا لا شكّ فيه انّ الامتحانات العسيرة موجودة أيضاً ولابدّ لأمثال هؤلاء أن يتجشّموا الصعاب والمشكلات ويقاسوا العذاب والآلام.

إذن فالتنبّؤ بأنّ فتناً عظيمة صعبة ستحلّ في آخر الزمان والاعتقاد بأنّها من التقديرات الإلهيّة لا يعني بأنّنا سنكون مجبرين على الاستسلام أمامها، بل إنّنا مكلّفون، بمقدار ما أُوتينا من وسع وقدرة، أن نحارب الفساد والظلم سواء ما كان منه في الداخل أو على الصعيد العالميّ، وأن نعمل ما بوسعنا، سواءٌ على نحو فرديّ أو جماعيّ، بالضبط مثل الحركة الشعبيّة التي عمّت البلاد قاطبة قبيل انتصار الثورة الإسلاميّة؛ فبفضل توجيهات وإرشادات الإمام الراحل (رضوان

---

(١) في إشارة إلى الشهيد محمّد حسين فهميده الذي رمى بنفسه تحت دبّابة العدوّ مفجّراً إيّاها ومحتسياً بذلك كأس الشهادة بعد أن أهلك عدداً من جنود العدوّ وذلك في الأيّام الأُولى من الحرب المفروضة دفاعاً عن حدود إيران الإسلاميّة في منطقة الشلمتشة في محافظة خوزستان.

الله تعالى عليه) كان الشعب قد فهم تكليفه وخرج من الامتحان منتصراً. فيندر أن نعثر ـ إذا استعرضنا التاريخ ـ على أُمّة من الناس قد نجحت على هذا النحو في خوض الامتحان. وقد خاض أفراد الشعب الإيرانيّ في السنوات الأخيرة ما يشابه هذا الامتحان وخرجوا منه مرفوعي الرأس[1] ماضين في الدرب الذي فيه رضا الله عزّ وجلّ ورضا إمام العصر عجّل الله تعالى فرجه الشريف وسرور نائبه بالحقّ عن إيثار وتضحية واضعين أرواحهم على أكفّهم وواقفين وقفة صمود وتحدّ أمام كلّ التحدّيات والمصاعب والمحن.

فأنْ يكون لمجتمع هذا القدر من الاستعداد لخوض الامتحانات العظيمة والترقّي فهو دليل على تكامله؛ هذا على الرغم من أنّ الصعوبات التي واجهها كانت ممّا بلغت له القلوب الحناجر. فأحياناً قد يظفر امرؤ في يوم واحد بثواب مائة شهيد حتّى وكأنّه قد نزل إلى ميدان الوغى والجهاد مائة مرّة وقُتل مائة قتلة. فإلى هذا الحدّ يمكن أن يواجه المرء تكاليف صعبة ويتعيّن عليه أن يثبت ويقاوم؛ فعلى المرء أن يبوح ببعض الأُمور أحياناً، وعلى العكس؛ عليه أن يسكت عن بعضها أحياناً أُخرى. فالسكوت قد يكون بالغ الصعوبة في بعض الأحيان، لكنّه عندما يكون تكليفاً فإنّه يرقى إلى درجة الجهاد. فالمجاهد في ساحة القتال والجهاد يستشهد مرّة واحدة وينال ثواب عمله، لكن بمقدور الإنسان انطلاقاً من الطاعة وأداء التكاليف الشاقّة أن يجني في اليوم الواحد ثواب مائة شهيد. إذ

---

(١) وقد بلغ هذا الامتحان الذروة في التاسع من دي من عام ١٣٨٨ هجري شمسي (٣٠/كانون الأوّل/٢٠٠٩م) عندما خرج أفراد الشعب الإيرانيّ بقضّه وقضيضه في كافّة أنحاء البلاد معلنين وفاءهم لمبادئ الإمام الراحل والثورة وقائد الثورة المعظّم الإمام الخامنئيّ (دام ظلّه) وثباتهم عليها مُدخلين بذلك اليأس التامّ إلى قلوب أعداء النظام الإسلاميّ في الداخل والخارج.

على المرء أحياناً أن يتجرّع المرارة والأسى، ويدوس على الكرامة، ويصبر، ويتحمّل المحن، ويغضّ الطرف عن المصالح. وقد يكون قول الحقّ أمام سلطان جائر أعظم أجراً مائة مرّة من الجهاد في سبيل الله؛ ففي الخبر عندما سُئل جعفر بن محمّد الصادقعليه السلام: أيّ الجهاد أفضل؟ قال: «**كلمة حقّ عند إمام ظالم**»[1].

فأن تكون للإنسان القدرة على الاستشهاد مائة مرّة في اليوم الواحد لهو أمارة على اتّساع وعائه الوجوديّ، كيف لا والناس يتمنّون الشهادة مرّة واحدة في حياتهم. ومن هنا فلا ينبغي أن نعترض على الله تعالى بالقول: لماذا خلقتنا في هذا الزمان لنخوض مثل هذه الامتحانات الصعبة؟ فحريّ بالله عزّ وجلّ أن يردّ على اعتراضنا هذا بالقول: أوّلاً: إنّني لا أُشاوركم فيما أصنع، بل ولا حاجة لي بمستشار استشيره، لكنّني أفعل ما أراه صلاحاً. ثانياً: عليكم أن تفهموا أنّ نفس هذه الامتحانات وأنّ سماحي لكم بالنزول إلى ميادين مثل هذه الامتحانات الضخمة هي رحمة من قِبلي. فالمشاركة في بعض الامتحانات يُعدّ بحدّ ذاته ميزة عظيمة؛ ذلك أنّه لا يُسمح لكائن مَن كان أن يدخل إلى باحة كلّ امتحان، فلِخوض الامتحان شروطه وعلى المرء أن يبرز من الوثائق ما يبيّن أنّه قد أكمل من المراحل الدراسيّة ما يؤهّله لخوضه. فمجرّد سماح الله جلّ شأنه لنا بالمشاركة في الامتحان يُعدّ بحدّ ذاته امتيازاً وهو يعني أنّه جلّ وعلا قبلكم وأنّكم حائزون على أهليّة خوض هذا الامتحان. إذن فبدلاً من الاعتراض على الله عزّ وجلّ بسبب صعوبة التكليف، يتعيّن علينا شكره والثناء عليه.

---

(١) **مجموعة ورام**، ج٢، ص٢٠٠. وجاء في **عوالي اللآلي**، ج١، ص٤٣٢ عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر**».

تأسيساً على ما مرّ فإنّ وجود هذه الامتحانات وتلك التنبّؤات ـ حتّى وإن كانت قطعيّة ـ لا يعني على الإطلاق سقوط التكليف عنّا وأنّ واجبنا هو الاستسلام المحض والترحيب بكلّ ما يحدث، بل لابدّ لنا على الدوام أن نفكّر بما ينبغي علينا فعله وما نحن مكلّفون به.

الفتنة عامّة والامتحان شامل

لقد أشرنا سلفاً إلى أنه يمكننا تقسيم الامتحانات إلى قسمين: الأوّل هي الامتحانات المشتملة على البلايا والمحن والمتاعب والأمراض وما إلى ذلك والتي ترتبط آثارها السيّئة، في الحقيقة، بالأُمور المادّية والدنيويّة. أمّا القسم الثاني فيشمل الفتن في الدين؛ وهي الاضطرابات التي تُدخل الناس في دوّامة من الحيرة والتيه ممّا يؤدّي بهم إلى الوقوع في الخطأ وسلوك سبيل الباطل من حيث لا يعلمون. وكلّ من قسمي الامتحانات تارةً يكون فرديّاً وتارةً أُخرى اجتماعيّاً.

ولكي نعرف أنّه ما من أحد مستثنىً من «الفتنة» بمعناها القرآنيّ فإنّه يتحتّم علينا الالتفات إلى ما ورد في القرآن في هذا الصدد. فالقرآن الكريم يشير في موضعين إلى أنّ النبيّ الأعظمﷺ قد تعرّض لفتنة والله تعالى يحذّرهﷺ في الحالتين من الخسران والفشل في هذه الفتنة. ففي إحدى هاتين القصّتين ثمّة شخص من قبيلة من القبائل، التي كانت لها خدمات جليلة في الإسلام وأيادٍ عظيمة في تقدّمه، قد امتدّت يده للسرقة وافتُضح بين قومه حتّى ثبتت عليه تهمة السرقة وحُكم عليه بقطع يده. فشقّ على كبار قومه هذا الحكم كثيراً؛ فقد كانت فضيحة كبيرة للقبيلة أن يُتّهم شخص منها بالسرقة ويقوم النبيّﷺ بقطع يده.

فتهافت قومه يفتّشون عن أيّ مخرج ويطرقون كلّ باب علّهم يستطيعون إقناع النبيّ ﷺ بعدم تنفيذ الحدّ الإلهيّ بحقّه. وعندها نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾[1]؛ أي: عليك أن تحكم بحكم الله ولا يصرفنّك الهوى عن ذلك، فإنّ بعضهم يتربّص بك الدوائر ليفتنك ويوقع بك كي يصرفك عن العمل ببعض تكاليفك على النحو الصحيح، فلا تنخدعنّ بأمثال هؤلاء. ويتعيّن عليك أن تنفّذ حكم الله سبحانه ولا تتّبع أهواءهم وما يبتغونه.

أمّا الآية الثانية فقد نزلت ـ وفقاً للأحاديث المبيّنة لأسباب النزول والروايات التاريخيّة[2] ـ في أهل قبيلة كانوا قد قالوا للنبيّ ﷺ: إنّنا على استعداد لدخول الإسلام واتّباعك ومعاهدتك على مساندتك في الحروب ووضع كلّ طاقاتنا تحت تصرّفك لكن بثلاثة شروط: الأوّل: إنّك تركع أثناء الصلاة وتهوي على الأرض ساجداً وهذا الأمر يشقّ علينا كثيراً فنطلب منك أن تعفينا منه. فالسجود على التراب لا يوافق شأننا ومنزلتنا (فقد كانوا من الأشراف المصابين بالتكبّر والتفرعن). ثانياً: أن لا نحطّم الأصنام بأيدينا. ثالثاً: أن ننتفع من صنم اللّات لعام آخر. فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ

---

(١) **سورة المائدة**، الآية ٤٩.

(٢) إنّها نزلت في وفد ثقيف قالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال؛ لا ننحني بفنون الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وتمتّعنا باللات سنة. فقال ﷺ: «**لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود. فأمّا كسر أصنامكم بأيديكم فذاك لكم، وأمّا الطاعة للات فإنّي غير ممتّعكم بها**». وقام رسول الله ﷺ وتوضّأ، فقال عمر بن الخطاب: «ما بالكم آذيتم رسول الله ﷺ أنّه لا يدع الأصنام في أرض العرب». فما زالوا به حتّى أنزل هذه الآيات عن ابن عبّاس. (راجع **مجمع البيان**، ج٦، ص٦٦٥).

﴿لِنَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾[1]؛ أي: لقد كدت أنت أيضاً أن تقع تحت تأثيرهم. فلنتخيّل الوضع الحرج الذي كان يعاني منه المسلمون في ذلك الزمن من قلّة الإمكانيّات المادّية والطاقات البشريّة وتكالب الأعداء الكثيرين عليهم من كلّ جانب، ثمّ يأتي نفر ليعرضوا عليهم استعدادهم لوضع كلّ شيء تحت تصرّفهم بشروط معيّنة. فإنّ كلّ سياسيّ ـ بشكل طبيعيّ ـ سيقبل بهذا العرض المغري قائلاً: علينا أن نفيد من مساعداتهم في الوقت الحاضر ثمّ نتّفق معهم فيما بعد ونصل إلى صورة حلّ معيّنة. وكأنّه قد خطر ببال النبيّ ﷺ هذا التساؤل وهو أنّه هل يمكننا القبول بشرطهم بحيث يتمّ إعفاؤهم من الصلاة؟ فلينضمّوا إلينا وليقاتلوا معنا لتكون لنا الغلبة على العدوّ، ثمّ ننظر بعد ذلك ما الذي سيأمرنا الله به في شأنهم. يقول تعالى متابعة للموضوع في الآيات التالية: لو أنّك فعلت ذلك وأذعنت لهم ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[2]؛ أي لأذقناك من العذاب والعقاب ضعف ما نذيق غيرك في الحالات المشابهة ثمّ لا تجد مَن ينصرك في مقابل الله عزّ وجلّ. فليس من حقّك أن تقدِم على أمر غير طاعتنا وإبلاغ رسالتنا. فما يمكن استنباطه من الروايات الواردة في هذا الصدد أنّ الفكرة قد خطرت مجرّد خطور في ذهن النبيّ ﷺ وأنّه لم يُبدِ أيّ رأي في هذا الجانب. وهذا ما يُستشفّ من عبارة: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾؛ أي: كنت على وشك أن يفتنوك.

إذن فالشيطان الذي هو رأس الفتنة لا يكفّ شرّه حتّى عن النبيّ ﷺ وهو

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٥.

يهيّئ الأسباب علّه يزلّ في موطن معيّن. لكنّ العزيز المتعال يحمي عباده المخلَصين ولا يدعهم يزلّون، وهذا هو معنى العصمة. وهو عين الإرشاد؛ فليس الأمر أنّ الله يسلب منهم اختيارهم، بل ينذرهم وينبّههم، وهذا بالضبط ما يُدعى بالتوفيق الإلهيّ والمعونة الربّانيّة. وهذا يشير إلى أنّه من الممكن للشيطان أن تسوّل له نفسه أحياناً أن يوطّئ لمثل هذه الفتن حتّى مع الأنبياء والأولياء.

أمّا ما يهمّنا في هذا المجال وما ينبغي أن نضعه أكثر في حساباتنا فهو الفتن الاجتماعيّة. فهدف أصحاب الفتنة هو إضلال المجتمع وحرفه عن جادّة الصواب. فالشيطان يبذل قصارى جهده في رصد كلّ ما لديه من طاقات وتجنيد كلّ ما عنده من كوادر ويرسم الخطط ويحوك المؤامرات وقد يستغرق في الإعداد لذلك أعواماً ودهوراً في سبيل إضلال الأُمّة عن سبيلها وحرف المجتمع عن طريق الهداية التي يسير فيها. وهنا تكمن المخاطر الجسيمة وهو ما يحتّم علينا النظر فيما يوصينا القرآن الكريم به وما يقع علينا من واجبات ومسؤوليّات لمواجهة هذه الفتن.

إنقاذ المفتونين

هناك ثلاثة عناصر يمكن تصوّرها في كلّ فتنة: الأوّل: طالب الفتنة أو مثيرها. ومن الممكن تقسيم هذا العنصر إلى أنواع متعدّدة، لكنّنا هنا سنناقشه ككيان واحد من دون تفكيك. والثاني: يمثّل المنخدعين بمثيري الفتن والذين يبتلون بتبعاتها ويخسرون مصالحهم بسببها. أمّا العنصر الثالث فلا يشمل مثيري الفتنة ولا المفتونين بهم، ويمكن تسمية أصحاب هذا العنصر بـ «مُجانِبي الفتنة».

ومن سمات مُجانب الفتنة أنّه يراعي أمرين: الأوّل حفظ دينه والآخر عدم السماح للآخرين بامتطاء ظهره. بيد أنّه تقع على عاتقه هو الآخر واجبات تجاه المخدوعين بالفتنة والمتورّطين بأشراكها. فإذا استعرَت نار وكانت على وشك أن تحرق شخصاً فما الذي ينبغي صنعه؟ ألا يتعيّن الأخذ بيده وإبعاده عنها؟ وإذا أحرقت النار أحداً، ألا ينبغي إطفاؤها والإسراع في علاجه؟ بناءً عليه فإنّه مضافاً إلى ما على مُجانبي الفتنة من تكليف تجاه أنفسهم، فإنّ عليهم واجباً تجاه الذين هم في معرض الفتنة وذلك بالحيلولة دون سقوطهم في حبائلها وإنقاذ الساقطين فيها.

مواجهة مُشعلي الفتنة

وكذا فإنّ في ذمّة مجانبي الفتنة مسؤوليّةً أُخرى تجاه مشعليها ومثيريها، سواء قبل اشتعال الفتنة أو بعده. فما الذي ينبغي فعله لمشعلي الفتنة يا ترى؟ وهنا أيضاً أوضاع وحالات متنوّعة. فقد تكون للمرء القدرة على الحيلولة دون إشعال أهل الفتنة لها، أو العمل بمفرده على إطفاء نارها المستعرة. غير أنّ الأمر يحتاج في أحيان أُخرى إلى العُدّة والعدد، وعندها لا تكون لمجانب الفتنة القابليّة على مواجهة مثيريها أو إبادتهم أو الوقوف بوجه أعمالهم لوحده. ليس هذا فحسب، بل إنّ للفتنة ألواناً شتّى وإنّ مواجهة كلّ لون منها والتعاطي معه يتطلّب أُسلوباً خاصّاً. فإذا لم يستطع مجانب الفتنة أن يمنع الفتنة فعليه ـ على الأقلّ ـ أن يعمل على إضعافها؛ وذلك بإضعاف شعلتها، أو إراقة شيء من الماء عليها، أو إقصاء مَن هم في معرض الفتنة عنها، أو فضح دسائس مثيريها، أو العمل على إنذار الآخرين.

سرّ وجوب القضاء على الفتنة

قد يقول قائل: ألم يُقْدِم مثيرو الفتنة على إثارتها عن عمد وعلم منهم؟ ثمّ ألم يقصّر المفتونون في أداء واجبهم؛ من حيث انّه كان عليهم أن يقوا أنفسهم من السقوط في فخّ الفتنة؟ فما داموا قد سقطوا الآن في شَرَك الفتنة فهذا تقدير إلهيّ وهو قضاء وقدر، وليس لنا أيّ شأن في ذلك!

وهذا الكلام غير صحيح لأسباب عدّة؛ فوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب إرشاد الجاهل، ووجوب مقارعة الظلم، ووجوب إنقاذ الغريق كلّها من أحكام الإسلام، بل وقد يتسنّى لنا ـ بصرف النظر عن هذه الأحكام الشرعيّة والواجبات المتعدّدة المتوفّرة في هذا المجال ـ الاستناد إلى حكم العقل الواضح. فالشاعر يقول: «إذا رأيت بئراً في طريق شخص أعمى ولم تحرّك ساكناً فأنت مأثوم»[1]. فإنّ مبحثاً كهذا ليس بحاجة إلى برهان ودليل تعبّدي، فكلّ امرئ نقيّ الفطرة لا يمكنه الجلوس مكتوف اليدين إذا رأى شخصاً آخر عرضة للخطر. فإذا وُجِدت حفرة كبيرة في طريق رجل أعمى ومن الممكن أن يسقط فيها فتُكسر يده أو رجله أو لربما يتسبّب ذلك في موته فإنّه ينبغي الأخذ بيده وحفظه من خطر السقوط.

وهنا لابدّ من التفكير والالتفات إلى أنّ الجهل بأحكام الإسلام وتفشّي البدع هو أخطر من أعظم نار؛ ذلك أنّ أضرار الحرائق محدودة على أيّة حال، فأقصى ما يمكن أن تتسبّب فيه هو سلب الإنسان للأيّام القليلة الباقية من

---

(١) تعريب لبيت شعر معروف بالفارسيّة يقول: «چو ميبينى كه نابينا و چاه است اگر خاموش بنشينى گناه است».

عمره. أمّا إذا سقط المرء في غياهب جُبّ حذف الدين فلا حدود لضرر ذلك؛ ذلك أنّ عذاب الآخرة غير محدود. فكيف يرضى ضمير الإنسان أن يجلس مكتوف الأيدي ويتفرّج على شخص يفقد دينه! فلو لم يكن في أيدينا أيّ دليل تعبّدي على وجوب إنقاذه فعقلنا وضميرنا كافيان لأن نهبّ لنجدته: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[1]. فقد منح الله لكلّ إنسان ما يكفي من الشعور ليشعر في مثل هذه المواقف بأنّ من واجبه أن يهبّ لنجدة الغريق. فعلاوة على ما ورد في القرآن والسنّة من الأوامر المؤكّدة في مجال مواضيع من قبيل إرشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأمثال ذلك، فإنّنا نلاحظ كيف أنّ العمل بهذه التكاليف يتجلّى بكلّ وضوح في سيرة أولياء ديننا. فقد جاء في زيارة الإمام الحسينعليه السلام يوم الأربعين ما نصّه: «**وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة**»[2]؛ فلقد بذل سيّد الشهداءعليه السلام آخر قطرة دم في قلبه المبارك لينقذ عباد الله من الجهالة وحيرة الضلالة. فكيف يمكن أن يكون المرء من شيعة إمام كهذا ثمّ لا يكترث بضلالة الناس وجهالتهم؟ ومن هنا فإنّ القضاء على الفتنة وإنقاذ المفتونين هما من الواجبات والتكاليف الاجتماعيّة وهناك أدلّة جمّة عليها وليس دليلاً أو دليلين[3].

---

(١) **سورة الشمس**، الآية ٨.

(٢) **التهذيب**، ج٦، ص١١٢.

(٣) من جملة هذه الأدلّة الآيات القرآنيّة، والأحاديث، وسيرة الأئمّة الأطهار، لاسيّما سيرة سيّد الشهداءعليه السلام، وصولاً إلى العقل والضمير ـ سواء عُدّ الأخيران دليلاً واحداً أم عُدّ كلّ واحد منهما دليلاً مستقلاً ـ حيث تُعدّ عاملاً باطنيّاً؛ فما من عاقل نقيّ الفطرة يستطيع الوقوف مكتوف اليدين في مثل هذه الحالات، بل إنّ شيئاً يحرّكه من داخله ويدفعه لينقذ الشخص المعرّض للخطر. وهذا عامل إلهيّ مودَع في باطن كلّ إنسان.

وتأسيساً على هذا فإنّ في أعناقنا ثلاثة واجبات تجاه الفتنة. فإذا كان علينا فيما يتعلّق بالصلاة واجب واحد وهو أداؤها، فإنّ في رقبتنا بخصوص الفتنة ثلاثة أنواع من الواجبات: الواجب الأوّل يرتبط بأنفسنا. والواجب الثاني يتعلّق بمثيري الفتنة ومشعليها. والواجب الثالث يتّصل بالمفتونين. لكن ما هي هذه الواجبات وكيف يمكن العمل بها؟ لتوضيح هذا الموضوع لابدّ من البحث في ثلاثة محاور.

ضرورة التصديق بوجود الفتنة والمؤامرة

يتعيّن علينا ـ من أجل العمل بتكاليفنا على النحو الصحيح ـ أن يكون لدينا بضعة أنواع من المعرفة؛ أوّلها أن نعتقد بوجود فتنة في الأمر. فإنّ من جملة حيل أصحاب الفتنة المعمول بها منذ بضعة عقود من الزمن، أو على الأقلّ منذ عشرين سنة خلت، هي مسألة «توهّم المؤامرة»[1]. فقد شكّل هذا الأمر موضوعاً

(١) منذ السنوات الأُولى لانتصار الثورة الإسلاميّة والإمام الراحل‏ يحذّر في خطاباته وكتاباته من المؤامرات قائلاً: «احذروا المؤامرات، فالأعداء يحاولون إعادتكم إلى الوضع السابق الذي كنتم عليه قبل الثورة». لكن في مقابل هذا الكلام، كان يصرّ البعض ـ ممّن يحمل عناوين شتّى كالمثقّفين، أو زعماء الفكر، أو ما إلى ذلك ـ على إنكار وجود أيّ مؤامرة في الموضوع، زاعمين فيما يكتبون من مقالات ويطرحون من مناقشات ويُدلون به من خطابات بأنّ «ما يُقال عن المؤامرة لا يعدو كونه وهماً. فليس هناك أيّ مؤامرة أو مخطّط في الموضوع وإنّ ما نراه هو تيّارات وتفاعلات اجتماعيّة عاديّة. فكلّ ما في الأمر هو أنّ بعض أفراد الشعب يرغبون في تغيير نظام الحكم، وهناك آخرون كانت ولا زالت لهم مصالح وهم الآن مستاءون ويريدون تأمين مصالحهم عبر طرق أُخرى. فلابدّ من السعي لتأمين مصالح هؤلاء من جهة والعمل على تحقيق مطالب الجماهير من جهة أُخرى. فهذه ليست مؤامرة بل هي تيارات طبيعيّة وعاديّة». كان أمثال هؤلاء يصرّون وما زالوا يصرّون بشدّة على هذا الأمر، وقد اشتُهر عندهم عنوان «توهّم المؤامرة» الذي هو بمثابة التعريض بكلام الإمام الراحل‏، أو قائد الثورة المعظّم (أيّده الله تعالى) أو كلّ مَن يحذّر من المؤامرات. وأخُصّ بالذكر هنا الجماعة المعروفة باسم «كيان» فقد

بالغوا في الكتابة حول هذه المواضيع ومناقشتها. فعندما أقول: الشرط الأوّل هو أن نصدّق بأنّ هناك مؤامرةً في القضيّة، فهو لمواجهة هذا النمط من التفكير؛ بمعنى أنّ هؤلاء الذين يزعمون بأنّ هذه الأفكار هي مجرّد أوهام، وأنّه ليس ثمّة أيّ مؤامرة أو فتنة، وأنّ الأمر لا يتعدّى السياق العاديّ للحياة الاجتماعيّة . إنّ هؤلاء لن يشعروا قطّ بضرورة اتّخاذ مواقف معيّنة تجاه مثيري الفتنة وأنّ هناك واجباً ينبغي أن يؤدّى في هذا الصدد. فصحيح أنّ الأحداث الأخيرة [فتنة عام ٢٠٠٩م] كان لها أضرار جمّة لكن ـ لحسن الحظّ ـ فقد كان لها فوائد كبيرة أيضاً؛ حيث إنّ حقائق دامغة كانت قد اتّضحت لعامّة الجماهير. فلولا وقوع هذه الأحداث لظلّ الأمر ملتبساً على الكثير من أفراد الشعب الأمر الذي كان سيُلحق ـ تدريجيّاً ـ بالبلاد خسائر فادحة من دون أن يثير ذلك حفيظة الجماهير. ولا بأس أن أضرب لذلك مثلاً بسيطاً؛ فقد يسري في مجتمع مّا مرض مُعْدٍ يستدعي اتّخاذ تدابير للقضاء عليه فتنبري الأجهزة ذات العلاقة لإطلاق التحذيرات وتجهيز فريق عمل خاصّ باللقاحات والتجهيزات الأُخرى اللازمة لذلك قائلة للناس: احذروا فهناك مرض خطير. بالضبط كما حصل قبل مدّة عند شيوع مرض الانفلونزا نوع «أ». فنرى أنّ الجميع يأخذون حذرهم وقد تتولّد حالة من الاضطراب في المجتمع، لكنّ الكلّ ينجز ما ينبغي إنجازه بحذر شديد. لكن لنفترض أنّ أيّ ضجّة لا تُثار عن الموضوع حتّى تسري جرثومة المرض وتستفحل تدريجيّاً ويصاب الناس بها متوهّمين أنّهم مصابون برشح بسيط، فتتفاقم الخسائر يوماً بعد آخر، ولا يفهم أحد في نهاية الأمر أنّه كان مرضاً خاصّاً وكان لابدّ من اتّخاذ إجراءات حثيثة ضدّه. فطالما تفشّت في التاريخ أمراض خطيرة كالكوليرا والطاعون وحصدت الآلاف من البشر من دون أن تُعرف علّة تلك الأمراض أو أسبابها.

وكذا في الفتنة فإذا تمّ تشخيص مثيريها بسرعة والوقوف على مآربهم وما يمكن أن يلحقوه بالمجتمع من ضرر فستُثار حفيظة الجماهير ويتوخّون الحذر ويعملون ـ ما استطاعوا ـ على تجنّب هذه الفتنة. أمّا إذا ظلّت النار تحت الرماد وأضحت تأكل ما تريد تدريجيّاً وبكلّ هدوء فلن تثير حساسيّة لدى الناس وستلحق في نهاية المطاف بالمجتمع ضرراً فادحاً. فعندما لا تُثار حفيظة الجماهير فإنّ أضراراً ـ لاسيّما الأضرار الثقافيّة ـ ستحيق بالمجتمع الأمر الذي سيؤدّي ـ شيئاً فشيئاً ـ إلى اضمحلال القيم، وضعف المعتقدات، وتضاؤل الرغبة بالنظام والإسلام والثورة وقادة النظام وزعمائه من دون أن يشعر أحد بأنّ أمراً جديداً يحصل في المجتمع. فهذه الظاهرة هي أسوأ بكثير من تعريض المجتمع لصدمة ليتنبّه أفراده إلى أنّه ثمّة أشخاص يشكّلون خطراً على البلد ويتربّصون به الدوائر. ففي مثل هذه الحالة سيتأهّب الشعب بسرعة أكبر ويعمل على إحباط ما يمكن أن يتبع ذلك من أخطار.

لخطاباتهم ومقالاتهم، فكانوا يؤكّدون على عدم وجود أيّ مؤامرة في القضيّة وأنّ الذي يقول بذلك فهو واهم. وقد كثر الحديث في هذا المجال حتّى باتت بعض المجلّات تكتب في كلّ أُسبوع وفي كلّ عدد مقالاً عن هذا الموضوع، وأنّ مسؤولي البلاد إنّما يبثّون هذه الأوهام بين الناس للمحافظة على كراسيهم. **فمجرّد اعتقاد الإنسان بأنّ هناك مؤامرةً هو بمثابة الخطوة الأُولى على طريق** دحر الفتنة والقضاء عليها. أمّا إذا لم يصدّق المرء بوجود المؤامرة فإنّه ـ بشكل طبيعيّ ـ لن يُبدي أيّ استعداد لإنجاز أيّ عمل تجاهها، وسوف يقول: هذا كلّه هُراء سياسيّ، فالسياسة ليس لها أب أو أُمّ.

إنّ إحدى نتائج فتنة عام ٢٠٠٩ هي أنّ أحداً لم يعد ينكر وجود الفتنة أو يحمل فكرة «توهّم المؤامرة». فكما كان لأمثال هذه الفتن أضرار جمّة، فقد انطوت على منافع كثيرة من جملتها بروز الكثير من الأُمور المستورة للعلن وإفشاء العديد من الأسرار وانكشاف الكثير من الأعداء. فلولا وقوع تلك الأحداث لم يكن أحد ليصدّق ذلك. فأنا شخصيّاً، وبعد ستّين عاماً من الدراسة الحوزويّة، ومع أنّني أتعاطى المسائل السياسيّة عن كثب منذ أربعين عاماً، لكنّني لم أستطع تصديق ما حصل أو التنبّؤ به، ولو أنّ أحداً كان قد أخبرني بذلك لسخرتُ منه. فلم أكن أصدّق أنّه يمكن أن يُقدِم أمثال هؤلاء على مثل هذا العمل؟!

إذن فمن جملة بركات الأحداث التي تلت انتخابات عام ٢٠٠٩ هو أن نعلم بأنّ هذه الأُمور ليست أوهاماً، بل هي حقائق يمكن حدوثها على أرض الواقع. يقول تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ﴾[1]؛ فاليهود

---

(١) **سورة البقرة**، الآية ١٢٠.

والنصارى لن يرضوا بأقلّ من ذلك ولن يكفّوا أيديهم عن هذا الأمر. ففي القرآن الكريم آيات صريحة حول هذا الموضوع لم يكن يتسنّى لنا قبل ثلاثين أو أربعين عاماً إثباتها إلّا بشقّ الأنفس من خلال بيان الشواهد والقرائن وتبيين أنّ الدول الاستعماريّة هي حقّاً من أعداء ديننا. فساستنا لم يكونوا يصدّقون ذلك وكانوا يقولون: «المستعمر هو عدوّ أموالنا وهو يسعى وراء نفطنا. فمن أجل أن نحفظ أنفسنا نعطيهم النفط ونقول لهم: لا تمسّوا أرواحنا بسوء». كان هؤلاء الساسة يتصوّرون بأنّه يمكن النجاة من براثن المستعمر بهذه الطريقة. كان من النادر أن يوجد مثل الإمام الراحل﷿ الذي أدرك أنّ عداء هؤلاء إنّما هو للإسلام. كان الإمام ينادي: «لقد تلقّى هؤلاء من الإسلام الصفعات، فعداؤهم ليس مع شخصي وشخصكم فحسب». لكن لم يكن الساسة يصدّقون هذا الكلام. حتّى أنا كنت أعتقد قبل سنوات عديدة بأنّه يمكن، عبر توقيع معاهدة سلميّة مع الدول الاستعماريّة، إعطاؤهم النفط مقابل أن يكفّوا أيديهم عنّا ويتركونا وشأننا كي نصون ديننا. بالطبع هذه الفكرة كانت نابعة من سطحيّة التفكير وقلّة التجربة. لكن حتّى في زماننا هذا فالذين يحملون مثل هذه الفكرة ليسوا قليلين. فهم يقولون: أمريكا إنّما تحاربنا من أجل النفط، اعطوها النفط كي تذهب لحالها ولا تسفك كلّ هذه الدماء! غافلين عن أنّه ما دام هناك إسلام فإنّهم لن يكفّوا عنّا. فمتى ما تخلّينا نحن عن إسلامنا، فإنّنا نمسي قد مهّدنا السبيل لكي ينفّذ فرعون مؤامراته.

فالقرآن الكريم يقول بخصوص نفس النبيّ ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾[1]؛ إنّهم

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٣.

يحاولون جهدهم أن يثنوك عن هذا الأمر لتكفّ عن مهمّة النبوّة. فإن أنت فعلت ذلك ونسبت لنا ما لا حقيقة له أو قبلت بالبدع فسيتّخذونك صديقاً حميماً لهم. إذن فمشكلتهم الأساسيّة هي الدين. فإذا انصرفتَ عن رسالتك فإنّهم لن يكفّوا عن عداوتك فحسب، بل سيتّخذونك خليلاً لهم أيضاً. والخلّة هي أقصى مراتب الصداقة والرفقة. فالآية تعني: إذا قدّمت التنازلات في قضيّة الدين فإنّ الذين يعادونك اليوم سيتّخذونك صديقاً حميماً لهم ولن يعادوك أبداً. هذا الكلام يخصّ النبيّ صلى الله عليه وآله، فهل يختلف الأمر معنا يا ترى؟!

فإنّ جانباً من الفتن يكمن في إيحاء المستكبرين لنا بأنّهم لا يحملون أيّ عداوة تجاهنا وفي ادّعائهم بأنّ العلماء والمعمّمين هم الذين يقفون حجر عثرة في طريق صداقتنا؛ إذ أنّهم يمارسون شكلاً من أشكال الدكتاتوريّة تسمّى «الدكتاتوريّة العلمائيّة». فلتذروا هؤلاء العلماء وشأنهم وهلمّوا إلى القبول بثقافتنا وحضارتنا وقيمنا وسنزوّدكم حينذاك بالصناعات والتقنيات الحديثة وكلّ شيء. ثمّ يؤكّد القرآن بعد ذلك بالقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[1]؛ فلو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مال إليهم قليلاً وتعاطى مع مقترحات الكفّار بإيجابيّة لابتلاه الله بعذاب في الدنيا والآخرة بحيث لا يجد مَن يغيثه منه ولا من ينصره في مقابل ربّه. هكذا هي المسؤوليّة الثقيلة التي يحملها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام وخلفاؤهم من بعدهم. فالتصدّي لمنصب الخلافة والإمامة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله ليس بالأمر الهيّن؟ وهل الخلافة ـ يا ترى ـ تقتصر على استلام شخصٍ

(١) **سورة الإسراء**، الآيتان ٧٤ و ٧٥.

لسهم الإمام وإعطاء الآخرين سهماً؟ فنفس المهامّ التي كانت على كاهل النبيّ والإمام المعصوم في زمانهم يتحتّم على الوليّ الفقيه في هذا الزمان القيام بها بمستوى شخصيّته وضمن نطاق قدرته؛ إذ يتعيّن عليه المحافظة على الدين وعلى قيمه والوقوف بوجه البدع.

إذن علينا بادئ ذي بدء أن ندرك أنّ هناك فتنةً في الأمر. ففي الفتن المعقّدة يظهر مثير الفتنة لك بمظهر الصديق ويمارس النفاق والدجل متّهماً الآخرين بممارسة الفتنة وموحياً لك بأنّه يريد خيرك. أمّا الخطوة التالية فهي تشخيص أصحاب الفتنة ومحاولة معرفة الأشخاص الذين يسعون لإشعالها، والدوافع التي تدفعهم لذلك، والأساليب التي يتّبعونها، والخطط المعَدّة لهذا الغرض. فالإمام الخمينيّ ـ الذي كان يمتاز بقدرة فائقة على تشخيص العدوّ وبصيرة نافذة ـ قالها منذ الأيّام الأُولى للثورة: الشيطان الأكبر هي أمريكا. وهذا الكلام لم يُصدَّق حتّى من قبل أصدقاء الثورة في ذلك الزمان. فاتّحاد الجمهوريّات السوفيتيّة، وهو القوّة الشيوعيّة الكبرى في العالم، كان لا يزال قائماً. والشيوعيّون أُناس ليس لهم دين، وهم ينكرون وجود الله وكلّ الأُمور المعنويّة. فالسذّج من الناس كانوا يقولون: أوَيمكن أن تكون أمريكا التي تؤمن على الأقلّ بجميع الأنبياء عدا النبيّ الخاتم أشدّ عداوة لنا من الاتّحاد السوفيتيّ الذي ينكر حتّى وجود الله تعالى؟! فإذا أردنا نعت عدوّ بصفة «الشيطان الأكبر» فلابدّ أن يكون هو الاتّحاد السوفيتيّ. أمّا الإمام الخمينيّ فقد قال، بما أُلهم من فراسة موهوبة من الله عزّ وجلّ: «الشيطان الأكبر هو أمريكا. فلتطلقوا كلّ ما تجود به حناجركم من صرخات بوجه أمريكا». ففي الوقت الذي كان عملاء الاتّحاد السوفيتيّ يشغلون مناصب في البلاد وكان الاتّحاد السوفيتيّ نفسه يرسم الخطط

ويحوك المؤامرات فيها انبرى الإمامﷺ بالقول: «أطلقوا كلّ ما تجود به حناجركم من صرخات بوجه أمريكا». ولعمري إنّها لَفراسة وهِبةٌ إلهيّة. فمعرفة العدوّ والعنصر الأساسيّ في إثارة الفتنة لهوَ أمر بالغ الأهميّة، فما لم يعرف المرء عدوّه فإنّه لا يستطيع اتّخاذ مواقف سليمة؛ لأنّه لا يعلم ماهيّة الشخص الذي سيواجهه.

إذن قبل الشروع باتّخاذ خطوات عمليّة علينا أن نشخّص العنصر الأساسيّ في إشعال الفتنة، ثمّ نتعرّف على الثغرات التي يمكن أن ينفذ منها، ونحدّد ما نعانيه من نقاط ضعف. ففي الحرب الثقافيّة ـ كما هو الحال في الحرب العسكريّة ـ لابدّ من تحديد ما لدينا على الحدود وفي الجبهات من ثغرات ونقاط ضعف للعمل على سدّ كلّ منفذ يمكن أن ينفذ ويتغلغل منه العدوّ. لكنّ الكشف عن خطط العدوّ وحيله في المجال الثقافيّ ليس بالأمر الهيّن. فهذه النشاطات تمثّل الأرضيّة والأساس من أجل انتخاب السلاح المناسب لمواجهة أسلحة العدوّ ثمّ التعامل بحساسيّة خاصّة تجاه المواطن الحسّاسة والعمل على حراستها بدقّة واتّخاذ الاستعدادات الدفاعيّة اللازمة.

الماضي مِشعل ينير درب المستقبل

البحث المرتبط بالشؤون التاريخيّة يُعدّ بحثاً تاريخيّاً من جهة تناوله لقضايا الماضي التي قد يتمّ أحياناً إخضاعها لتحليلات لإلقاء الضوء على أسرار وقوعها. أمّا المهمّ فهو أن يستلهم الإنسان من وقائع التاريخ العبرة والدرس للإفادة منها في المستقبل. فاحتمال أن تكون هذه الفتنة هي الأخيرة في العالم الإسلاميّ أو المجتمع قد لا يتجاوز الواحد بالمائة؛ إذ كما أسلفنا فإنّ الفتنة هي

من مصاديق الامتحان، والامتحان هو من السنن الإلهيّة الدائميّة التي لا تقبل التغيير والتبديل. فما دام الإنسان حيّاً فهو عرضة للامتحان، وطالما هناك مجتمع فلابدّ من وقوع الفتن الاجتماعيّة. مضافاً إلى ذلك فإنّ بوسعنا اتّخاذَ هذا المبحث كقاعدة ثابتة؛ وهو أنّه كلّما تعرّضت أُمّة لفتنة واجتازت امتحاناً معيّناً فلابدّ لها ـ في المرحلة التالية ـ من أن تجتاز امتحاناً أصعب. كما هو الحال في مراحل طلب العلم؛ فعندما يجتاز الطلّاب امتحان المرحلة الابتدائيّة يتعيّن عليهم التأهّب لخوض امتحانات مراحل أكثر تقدّماً، وإنّ كلّ امتحان قادم يكون أصعب من سابقه. وتأسيساً على ذلك يمكننا الحدس بأنّ الامتحانات القادمة ـ سواء التي سنخوضها نحن، أو التي ستخوضها سائر المجتمعات البشريّة، أو حتّى التي سيخوضها كلّ فرد من البشر ـ ستتّخذ منحىً صعوديّاً.

أمّا ما طرحناه الآن تحت يافطة الفتنة فهو يمثّل الامتحانات الاجتماعيّة التي تكون مقترنة بما سبق أن بيّناه من إبهامات ومخاوف. إذن فالمهمّ هو أن نستلهم من تحليل فتن الماضي الدروسَ والعبرَ للتفتيش عن حلول لفتن المستقبل. إذ أنّ لكلّ مجتمع، وانطلاقاً ممّا يعتمده من نظام فكريّ وقيميّ، يمكن تصوّر فتن خاصّة، ونحن ـ بشكل طبيعيّ، وانطلاقاً من الأُسس الفكريّة والقيميّة للإسلام ـ نفسّر الفتن تفسيراً خاصّاً ولابدّ من تشخيص واجباتنا وتكاليفنا تجاه مثل هذه الفتن وأن نسأل الله التوفيق للعمل بهذا التكليف وأداء هذا الواجب.

واجباتنا في الوقاية من فتن المستقبل ومواجهتها

ينبغي أن نضع مسائل عديدة في حساباتنا كي لا نُباغَت عند مواجهة فتنةٍ مّا ونكون على استعداد لمواجهتها عند وقوعها ولا نكون مثل أُولئك الأشخاص

أو الجماعات الذين فشلوا في الامتحان ووقعوا في حبائل الشيطان. فتارةً يسقط الأشخاص بمفردهم في أشراك الشيطان، وتارةً أُخرى يصبحون تلامذة لإبليس وعمّالاً له ومن شياطين الإنس. فما الذي ينبغي صنعه لتجنّب الوقوع في فخّ أصحاب الفتنة؟

لو أردنا تقديم لائحة بما ينبغي القيام به من تكاليف فقد يبلغ عددها المئات، لكنّه من أجل الحصول على صيغة معيّنة تساعدنا على معرفة تكليفنا فلابدّ من تقسيم تلك التكاليف والواجبات إلى ثلاث مجاميع تبعاً للفئات الاجتماعيّة: المجموعة الأُولى تشمل واجبات كلّ فرد من أفراد المجتمع الإسلاميّ وهي على العموم تقع على عاتق كلّ فرد مسلم. والمجموعة الثانية هي التكاليف المتّصلة بخواصّ المجتمع ونخبه؛ وهي فئة ليست بالكبيرة من حيث العدد بيد أنّ تأثيرها على باقي أفراد المجتمع كبير؛ فقد يتّسع نطاق تأثير الفرد منهم إلى الآلاف بل وحتّى إلى الملايين من الأشخاص. من هذا المنطلق فإنّه تقع على كاهل النخب والخواصّ واجبات أعقد وأصعب من عامّة الناس؛ فمضافاً إلى الواجبات التي يتعهّد بها الجميع تقع على عاتق هؤلاء تكاليف أشقّ ويتعرّضون إلى امتحانات أشدّ نظراً لمكانتهم الاجتماعيّة وقدرتهم على التأثير في الأُمّة؛ أي علاوة على كون مقامهم أرفع، فإنّ امتحانهم يكون أعقد وأصعب أيضاً. أمّا المجموعة الثالثة فهي المهامّ والواجبات التي يضطلع بها المسؤولون الرسميّون للبلاد في كلّ من السلطات التشريعيّة والقضائيّة والتنفيذيّة. فالمهمّات الملقاة على عاتق أمثال هؤلاء، من حيث إنّهم يشغلون مناصب ومسؤوليّات رسميّة، هي أثقل من الجميع لأنّ مسؤوليّة المجتمع بأكمله تقع على كاهلهم. وهذا الكلام ـ بالطبع ـ لا يعني إخلاء كاهل الآخرين من أيّ تكليف أو مسؤوليّة، لكنّ

الواجب الذي ينهض به هؤلاء هو ـ بشكل طبيعيّ ـ أثقل وأصعب من باقي أفراد الشعب، وكما يقول الشاعر: «على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ». فكلّ مَن كان وعاؤه أوسع وقدرته الفكريّة والعمليّة أكبر كان واجبه أخطر.

إذن فإنّ لدينا ثلاثَ مجاميع ويتعيّن على كلّ مجموعة منها أن تنهض بما عليها من تكاليف في مواجهة الفتن. لكنّ البعض ـ وكما بيّنا مسبقاً في الفصل الثاني من الكتاب، وانطلاقاً من الأحاديث التي تتنبّأ بوقوع الفتن والاختبارات العسيرة في آخر الزمان ـ يعتبر هذه الفتن قضاءً إلهيّاً حتميّاً مستنداً بذلك إلى إخبار أهل البيت عليهم السلام عنها وأنّه لا مفرّ منها. فأمثال هؤلاء يتّخذون من هذا الموضوع ـ بشكل أو بآخر ـ ذريعة للركون إلى التقاعس واتّخاذ جانب الاستسلام في مقابل الفتن.

فالذي يتصوّر أنّه ليس على عاتقه واجب تجاه الفتنة فهو كالطالب الذي يعتقد أنّه ليس في ذمّته قبل الامتحان أيّ واجب دراسيّ وينبغي أن لا يعير للأمر أيّ أهمّية وأنّ عليه في قاعة الامتحان أن يحتفظ بورقة الامتحان حتّى النهاية ويسلّمها بيضاء! فمن الواضح أنّ شخصاً كهذا لا يحصل على أيّ نتيجة. وعلى العكس، فلو كان شعور الطالب بالمسؤوليّة قبل الامتحان أكبر واستغلّ وقته جيّداً فسيكون احتمال نجاحه وبلوغه الهدف المنشود أكبر بكثير من غيره. وكمجرّد مثال على الفتن التي تؤدّي إلى الأضرار الدنيويّة والابتلاءات المادّية، فلو علم امرؤ أنّ سارقاً قد دخل بيته أو تسوّر جداره أو أنّ العدوّ قد تقدّم حتّى تخوم المدينة ثمّ قال: إنّ السارق قد دخل البيت أو إنّ العدوّ قادم لكن ليس أمامنا من خيار غير الاستسلام له، فإنّ قوله هذا ينمّ عن جهل عميق؛ فإنّ تبرير تقاعسه وتخاذله بهذا المنطق مرفوض عقلاً وشرعاً. إذ أنّ ما يستفاد من روايات

أهل البيت عليهم السلام وما يدركه العقل إلى حدّ بعيد هو أنّ الإنسان في خضمّ الفتن لا يكون عديم المسؤوليّة. ليس هذا فحسب بل إنّ مسؤوليّته عندئذ تتضاعف. إذن فإنّ في أعناقنا في مقابل الفتن ثلاثة أنواع من التكاليف قد يكون لكلّ نوع منها مصاديق وأصناف متعدّدة:

١. التكليف الفرديّ للمؤمنين تجاه الفتنة

النوع الأوّل هو التكليف الفرديّ؛ أي ما يتعيّن على كلّ فرد من واجب تجاه ما يظهر في المجتمع من فتن. إذ لابدّ لكلّ فتنة من لوازم وآثار وتبعات. وحتّى الأحاديث فقد وردت فيها تحذيرات جمّة بخصوص ما سيحصل في الفتن وأنّ على الناس أن يتّخذوا جانب الحيطة والحذر. وهذا التكليف ينقسم إلى عدّة أقسام:

القسم الأوّل: صيانة الدين والقيم

فالتكليف الأوّل ضمن قسم التكاليف الفرديّة هو العمل على صيانة ديننا ومصالحنا من أن تمتدّ إليها أيادي السُرّاق وأهل الفتنة وذلك للمحافظة على عقائدنا وقيمنا وما قدّمت الثورة من منجزات[1]. ولو استعرضنا بعض خطب **نهج البلاغة** لاتّضح لنا أهمّية ما على الإنسان من واجب تجاه الفتن، بل وحتّى تكليفه في مقابل نفسه. فقد جاء في إحدى الخطب المعروفة ما نصّه: «**لَتُبَلْبَلُنَّ بلبلةً ولَتُغَرْبَلُنَّ غربلةً ولَتُساطُنَّ سَوطَةَ القِدر حتّى يعود أسفلُكم أعلاكم وأعلاكم أسفلَكم**»[2]؛ أي ستحلّ بكم الاضطرابات والبلبلة وتغربلُنّ حتماً حتّى

---

(١) يقصد الثورة الإسلاميّة في إيران.

(٢) **الكافي**، ج٨، ص٦٧؛ وقد ورد في **نهج البلاغة**، الخطبة ١٦ بتعبير: «**ولَتُساطُنَّ سَوطَ القِدر**».

يمتاز الطيّب من الخبيث، فيكون مَثَلكم كمَثَل الحبوب التي توضع في قدر على النار حتّى إذا غلى ماء القدر صار أعلى الحبوب أسفلها وأسفلها أعلاها. فكم من مسؤول يحتلّ منصباً حسّاساً ويتمتّع بمكانة مرموقة ويُكنّ له الناس احتراماً بالغاً لكن ما أن تحلّ الفتنة حتّى يهوي ويسقط. وفي المقابل فهناك من الناس مَن لا يؤَمَّل منه شيء وليس هو محطّ اهتمام أحد فإذا به يصعد فجأة أثناء الفتنة. فإنّ صمود الأشخاص في مواقعهم يعتمد على مقدار ثباتهم ومقاومتهم وإدراكهم لما ينبغي صنعه في مثل هذه الظروف وكيف يمكن المحافظة على الدين.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة أُخرى: «**سيأتي عليكم زمان يُكفأ فيه الإسلام كما يُكفأ الإناء بما فيه**»[1]؛ أي ستمرّ عليكم فتن يُراق فيها كلّ ما في الإسلام كما يراق ما في الإناء إذا قُلِب. فيصبح الإسلام كالوعاء المقلوب حيث لا يبقى من حقيقة الإسلام أو من محتواه شيء. فإذا علم المرء أنّ أحداثاً كهذه ستقع فهل سيجلس بهدوء وينام مرتاح البال؟! أم عليه أن يتوخّى الحذر من الآن؟ يقول الإمام عليّ عليه السلام في هذا الصدد أيضاً: «**لُبِس الإسلام لُبسَ الفَروِ مقلوباً**»[2]. فالإسلام هو بمثابة الغطاء والملابس للإنسان يحفظه من الأخطار والبلايا لكن سيأتي زمان عليكم يلبس البعض الإسلامَ كما يلبس الفروة بالمقلوب، فيصبح ظاهره باطنه وباطنه ظاهره. فأمثال هذه الأُمور وكثير غيرها هي من آثار الفتن. فأمير المؤمنين عليه السلام ينذر الناس بقوله: «**فلا تكونوا أنصاب الفتن وأعلام البِدَع**»[3]؛ أي لا تكونوا للفتن يافطات وللبدع علامات. فالفتن

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٠٣.

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٠٨.

(٣) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٥١.

ستأتي لا محالة لكن عليكم أن تحذروا لئلّا تكونوا يافطات تدلّ عليها وتصبحوا من العناصرالتي تضع البدع وتشيعها. وهذه الأحاديث تبيّن تكاليفنا الفرديّة أثناء الفتن.

ونحن نعلم أنّ خشيتنا وقلقنا من الفتنة لا ينبع ممّا ينجم عنها من مشاكل مادّية وخسائر في الأموال والأنفس وأمثال ذلك فحسب. فما يقلقنا ويثير مخاوفنا أكثر هو زوال الدين والمعتقدات والقيم. فالفتن التي يذكرها القرآن الكريم وتشير إليها الأحاديث الشريفة وتتناولها كلمات عظمائنا وعلمائنا هي تلك التي تستهدف دين ابن آدم وعاقبته وتتّصل بسعادته وشقائه وآخرته. فإنْ كنّا نخشى على ديننا من الخطر فلابدّ أن نرى من أين يمكن أن يُلحَق الضرر بالدين. فإنّ أهمّ جانب من الدين يكون عرضة للمخاطر هو المعتقدات والقيم أو الثقافة الدينيّة؛ وهي ما نعتقد به من معتقدات وما تعلّقت به قلوبنا من قيم؛ وبتعبير آخر: أن نلتفت إلى الأُسس وما يتّخذ طابعاً بنيويّاً ممّا هو موجود وما ينبغي أن يوجد من الأُمور. ومن أجل أن نكون قادرين على صون ديننا علينا أن نعزّز معرفتنا بتلك العقائد والقيم، وأن نبذل ما بوسعنا لجعل معتقداتنا وقيمنا الدينيّة على أعلى درجة من الاستحكام والاستدلال واليقين. فقد جاء في بعض الأدعية ممّا يسأل العبد مولاه: «**وأن تهبَ لي يقيناً تُباشر به قلبي وإيماناً يَذهبُ بالشكّ عنّي**»[1]. فإنّ أوّل صفعة يتلقّاها دين المرء هي ضعف ما يؤمن به من معتقدات وقيم. ومن هذا المنطلق فمن أجل أن لا يواجه المرء خطراً كهذا أو أن يتمكّن من الثبات والمقاومة عند مواجهته فإنّ عليه تقوية إيمانه. بالطبع فإنّ

(١) **الكافي**، ج٤، ص١٦٠.

التكليف يختلف من شخص لآخر، وإنّ مرتكزات العقل والمعرفة والإمكانيّات بالنسبة للعلوم والمعارف المتنوّعة لا يشبه بعضها البعض الآخر أيضاً. لكن على كلّ امرئ أن يحمل همّ المحافظة على معتقداته الدينيّة، ومعرفة القيم الإسلاميّة على نحو صحيح، وأن لا ينخدع في هذا المجال. إذن فإنّ تقوية الإيمان ورفع مستوى المعرفة واليقين بالمعتقدات والقيم هو واجب الجميع.

القسم الثاني: تيقُّظ المرء وتجنّب استغلاله من قبل أهل الفتنة

القسم الثاني من التكاليف الفرديّة هو الحذر من أن نكون أداةً في يد أهل الفتنة. فلا تقتصر الفتنة على أن يفعل المرء لنفسه شيئاً أو لا يفعل، أو أن يؤَمِّن لنفسه مصلحة أو يفرّط بها. فإنّ من جملة تبعات الفتنة هي أن يصبح الشخص أداةً بيد مثيريها. فقد يستغلّ الأخيرون أحداً من دون أن يشعر ومن دون أن يريد هو ذلك أصلاً. يقول مولانا أمير المؤمنينعليه السلام في هذا الجانب: «**كُن في الفتنة كابن اللَّبون؛ لا ظهرٌ فيُركَب ولا ضَرعٌ فيُحلَب**»[1]؛ أي كن في زمان الفتنة كالبعير الذي لا يبلغ من العمر أكثر من سنتين؛ إذ ليس له ظهر ليُمتطى، ولا ضرع ليُحلَب منه اللبن. وقد أشار قائد الثورة المعظّم (مُدّ ظلّه) في أحد الاجتماعات إلى أنّ البعض يحاول إساءة استغلال هذا القول بقوله: «إنّ مراد أمير المؤمنينعليه السلام من كلامه هذا هو أن تجلس في الفتنة جانباً ولا تتدخّل في أيّ شيء. وهذا تفسير خاطئ. فهوعليه السلام لا يقول: إجلس جانباً والتزم الصمت؛ بل يقول: كن حذراً ولا تسمح للآخرين بركوبك أو استغلالك».

(١) **نهج البلاغة**، الحكمة ١.

فمن الأُمور الشائعة جدّاً في الفتنة هي أن يصبح بعض الناس ـ من دون وعي أو إرادة منهم ومن غير ما تخطيط أو برمجة مسبقة ـ أداةً بيد الآخرين فيستغلّون بذلك أقوالهم وأفعالهم وقيامهم وقعودهم وحتّى سكوتهم. فسكوتك حيث يتعيّن الكلام هو بمثابة السماح لأصحاب الفتنة بركوبك وهو ما سيصبّ في مصلحتهم. كما وقد يكون للمرء مال أو منزلة اجتماعيّة فيستغلّ مثيرو الفتنة ماله أو منزلته أو كرامته، فيكون كالضرع الحلوب الذي يحلبونه من دون رضا صاحبه.

القسم الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المسألة الثانية هي أنّه لّما كانت الفتنة ظاهرة اجتماعيّة وأنّها لا تقتصر على الامتحانات الفرديّة فلابدّ إذن من الخشية على الآخرين أيضاً. فليست القضيّة أنّه إذا حفظ المرء دينه فلا يكون مكلّفاً بتكليف آخر. فالجميع ـ وفق الرؤية الإسلاميّة ـ مسؤولون وإنّ الرقابة العامّة هي من مسؤوليّة أفراد الشعب قاطبة.

وقد ورد ذكر هذا الواجب في القرآن الكريم بتعابير مختلفة. فقد جاء في سورة «العصر»: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[1]. فالآية لا تقول: إنّ أهل السعادة هم ذاتهم أهل الحقّ والصبر، بل تقول: هم الذين يوصي بعضهم بعضاً بمراعاة الحقّ وبالصبر والثبات. فالآية تذكر الإيمان في البداية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو أساس كلّ شيء، وقد سبق أن بيّنا أهمّيته. ثمّ تُتبعه بتعبير: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذي يشير إلى التكاليف الفرديّة. بيد أنّ في رقبتنا مسؤوليّةً تجاه الآخرين أيضاً وهو ما أشارت إليه عبارة: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾. وإنّ أعظم رمز

(١) سورة العصر، الآية ٣.

لهذه المسؤوليّة هي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[1].

وقد جاء في الخبر أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أعظم الفرائض: «**إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض**»[2]. وبناءً على القاعدة الأدبيّة فإنّ إطلاق هذه الجملة يقتضي أن يكون الأمر بالمعروف أهمّ حتّى من الصلاة. ثمّ تستدلّ نفس الرواية بعد ذلك بأنّ سموّ الأمر بالمعروف على باقي الفرائض في العظمة يأتي من باب أنّ ترك هذه الفريضة ضمن إطار المجتمع يؤدّي إلى ترك سائر الفرائض أيضاً. إذن فإنّ بقاء سائر الفرائض يعتمد على هذه الفريضة. وهذه هي ذات المسؤوليّة الاجتماعيّة وأحد التكاليف الصعبة في زماننا والتي ينبغي الوقوف على شروطها ومراتبها بشكل دقيق.

ولعلّ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم تكن في أيّ زمان أصعب ممّا هي عليه في زماننا المعاصر؛ ذلك أنّه ثمّة ثقافة إلحاديّة وشيطانيّة عامّة قد تفشّت في كلّ أنحاء العالم مفادها أنّ كلّ امرئ هو حرّ، وليس لأيّ أحد آخر الحقّ في التدخّل في حياته وشؤونه. ومن هذا المنطلق فإن قيل لأحدهم: افعل هذا ولا تفعل ذاك، فإنّه، عوضاً عن الاستجابة لذلك، يقابل الآمر بالمعروف بأُسلوب فظّ ويتّهمه بالتطفّل على أُموره الشخصيّة! فعلى الرغم من أنّ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي أكبر خدمة يمكن تقديمها للمجتمع، فإنّ أمثال هؤلاء يعدّونها بمثابة التدخّل في شؤون الآخرين.

---

(١) **سورة التوبة**، الآية ٧١.

(٢) **الكافي**، ج٥، ص٥٥ ـ ٥٦.

وقد تُركت هذه الفريضة وهُجرت إلى درجة وقوع بعض علمائنا في إشكالات في شأنها. فقد ذهبوا إلى الاعتقاد بأنّه لا ينبغي العمل بالأمر بالمعروف إلّا في ظروف خاصّة؛ ذلك أنّ لفظة: «المعروف» تعني كون الشيء معروفاً، وما لم يكن الشيء معروفاً فلا يجب الأمر به. لكنّنا نعتقد، وفقاً لثقافتنا الشيعيّة، أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد قُتل جرّاء الأمر بالمعروف. كما نعتقد، انطلاقاً من نفس الثقافة، أنّه ينبغي العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتّى وإن كلّفنا ذلك حياتنا. أمّا الثقافة العالميّة المعاصرة فتقول: هذا العمل هو تدخّل في شؤون الآخرين وهو قبيح وغير مؤدّب للغاية. وهذه الثقافة الإلحاديّة هي مستوردة من الغرب وقد عمّت أمواجها جميع البلدان بما فيها بلدنا إلى حدّ ما وهم يحاولون تربية مجتمعنا على هذا الأساس بحيث ننظر إلى الأُمور بمنظارهم.

إذن فالتكليف الثاني هو إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمسؤوليّة عامّة وشكل من أشكال الرقابة العامّة على سلوكيّات الآخرين وشؤونهم. ومن هنا لابدّ من الالتفات إلى مسؤوليّاتنا تجاه الآخرين واجتناب الكلام الفارغ والشعار المبتذل الذي يقول «عيسى مسؤول عن دينه وموسى مسؤول عن دينه»؛ ذلك أنّ الإسلام يحثّنا على الالتفات إلى شؤون غيرنا من المسلمين ـ بالطبع مع مراعاة ما يلزم من الآداب والشروط ـ والعمل بتكليفنا وواجبنا تجاههم.

ومن هنا فإنّه لابدّ من موعظة الآخرين مع احتمال التأثير فيهم، مهما قلّ هذا التأثير. فالقرآن الكريم يقول في أصحاب السبت: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٦٤.

فقد انقسم الناس آنذاك في مقابل الذين لم يمتثلوا الأوامر واصطادوا السمك إلى فئتين: فئة لم تعترض عليهم على الإطلاق، أمّا الفئة الثانية فقد وعظتهم ونهتهم عن المنكر. فعندما نزل العذاب نجى الواعظون والناهون عن المنكر منهم، أمّا الآخرون الذين التزموا جانب الصمت فقد حاق بهم العذاب مع العاصين الذين مارسوا الصيد. فما كان جواب الفئة الناجية على اعتراض الفئة الساكتة إلّا أن قالوا: أوّلاً: لقد قمنا بهذا العمل كي يكون لنا عذر أمام الله عزّ وجلّ، وهو ما نسمّيه إتمام الحجّة، وثانياً: كان يحدونا أمل في أن يتّعظ هؤلاء بموعظتنا. فقولهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يشير إلى أنّه كان لديهم أمل ـ ولو ضعيف ـ في تأثير موعظتهم على الآخرين. أمّا إذا تيقّن امرؤ من أنّ كلامه أو تحرّكه لن يكون له أيّ تأثير على الطرف المقابل، فإنّ موعظته ونصيحته ستكون عبثاً ولغواً؛ ذلك أنّها ستكون مدعاةً لهدر الطاقات وعدم ادّخارها لما هو أهمّ من الأعمال. أمّا إذا لم تتمّ الحجّة أو كان لدينا رجاءٌ ولو ضعيف في تأثير أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فنحن مكلّفون بالقيام بهذه الفريضة. لكن حتّى في هذه الحالة فإنّه إذا تزاحمت عدّة تكاليف في آنٍ واحد فلابدّ حينئذ من مراعاة الأولويّة. ولهذا يتعيّن علينا العمل على تشخيص التكليف الأهمّ والأولى.

القسم الرابع: معرفة القائد في النظام الإسلاميّ واتّباعه

القضيّة الثالثة هي أنّه لابدّ للناس ضمن نطاق حياتهم الاجتماعيّة من الاختلاف فيما بينهم، شاءوا أم أبوا. فحتّى لو كان الجميع مؤمنين وملتزمين بواجباتهم الدينيّة، ويوصون غيرهم بالخير، ويتواصون بالحقّ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإنّه لابدّ أن تطفو على السطح خلافات في بعض

القضايا ممّا يستوجب وجود محور واحد لرفع هذه الخلافات وإزالتها كي يلمّ شمل الجميع ويتوحّدوا عبر التفافهم حول هذا المحور، ويأمنوا الخلاف والفُرقة. ويُعرف هذا المحور في الإسلام باسم «الإمامة»: «... **وطاعتَنا نظاماً للملّة، وإمامتَنا أماناً من الفُرقة**»[1].

ووفقاً لعقيدة التشيّع فإنّ هذا المحور يتجسّد في زمان غيبة الإمام المعصوم عليه السلام بالوليّ الفقيه، إذ أنّه يمثّل محور الوحدة وعلى جميع أفراد الأُمّة بذل كلّ ما بوسعهم في سبيل الحفاظ عليه. فإن لم تتمّ المحافظة على هذا المحور فسيدبّ الاختلاف وتتفشّى حالة التشرذم في الأُمّة قطعاً وهو الأمر الذي سيُفقدها وحدتها وعزّتها ومنَعَتها وسعادتها.

وهذه هي التكاليف الملقاة على عاتق عامّة الناس.

٢. واجب النُّخَب

كما أنّه على الخواصّ نفس الواجبات وإن اتّخذت شكلاً آخر. ومع أنّ تكاليف النخب تشبه تلك التي على عامّة أفراد الأُمّة، بيد أنّ على الخواصّ ـ وانطلاقاً ممّا يحملون من خصوصيّات وما يتمتّعون به من مكانة اجتماعيّة، وأنّ الله قد أسبغ عليهم نعماً أكثر، وأنّ لهم أثراً في المجتمع ـ أن يقوموا بتلك الواجبات بشكل أوسع وأن تكون خطواتهم مدروسة أكثر من غيرهم. ونذكر هنا بعض واجبات النخب:

الأوّل: تقوية الثقافة الدينيّة

لا يقتصر الأمر في قضيّة معرفة الحقّ على أن لا يساور نفس الإنسان الشكّ

(١) **بحار الأنوار**، ج٢٩، ص٢٢٣.

فيه، بل إنّ على نخب المجتمع وخواصّه أن يتعاملوا مع مسألة الثقافة الدينيّة للمجتمع (أي مجموعة العقائد والقيم)[١] بمزيد من الحساسيّة، وأن لا يقتصر عملهم على حفظ ثقافتهم وتنميتها، بل عليهم أن يعملوا جاهدين من أجل تمهيد الأرضيّة لتنمية الثقافة الدينيّة لأفراد الأُمّة. ولا نقصد من النخب والخواصّ هنا المسؤولين الرسميّين للبلاد أو الذين يشغلون مناصب في المؤسّسات الحكوميّة والوزارات، بل نريد منهم الخواصّ في كلّ شريحة من الأُمّة؛ كأساتذة الجامعات، وعلماء الحوزة العلميّة، والثقات لدى الناس في المدن والمحافظات المختلفة وهم أصحاب التأثير والكلمة المسموعة في مجتمعاتهم؛ وبعبارة أُخرى: فإنّ الخواصّ ـ في الحقيقة ـ هم الطبقة الممتازة من المجتمع، والذين يتمتّعون بنصيب أكبر وأفضل من العلم والفهم والمكانة الاجتماعيّة ولهم قابليّة التأثير في الأُمّة. فعلى هؤلاء بدايةً أن يبذلوا قصارى جهدهم في تعزيز الثقافة الدينيّة في المجتمع. إذن فالمقصود هنا هو الارتقاء بالمستوى الثقافيّ بواسطة النخبة من فئات المجتمع وأفراده بقطع النظر عن الواجبات الحكوميّة والرسميّة.

---

(١) كما أشار قائد الثورة المعظّم الإمام الخامنئيّ (حفظه الله) فإنّ المراد من الثقافة هو المعتقدات والقيم وليس الموسيقى والمسرح وأمثال ذلك. فإن أُطلق على الأخيرة أنّها أعمالٌ ثقافيّة فلا بأس في ذلك إذا اشتملت على أُمور محلّلة، لكن ليس هذا موضوع بحثنا. فإنّ ما يهمّنا نحن هنا هو المعتقدات والقيم؛ فهي أكثر أهمّية من غيرها. فقد يُقال: لقد رُصِدت الميزانيّات الكذائيّة للأعمال الثقافيّة، أو يقال: إنّ توجّهاتنا ثقافيّة. أمّا من الناحية العمليّة فلا يكون للثقافة معنىً غير نشر الموسيقى والرياضة والمسرح وبعض الفنون الجميلة الأُخرى. لكن هل إنّ إيمان الناس ومعتقداتهم سليمة؟ ليس ذلك مهمّاً.. هل لا زالت القيم الإسلاميّة والعفّة شائعة في المجتمع؟ ليس ذلك بالأمر المهمّ. فإنْ أُعطي لكلّ من الموسيقى واللغة الفارسيّة والأدب والشعر حقّه، في عقيدة أمثال هؤلاء، فالثقافة إذن مصانة! أمّا نحن فعندما نتحدّث عن: «الثقافة» فإنّنا نقصد المعتقدات والقيم.

الثاني: أن يكونوا أُسوة للآخرين

بسبب امتلاك النخب القدرةَ على التأثير في الآخرين فإنّهم يكونون أُسوة لهم؛ بمعنى أنّه انطلاقاً ممّا يتمتّعون به من امتيازات خاصّة في المجتمع فينبغي أن لا يقتصروا في نشاطاتهم على إشاعة الثقافة، ونشر العلم، وتأليف الكتب، وإقامة البحوث والمحاضرات والمناظرات والمناقشات العلميّة، بل إنّ سلوكيّاتهم وتصرّفاتهم ستكون أُنموذجاً وقدوة في المجتمع. وأفضل مثال على ذلك هم علماء الدين. فما هو واجب عالم الدين يا ترى؟ فمضافاً إلى سعيه في سبيل رفع مستوى المعلومات الدينيّة لدى الناس وجعلهم أكثر تفقُّهاً في دينهم، لابدّ أن تكون تصرّفاته ويكون سلوكه بالشكل الذي يكون محطّ تأسّي الآخرين واقتدائهم؛ كما جاء في الخبر عنهم عليهم السلام: «**كونوا دُعاةً للناس بغير ألسنتكم**»[1]. فإنّ أهمّ ما ينبغي أن نمتاز به ـ نحن علماء الدين ـ هو التقوى، وإنّ أهمّ ميزة في التقوى هي الزهد وبساطة العيش وعدم الاهتمام بالشؤون الدنيويّة، والتقوى العمليّة، وصدق الحديث، والإخلاص.

فلو راعى نخب المجتمع والخواصّ منهم هذه الأُمور فسيزداد تقبّل مختلف شرائح الناس للموعظة منهم، وستزيد ثقتهم بهم، وسيكونون أكثر قدرة على إرشاد الناس وهدايتهم إلى سواء السبيل. فإن اقترحوا على الناس شيئاً أقبل الأخيرون عليه بمجامع قلوبهم. أمّا إذا لاحظ الناس عليهم الاهتمام بحياتهم الخاصّة والانشغال بالدنيا، مع فارق اختلاف الأُسلوب في العمل (فالعامل مثلاً مضطرّ إلى التصبّب عرقاً أثناء العمل في مصنعه أو مزرعته بينما ينعمون هم

---

(١) **الكافي**، ج٢، ص٧٨.

بالدعة ورفاهية العيش في بيوت فارهة فخمة) فحينئذ لا يعير الناس للعلماء أهميّة. فمهما نادى العلماء بالناس: إنّكم تضلّون الطريق، فسبيل الحقّ هو من هذا الاتّجاه، فسيقول الناس لهم: اذهبوا وأصلحوا أنفسكم أوّلاً.

وبناءً عليه فإنّ مسؤوليّة النخب والخواصّ هي أخطر بكثير؛ ذلك أنّ عليهم أن يطبّقوا القيم الاجتماعيّة في حياتهم اليوميّة بشكل عمليّ. وهذا هو الواجب الثاني للنخب.

الثالث: السعي لإشاعة الوحدة وصيانتها

أمّا الواجب الثالث للخواصّ فهو السعي للحفاظ على وحدة الأُمّة حول محور الحقّ الذي يوصي به الدين. فالأُمّة بحاجة إلى الانسجام وإنّ الفُرقة والتشتّت من شأنهما أن يذهبا بها إلى الزوال والفناء. وإنّ لأفراد الأُمّة عامّة ـ بشكل أو بآخر ـ دوراً في هذا المجال يتمثّل في أن لا يتّبعوا كلّ صيحة تصدر من هنا وهناك وأن يجتنبوا الفُرقة ما أمكن. أمّا النخب فقد يشكّلون عاملاً من عوامل الاختلاف من خلال الدعوة إلى أنفسهم أو تشجيع التكتّل والتحزّب. ومن هذا المنطلق فإنّ على الخواصّ أن يفكّروا سويّة ويبذلوا قصارى جهدهم من أجل التوحّد من خلال المشورة والشفقة وحبّ الخير للطرف المقابل، أمّا إذا رأوا أنّ المقابل مخدوع وقد أصبح عميلاً للأجنبيّ وعنصراً من عناصر الطابور الخامس، فلابدّ حينئذ من مقاطعته؛ ذلك أنّه لن يعود لحفظ الوحدة في مثل هذه المواطن معنىً. وقد أسلفنا أنّ الله عزّ وجلّ يقول لنبيّه الكريم ﷺ بخصوص أمثال هؤلاء: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[1]! فلابدّ من

---

(١) سورة التوبة، الآية ٨٤.

طرد هؤلاء من المجتمع بشكل كلّي كي لا يستغلّوا منزلتهم الاجتماعيّة ولا يصبحوا منشأً للفساد والفتنة.

هذا فيما يتّصل بهذا الصنف. أمّا فيما يتعلّق بالآخرين فيتعيّن غضّ الطرف عن أخطائهم والعمل على تصحيحها كي لا يصبحوا ـ فيما بعد ـ سبباً من أسباب الفُرقة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(١). وقدعُدّكلّ من «القرآن» و«النبيّ»ﷺ في الأحاديث الشريفة «حبلَ الله». فما دام النبيّﷺ موجوداً بين ظهراني الناس فقد كان مصداقاً لحبل الله تعالى؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢). إذن لابدّ ـ بناءً على ذلك ـ من طاعة الرسولﷺ. وحبل الله بعد الرسولﷺ هو الإمام المعصومعليه السلام الذي عيّنه الله سبحانه وتعالى. أمّا بعد الإمام المعصومعليه السلام فتجب طاعة الشخص الذي يُعدّ انعكاساً لنور الإمامة في العالم وظلاًّ للإمام الغائب في الأُمّة، والعمل على تقوية هذا المحور، وحثّ كلّ أفراد الأُمّة على الاجتماع حوله. فإن اجتمع الناس حول نائب الإمام صار اتّحادهم ممكناً؛ أمّا إذا تفرّقوا من حوله وغيّروا وجهتهم وسلكوا طريقاً أُخرى فلابدّ من أن يُطردوا. بالطبع لابدّ من دعوتهم وإسداء النصيحة لهم؛ لكنّنا إذا يئسنا من تغيير وجهتهم ومسيرتهم، فلا مناص حينئذ من تركهم وطردهم. فكلّنا مسلمون وطلّاب حقّ ومن أتْباع الإمام الراحلقدس سره، وإنّ باستطاعة الذين يشتركون في هذه الأُمور أن يتّحدوا فيما بينهم. وقد يكون لنا بعض أشكال التعاون مع الذين لا تنطبق عليهم هذه الصفات وأن لا نجابههم بالعداوة والبغضاء؛ اللهمّ إلّا إذا حاولوا التعرّض لما نؤمن به من أُصول ومبادئ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٢.

٣. واجبات الحكومة الإسلاميّة تجاه الفتنة

الأوّل: تقوية معرفة الناس وإيمانهم

نفس الواجبات والتكاليف التي سبق أن ذكرناها بالنسبة للنخب والخواصّ تقع بشكل أخصّ على عاتق مسؤولي الدولة الإسلاميّة. فقد كان الواجب الأوّل هو تقوية المعرفة والإيمان. إذ يتعيّن على الدولة ـ بمعنى الجهاز الحاكم الذي يتفرّع إلى سلطات متنوّعة ويتصدّى عمّاله للمسؤوليّات الرسميّة في البلاد ـ أن تفيد من سلطاتها القانونيّة باتّجاه صيانة الأُسس الفكريّة والقيميّة للإسلام وإعطاء الأولويّة لمؤسّساتها الرسميّة التي تعمل في هذا المجال.

وللأسف فإنّه، بسبب التراث السقيم الذي ورثناه من النظام الطاغوتيّ السابق، فإنّنا نتصوّر أنّه ليس على الحكومة واجب بخصوص الدين، وأنّ مسؤوليّة الحفاظ على دين الرعيّة تقع على عاتق علماء الدين وليس للجهاز الحكوميّ أيّ دخل في هذا المجال! وهي فكرة مستقاة من النظريّة العلمانيّة وفصل الدين عن السياسة. لكنّ من أهمّ واجبات الحكومة، وفقاً للرؤية الإسلاميّة، هي الحفاظ على دين الرعيّة، وهو ليس من الواجبات التي تأتي بالدرجة الثانية أو الثالثة. فكما أنّ حفظ أرواح الناس يقع على عاتق الدولة الإسلاميّة فإنّ حفظ دينهم هو من واجبها أيضاً. وكما أنّ دين المرء مقدّم على روحه وأنّ عليه أن يفدي نفسه في سبيل دينه، فإنّه ينبغي أن يكون للنشاطات والبرامج الحكوميّة اهتمام أكبر بالقضايا الدينيّة والثقافة الإسلاميّة. فالذين ينادون بشعار: «سياستنا هي عين ديننا» لا يمكنهم أن يجعلوا الدفاع عن الدين وصيانته حكراً على علماء الدين والمتطوّعين المقدّسين والمتديّنين. فإنّ من أخطر

واجبات الحكومة الإسلاميّة هو بذل الجهود في هذا المجال؛ وإنّ من جملة هذه الواجبات، فيما يتعلّق بالحفاظ على دين الرعيّة، هو السعي لصيانة القيم الحقيقيّة في المجتمع الإسلاميّ وترسيخها، والتصدّي للخارجين عن القانون والمتجاوزين على النظام من الذين لا يكفّون عن أعمالهم القبيحة وذلك من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمرتبته اللسانيّة.

الثاني: سدّ الطريق أمام نفوذ الغرباء إلى أجهزة الدولة

إنّ أهمّ تكليف يقع على عاتق الحكومة في مقارعة الفتنة هو سدّ الطريق أمام نفوذ العناصر الغريبة إلى الأجهزة الرسميّة للبلاد؛ ذلك أنّه وفقاً للشواهد التاريخيّة والأبحاث العقليّة والتحليليّة فإنّ أنجع السبل التي يتّبعها الأجانب لممارسة الفتنة هي النفوذ إلى الأجهزة الرسميّة للبلاد. وإنّ تاريخ صدر الإسلام وكلّ ما تلاه من العهود حتّى زماننا المعاصر لخير شاهد على هذا المدّعى. ولطالما أكّد الإمام الخمينيّ الراحل‬، موجّهاً خطابه للمسؤولين، على الحذر من تدخّل الغرباء في شؤونهم، والتوقّي من نفوذ الأجانب إلى الأجهزة الإداريّة والمناصب الحسّاسة للبلاد. وصحيح أنّه على جميع أفراد الشعب أن يتوخّوا الحذر، لكن ليس في يد الجميع فعل كلّ شيء؛ إذ أنّ أهمّ سلطة تنفيذيّة هي في يد الحكومة وإنّ أهمّ واجبات الحكومة هو تشخيص العدوّ، وتعريف الناس به، وسدّ الباب أمام تسلّل العناصر الغريبة والمشبوهة إلى أجهزة الدولة وشغل المناصب الحسّاسة.

إنّ ما يؤسف له حقّاً هو أنّ هناك أمثلة كثيرة خلال تاريخ هذه البلاد ـ لا مجال إلى ذكرها ـ وحتّى خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة بعد انتصار الثورة

نفذت فيها عناصر مشبوهة إلى أجهزة الدولة التنفيذيّة أو التشريعيّة بسبب المسامحة أو حُسن النيّة أو الغفلة أو الخطأ ممّا أدّى إلى حرف الثورة عن مسيرها. وبعيداً عن التنويه بأسماء الأشخاص وتاريخ نشاطاتهم بالسنين والشهور فالجميع يعلم بأنّه لم يمض على وفاة الإمام الراحل (رضوان الله تعالى عليه) وقت طويل حتّى انحرفت الثورة عن مسيرها الحقيقيّ بشكل تدريجيّ، وقد بلغ الانحراف حدّ توجيه الإهانات إلى كلّ مقدّسات الإسلام الحنيف. ولم ينشأ هذا الوضع دفعة واحدة بل كان الانحراف بسيطاً في بداية الأمر ثمّ ما لبث أن تفاقم شيئاً فشيئاً حتّى وصل إلى ما نحن عليه اليوم. فلو عُمل منذ البداية على تحديد نقاط الضعف، وتشخيص العناصر المشبوهة، وحِيل دون تغلغلهم في الأجهزة التنفيذيّة للبلاد لاسيّما المناصب الحسّاسة، وخصوصاً في مراكز التخطيط وصنع القرار ورسم السياسات، لكان قد أُقيم سدّ منيع بوجه أصحاب الفتنة ومثيريها، أمّا إذا انتُهج أُسلوب التهاون والتسامح بسبب الصداقات والمحسوبيّات أو لعوامل أُخرى فلابدّ أن ننتظر فتنة أكبر وأشدّ.

الثالث: حفظ وحدة المجتمع في ظلّ قبول الولاية

يتعيّن على الحكومة الإسلاميّة أن تولي اهتماماً خاصّاً لحفظ وحدة الأُمّة حسب المعايير الإسلاميّة وفي ظلّ ولاية الفقيه، وأن تجعل من رضا القائد مقياساً لعملها، وتشمّر عن السواعد وتعلي الهمم في سبيل التقدّم بالبلاد بما ينسجم ويتناغم مع توجّهات هذا القائد، وتقف بكلّ حزم وثبات بوجه الانفصاليّين والذين يسعون لإثارة الفُرقة.

المحتويات

الفصل الثاني

عوامل الفتنة ودوافعها وأهدافها

الفصل الثالث

ماهيّة أصحاب الفتنة وكيفيّة نشوء الفتن الاجتماعيّة

الفصل الرابع

استراتيجيّات أصحاب الفتنة وتوجّهاتهم

الفصل الخامس

واجب المؤمنين تجاه الفتن الاجتماعيّة